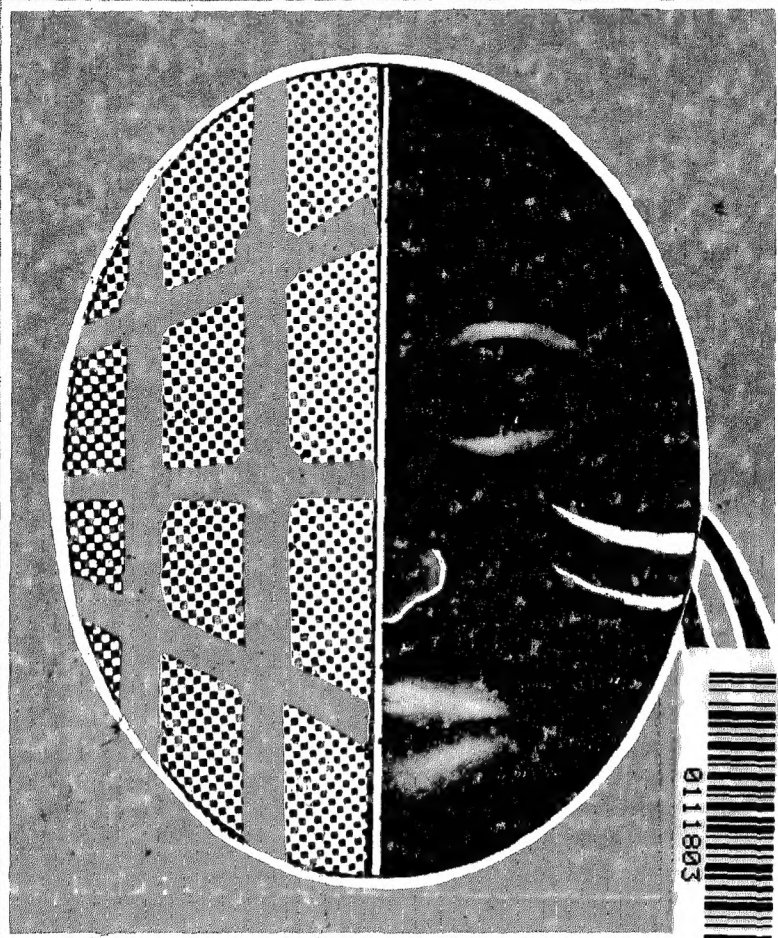


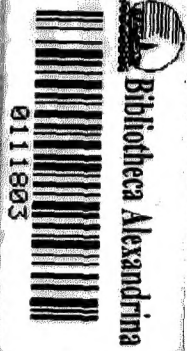
جيس افوجي

حب قلم

ترجمة
عبد الكريم محفوظ



روايات مالية ٥٠



صمم الفلاف : حسن عيسى

حبة قح

جيس انفوجي

روايات عالمية ٥٠

حبتي قمح

ترجمت
عبد الكريم محفوظ

منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي

دمشق - ١٩٨٣



المتوان الأصلي للكتاب :

JAMES NGUGI

A GRAIN OF WHEAT

على الرغم من وقوع حوادث هذه الرواية في كينيا المعاصرة فإن جميع الشخصوس من نسج الخيال . وأما المجيء على ذكر أسماء من أمثال جومو كينياوا وإياكي ، فقد كان أمراً لامناوحة عنه باعتبارهما يمثلان قسماً من تاريخ بلادنا ومؤسساتها . بيد أن المواقف والمشكلات حقيقية تماماً – وحقيقية إلى حد مؤلم في بعض الأحيان بالنسبة لأولئك الفلاحين الذين حاربوا البريطانيين ويرون الآن أن كل ما حاربوا من أجله قد نحتي جانباً .

جيمسن أنغوجي -

ليدز - تشرين ثاني ١٩٦٦

أنت أيها الأبله ، إن ذاك الذي تبذره لا يتسارع إلا لكي يموت .
وإن ذاك الذي تبذره لا تبذره كي يتخذ له شكلاً ، بل مجرد حبة ،
قد تكون حبة قمح ، أو حبة بذار آخر .

الكورنثيين : ١٥ / ٣٦

الفصل الأول

هاهوذا (ميوغو) تنهشه المواتجس مستلقياً على ظهره شاخصاً
ببصره إلى السقف . ثمة خصل هائلة من الحشائش والسرخس تنهدل
من سقيفة القش وتتجه كلها صوب قلبه . وهاهي قطرة من الماء الصافي
تتدلى فوقه مباشرة . لقد أخذت هذه القطرة تنتفخ رويداً رويداً
وتزداد اتساعاً كلما زادت تشبعاً بمرات السخام . هاقد بدأت الآن
في السقوط باتجاهه . فحاول أن يطبق حفيه ولكن هيهات له مايريده .
جرب أن يزيح رأسه غير أنه وجده مقيداً بهيكل السرير . لقد بدأت
هذه القطرة تتسع شيئاً فشيئاً كلما زادت اقتراباً من عينيه فأراد أن
يغطي عينيه براحتيه إلا أن يديه وقلميه ، بل كل أعضائه رفضت الخضوع
لمشيئته . وأخيراً استجمع ميوغو قواه وبجهد يائس أخير ، هبّ
مستيقظاً من نومه . وهاهو الآن يلتحف الدثار نهياً للمخاوف والوساوس
من أن تسمل عينيه — كما تراءى له في الحلم — فجأة قطرة من الماء
البارد . لقد كان الدثار خشناً وبالياً كما كان وبره يخزه في وجهه وفي
رقبته بل ويخز في الواقع كل الأقسام العارية من جسده . فوق ميوغو

في حيرة من أمره . أيقفز من السرير أم يبقى فيه . لقد كان السرير دافئاً ولما تشرق الشمس بعد في الوقت الذي كانت تتسلل فيه خيوط الفجر إلى الكوخ من شقوق الجدار . فحاول أن يلجأ إلى لعبة كان يارسها دائماً كلما حاصره الأرق إبان منتصف الليل أو مع تباشير الصباح الأولى . إن معظم الأشياء في حلقة الظلام الدامس أو وقت الفسق تفقد حلودها المميزة لها ويختلط الحابل بالنابل . فكانت اللعبة تتألف من محاولة تمييز الأشياء المختلفة بعضها عن بعض داخل الغرفة . بيد أن ميوغو وجد هذا الصباح أن من العسير عليه أن يركز انتباهه ، وكان يدرك أن الأمر لا يتعدى الحلم : ومع ذلك فقد لازمه الشاور بالردة من فكرة قطرة الماء البارد وهي تسقط في عينيه . واحد اثنان ، ثلاثة : طرح للدثار جانباً عن جسده وغسل وجهه وأشعل النار في الموقد . واكتشف في إحدى زوايا الكوخ مقداراً ضئيلاً من طحين الذرة في أحد الأكياس بين الأواني المنزلية . فوضع هذا الطحين في قصعة على النار وأضاف عليه الماء وحركه بملعقة خشبية . لقد كان يحب العصيدة في الصباح ولكنه كان كلما تناولها تذكر العصيدة المنصّفة في المعتقل ، بالزمن كيف يمر متاقلاً وكيف تعيد الأشياء سيرتها الأولى ، هذا ماتصوره ميوغو : إن الغد سيكون تماماً كالبارحة وكالأمس البعيد أيضاً .

تناول المجرفة والفأس كي يكرر مسلكه اليومي الذي أصبح مألوف حياته منذ أن غادر (ماغويتا) وهو آخر معتقل حل به . لقد كان على

ميوغو أن يجتاز الدروب الترابية في القرية لكي يصل إلى مزرعته الصغيرة
الجديدة التي كانت تقع على الجانب الآخر من ثاباي . وكالعادة وجد
ميوغو أن بعض النسوة قد بكرن قبله وأن بعضهن قد عدن أدراجهن من
النهر وقد تقوست ظهورهن الواهنة ضعف تقوسها المألوف بسبب جرادل
المياه ، لقد عدن أدراجهن في الوقت المناسب لتحضير الشاي والعصيدة
لأزواجهن وأطفالهن . هاقد ارتفع قرص الشمس الآن : كانت ظلال
الأشجار والأكواخ والرجال ظلالة رقيقة وطويلة على الأرض .

— كيف تسير الأمور معك هذا الصباح ؟ بادره (واروي) وقد
برز من أحد الأكواخ .

— إنها حسنة ، وكالعادة كان بودّ ميوغو لو مضى في سبيله غير
أن واروي بدا تواقاً للحديث .

— أتداهم الأرض باكراً ؟

— نعم .

— هذا ما أقوله دائماً لنفسي . امض إليها حين تكون التربة طرية .
لتجدك الشمس قد سبقتها وحينئذ لن تكون الشمس نداءً لك ، لكن إذا
وصلت الشمس قبلك إلى المزرعة فتباً لك من مزارع .

كان واروي ، وهو قروي عجوز ، يلبس كساءاً جديداً يكشف
بشكل صارخ عن تجاعيد وجهه وعن خصل الشعر الأشيب على رأسه

وعلى سبلة ذقنه . لقد كان هو من أعطى ميوغو قطعة الأرض الحالية كي يستنبت عليها مايقم به أوده . وأما أرضه فقد صادرتها له الحكومة حينما كان نزيل المعتقل . وعلى الرغم من أن واروي كان مهاباً للحديث والاعرف فقد توصل إلى احترام تحفظ ميوغو . ولكنه كان في هذا اليوم ينظر إلى ميوغو باهتمام جديد ، بل بفضول .

— كما يقول لنا كينيانا « تابع حديثه » فان هذه الأيام هي أيام الانتصار على الغزاة . » توقف عن حديثه وقذف على السياج بصقة كبيرة . وقف ميوغو مرتبكاً لهذه المواجهة . وكيف حال كونك ، هل أعددتة للاحتفال ؟ تابع واروي حديثه .

— « آه . إنه على مايرام » . قال ميوغو بعد أن اختلق لنفسه عنراً ومضى في سبيله . وبينما كان يعبر القرية كان يشحنه تفكيره محاولاً العثور على تفسير للسؤال الأخير الذي وجهه إليه واروي .

كانت ثاباي قرية كبيرة ضمت أثناء بنائها عدداً من النجود : ثاباي ، كامنسورا . كيهنجو ، وأقساماً من ورو . وحتى في عام ١٩٦٣ لم تتطور القرية تطوراً كبيراً عما كانت عليه في عام ١٩٥٥ حين تمّ على عجل تجميع ستائف القش والجلود الطينية في الوقت الذي كان فيه سيف الإنسان الأبيض مسلطاً بتشكيل خطير على رقاب العباد بحجة حمايتهم من لصوصهم الذين التجأوا إلى الغابة . لقد تداعت بعض الأكواخ من تلقاء نفسها وأما بعضها الآخر فقد تمّ تقويضه . ومع ذلك فقد

حافظت القرية على تناسق مطلق : لقد كانت تبدو من مسافة بعيدة على شكل كتلة ضخمة من الحشائش التي ينطلق منها الدخان في عنان السماء وكأنه دخان قربان محروق .

سار ميوغو وقد أطرق برأسه يحدق في الأرض كأنه خيجل من التلفت حوله . وبينما كان يستعيد في ذهنه صورة تلك المقابلة مع واروي سمع فجأة من ينادي باسمه . فاحفل وتوقف وحدق إلى غيثوا الذي جاء نحوه يعرج متوكئاً على عصا كازيه . وحين وصل إلى ميوغو وقف أمامه باستعداد وخلع قبعته البالية وصاح بأعلى صوته :

— « باسم حرية الإنسان الأسود أحييك » ثم انحنى بعله ذلك مرات عديدة في خضوع هزلي .

— هل تسير ، هل تسير الأمور معك على مايرام ؟ سأله ميوغو وهو لا يعرف كيف يجب عليه أن يرد على تصرف غيثوا . واجتمع حولهما في غضون ذلك طفلان أو ثلاثة يسخرون من تصرفات غيثوا المضحكة . لم يجر غيثوا جواباً مباشرة . كان قميصه ممزقاً وتلذع قبته سواداً من القنطرة . كانت الساق اليسرى لبتظاله مضوية ومشكولة بشكال كي تغطي جدعة سافه . وعلى حين غره تقريباً تشبث بيده ميوغو .

كيف أحوالك يا صاح ! كيف أحوالك يا صاح ! لأنني سعيد لرؤيتك تبكر إلى المزرعة . الانتصار على الغزاة . . . قه ، قه ، قه ، أنزاوول العمل حتى في أيام الآحاد ؟ اسمع لقد كنت مثلك قبل حالة

الطواريء ، قبل أن يفعل بي الإنسان الأبيض بطلقاته ماتراه ، كان بإمكانني أن أمارس العمل بكلتا يدي يا صاح . إن رؤيتي لحيويتك تجعل قلبي يرقص طرباً . الانتصار على الغزاة . أحييك أيها الزعيم .

حاول ميوغو أن يشد يده منه ، وبدأ قلبه بالخفقان ولكنه لم يجد الكلمات المناسبة . وزاد تضاحك الأطفال من اضطرابه ، وعلى حين غره تبدلت لهجة غيثوا : « لقد حطمتنا حالة الطواريء » قالها بصوت تخفقه العبرات وولى الأدبار بشكل مفاجيء . حث ميوغو خطاه وهو يدرك بأن عيني ذلك الرجل تلاحقاه . ثلاث نسوة كن عائدات من النهر توقفن حينما شاهدنه ، وقالت إحدها هن شيئاً ما بصوت مسموع ولكن ميوغو لم يحجر جواباً ولم يتطلع إليهن . كان يثير خلقه غباراً كالغبار الذي يثيره إنسان هارب . ومع ذلك فقد سار وهو يسائل نفسه : ترى ما العيب الذي يظهر عليّ هذا اليوم ؟ ولماذا يتطلع الناس إلي فجأة بفضول هل علق ثمة غائط بساقي ؟ .

وسرعان ما اقترب من نهاية الشارع الرئيسي حيث كانت تقطن المرأة العجوز . لم يكن إنسان يعرف كم عمرها : لقد كانت هناك كشيء ألفته العيون في القرية القديمة التي انقلبت الآن إلى قرية جديدة . كانت تعيش في القرية القديمة مع ابنها الوحيد الذي كان أصم أبكم . كان غيتوغو ، وهذا اسم الصبي ، يتكلم بمساعدة يديه اللتين كان يرافقهما غالباً صخب حيواني صادر عن البلعوم . كان وسيماً قوي البنية وأثيراً لدى الساحة الرئيسية في رونجي القديمة حيث كان الشباب

يقضون طيلة يومهم بالأحاديث ، وكان هؤلاء الشباب من وقت لآخر يؤدون بعض الخدمات لأصحاب الحوانيت يتكسبون من ورائها شيئاً من النقود « مجرد مصروف الجيب ولكي تبقي البنطال دافئاً ليس إلا » كما كان ينوه بعضهم باستخفاف . لقد كانوا يتصاحكون ويقولون بأن المال يجر اليه المال الآخر (أقاربه يا هذا !) في الوقت المناسب ،

كان غيتوغو يشتغل في المطاعم الرخيصة وفي حوانيت القصايين ، وكثيراً ما كان يحمل ويرفع الأحمال الثقيلة التي كان يتملص منها الآخرون . وكان يتباهى بعرض عضلاته المقتولة . وأما الإشاعات التي كانت رائجة وقتها في روني و ثاباي فقد كانت تفيد بأن العديداً من النساء الشابات قد خبرن وطأة ساقيه فوقهن . وفي الأمسيات كان غيتوغو يشتري الطعام — رطلاً من السكر أو رطلاً من اللحم — ويأخذه إلى البيت لأمه التي كانت تنفرج أساريرها ويستعيد وجهها المتغضن نصارة الشباب . ياله من صبي ، ياله من رجل — هذا ما كان الناس يتناقلونه عنه وقد سحرهم حذب هذا الصبي الأبكم الأصم على أمه .

وفي صبيحة أحد الأيام استيقظ الناس في ثاباي وروني ليجدوا أنفسهم ضمن طوق كامل من الجنود السود والبيض حملة البنادق ، ومن الدبابات التي لم يشاهدوا مثلها على قارعة الطريق لآخر مرة إلا أثناء حرب تشرشل على هتلر . ولعلع أزيز الرصاص في السماء فكتم الناس أنفاسهم هلعاً . لقد احتجز بعض الناس أنفسهم في المراحيض كما اختبأ بعضهم الآخر في الحوانيت بين أكياس السكر والفول ، ومع

ذلك فقد حاول بعض الناس التسلل خارج القرية باتجاه الغابة لالغاية إلا لكي يجلّوا أن كل اللدروب إلى الحرية موصدة في وجوههم . وبعد أن تمّ حشد الناس في الساحة الرئيسية في السوق بقصد غرابتهم ركض غيتوغو إلى أحد الحوانيت وقفز فوق الطاولة وكاد يقع على صاحب الحانوت الذي كان يرتعد هلعاً بين الأكياس الفارغة . فقام ببعض الحركات التعبيرية واصطخب بجلبة مرتبكة واختلس النظر إلى الجنود وأوماً إليهم ، فما كان من صاحب الحانوت إلا أن ألقى في الفراغ - مروراً بغيتوغو - نظرة بلهاء تطفح برعب خسيس . وسرعان ماتذكر غيتوغو أن أمه العجوز تمكث وحيدة في الكوخ ، وفي الحال جمع به خياله إلى تصور الأفعال المنكرة ومناظر الدماء فاندفع خارجاً من الباب الخلفي وقفز من فوق حاجز إلى الحقول يحفره الآن تصور ماقد تتعرض له أمه من مخاطر . البيت ، الأم ، ضرورة وجوده هناك ، كاهها صور خطرت في ذهنه ، مامن شيء يحمي أمه سوى عضلاته . لم ينتبه إلى وجود إنسان أبيض يرتدي بزة عسكرية ويكمن في أجمة صغيرة . « قف صاح به الرجل الأبيض . تابع غيتوغو عدوه . شيء ما خبطه على ظهره . رفع ساعديه في الهواء وهوى على بطنه . كان من الواضح أن الطلقة قد أصابت منه مقتلاً في قابه . ترك الجندي مكمنه . هاقد قتل إنسان آخر من عصابة الماو ماو .

حينما باغ النبأ العجوز لم تضيف شيئاً على قولها : يا للهول . وأولئك

الذين كانوا معها قالوا بأنها لم تدرف الدمع وحتى إنها لم تسأل كيف لقي
ابنتها مصرعه .

وبعد أن غادر ميوغو معسكر الاعتقال شاهد مرات عديدة تلك
المرأة العجوز خارج كوخها وكان كل مرة يشعر بالاضطراب وكأن
هذه العجوز تعرفه على حقيقته . كان لها وجه صغير حفرة التجاعيد
كما كانت عيناها صغيرتين يبرق فيهما بريق الحياة من حين لآخر .
ماخلا ذلك كانتا تبدوان كعنين ميتين . كانت العجوز تلبس الخرز
حول مرفقيها وعدة أطواق نحاسية حول عنقها وصمغ تشبه الأصداف
حول كاحليها ، وكانت حينما تسير تسمع لها خشخشة ملوية كخشخشة
أجراس الماعز . كانت عيناها أكثر مايشير الاضطراب في ميوغو ،
وكان يشعر دائماً بأنه عار ومكشوف أمامهما ، وفي أحد الأيام تحدث
إليها بيد أنها لم تضيف على أن نظرت إليه وبعد هنيهة أشاحت بوجهها
بعيداً عنه . شعر ميوغو بأنه ثقيل الظل عليها ومع ذلك فان وحدتها
كانت تثير فيه فيضاً من مشاعر الشفقة . رغب في مساعدتها . هذا
الشعور زوده بالدفع داخلياً فاشترى بعض السكر وطحين الذرة وحزمة
من الخطب من أحد حوانيت كابوي ، وفي المساء اتخذ دربه إلى بيت
المرأة . كان داخل الكوخ مظلماً وكانت الغرفة عارية من الأثاث كما
كانت الرياح الباردة تعوي من خلال صدوع الجدار ، وأما العجوز
فقد كانت تفرش الأرض قرب الموقد . وتذكر ميوغو أنه هو نفسه
كان ينام على الأرض قرب الموقد في كوخ عمته ، يقاسم الماعز والشيء

دفع الموقد . ولطالما كان يزحف ويحتم قرب المعزى طلباً للدفع .
وفي الصباح كان يجد وجهه وثيابه معفرة بالرماد ويديه وقدميه ملطختين
ببعر الماعز . وفي خاتمة المطاف جسأت نفسه على رائحة الماعز . ومن خلال
هذه الأفكار كان ميوغو يشعر بأنه متسمّر في مكانه من جراء ماتلقيه عليه
تلك المرأة من نظرات يبرق فيها اليقين . وفجأة بدأت ترتعد فرائصه
لفكرة احتمال لمس تلك المرأة له فولى الأدبار يعصف به الغثيان . لربما
نجم أمر جلل عن اتصاله بهذه المرأة العجوز .

هذا اليوم كانت هذه الفكرة طاغية في ذهنه حين شعر للمرة الثانية
برغبة الدخول إلى كوخها والتحدث إليها . لقد كان هنالك وثاق بينها
وبينه ربما لأنها تحيا وحيدة مثله . فتناقلت خطاه عند الباب وخارت
عزيمته فاتهار ووجد نفسه يسرع في الهرب مخافة احتمال دعوتها له
بالرجوع إليه من خلال قهقهة مجنونة .

في المزرعة شعر بأنه خاو . لم تكن ثمة محاصيل في الأرض ، تباً
لتلك الأعشاب اليابسة التي لانفع فيها وتباً لحرارة الشمس ، لقد بدت
المنطقة قفراء وجدباء ، كما بدت المجرفة أثقل من المعتاد والقسم الأجرد
من المزرعة بدا أكبر بكثير مما تستطيع إنجازة عضلاته المسترخية . حفر
قليلاً وحين شعر برغبته في التبول سار إلى سياج قريب من الممر : لماذا
ياترى تصرف معه واروي وغيثوا والنسوة بتلك الطريقة ؟ اكتشف
أن مثانته قد خدعته في إلحاحها عليه بالتبول . ليس إلا بضع نقاط قليلة
تقطرت منه فنظر إليها وكأن كل نقطة منها قد ملأته سحراً . امرأتان

شابتان كانتا ترتديان أنفُسَ ثيابهما بنية الذهب للكنيسة مرتا بالقرب منه ولاحظتا فيه رجلاً ضخماً يداعب قضيبه فقهقهتا ضاحكتين . فشعر ميوغو بالبلاهة وجرّ نفسه عائداً لمزاولة عمله .

رفع مجرفته وتركها تسقط على التربة ، ثم رفعها وأسقطها مرة ثانية . كانت التربة تبدو رخوة وكان أنفاق الخلد تقوم تحت سطحها مباشرة . لقد استطاع أن يسمع التربة وهي تنهال إلى الأسفل جافة وخاوية . ثار الغبار في السماء ، طمره . ومن ثم استقر في شعره وثيابه ، واستقرت ذرة غبار داخل عينه اليسرى ، فأسرع بالقاء المجرفة غاضباً وفرك عينه التي بدأت تؤلمه ألماً شديداً وقد بدأت الدموع تنهل من كلتا عينيه . ثم جلس : أين منه ذلك السحر الذي كان يجده في الأرض قبل حالة الطوارئ ؟

لقد مات أبوا ميوغو فقيرين وتركاه وحيداً في رعاية عمّة بعيدة له... كانت عمته ويثيريرو أرملة لها ست بنات متزوجات ، وكانت تذكر ميوغو بهذه الحقيقة كلما عادت سكرى إلى البيت .

« البنت نجس » كانت تقول ذلك وتكشف عن لثة فقدت أسنانها . كانت تسمّر ميوغو في مكانه من خلال نظرة قاسية وكأنما قد تأمر مع الإله عليها ، « لمن حتى لا يأتين لريارتي » ، أتضحك ، أنت ... ماجدوى قضيبك ؟ آه يا إلهي ، انظروا إلى هذا الناصر الجميل الذي أناخ بعبثه على كاهلي . لولاي لكنت لحقت بأبيك إلى القبر . تذكر ذلك وكف عن الضحك .

وفي يوم آخر كانت تبدي تدمرها من ضياع نقودها .
- « إنني لم أسرقها » كان يجيبها ميوغو مترجعاً إلى الخلف .
- ليس في البيت إلا أنت وأنا . ليس من المعقول أن أكون أنا
سارقتها ، فمن يمكن أن يكون قد سرقها ؟
- أنا لست لصاً .
- هل تقول بأنني أكذب ؟ كانت النقود هنا وأنت رأيتني أطمرها
تحت هاء العمود . بالطريقة التي ينظر بها . إنه يتصنع المسكنة .
كانت امرأة جدهاء تشكو دائماً من أن الناس يريدون قتلها . لقد
وضعوا لها الزجاجات المكسورة والصفادع في معدتها ، وأرادوا دس
السم لها في طعامها أو شرابها .
ومع ذلك فقد كانت تغادر البيت طلباً للمزيد من البيرة . وكانت
تضايق رجالاً من أتراب زوجها إلى أن يقدموا لها الشراب . وفي أحد
الأيام عادت وهي في حالة سكر شديد :
« ذلك الإنسان واروي ، إنه يكره أن يراني أكل وأنفوس ، وتلك
الإبتسامة - الماكرة - إنه - يحبو - يسعل - مثلك - أنت - اذهب
وانضم إليه » .

وحاولت أن تقلد سعلة واروي ولكنها إبان محاولتها تلك انتابها
السعال فعلاً . وفجأة أمسكت برقبته ، وقفت ، ترنحت وسقطت ،

ومن ثم اندلقت كل البيرة التي شربتها والقيء على أرض الكوخ . جثم ميوغو بين المعزى آملاً وخائفاً من أن تكون قد أسلمت الروح . وفي الصباح أجبرت ميوغو على رش التراب على القبيء . زكمت أنفه الرائحة الحريفة وخنقه الغثيان مما منعه من الكلام أو البكاء . لقد تأمرت الدنيا بأسرها عليه أولاً لحرمانه من أمه وأبيه وبعدئذ لاضطراره الاتكال على عجوز حيزبون .

وأخذت كلما اشتد بها الوهن تزيد من بغضها له ، وتسخر من أفعاله مهما فعل أو تصرف ، وبذلك أصبح ميوغو مهووساً بصورة عجزه . لقد كانت لها دائماً طريقته الخاصة في الإساءة إليه ، وربما من خلال توجيه ملاحظة ما إلى ثيابه أو وجهه أو يديه ، ملاحظة تقوض له كبريائه كله . فتظاهر بتجاهل آرائها ولكن أنثى له أن يغلق عينيه على نظراتها وابتساماتها الساخرة . صارت رغبته الوحيدة تتمثل في قتل عمته .

وفي إحدى الأمسيات استحوذت عليه هذه الفكرة الجنونية . كان يستشيط غضباً في داخله . هذه الليلة عادت ويشيريرو غير مضمورة . إنه لن يستخدم فأساً أو ساطوراً ، بل سوف يمسك بخناقها ويخنقها بيديه المجردتين . هبني العزم يا إلهي ، هبني العزم . كان يرقبها وهي تكافح كدبابة وقعت بين يدي عنكبوت ، أناتها وصرخاتها المخنوقة طلباً للرفقة بلغت مسامعه . لسوف يضغط المزيد ويجعلها تشعر بقوة

الرجل في يديه . اندفع الدم إلى رؤوس أصابعه ، وطفق يلهث مسحوراً
جلداً بجراحة وجساسة فعلته .

« لماذا تحملق بي بهذه الطريقة ؟ » سأله ويثيريرو ، وضحك في
سرّه . « إنني أقول دائماً بأنك إنسان غريب الأطوار ، إنسان من ذلك
الصنف الذي يقتل أمه ، أفليس كذلك ؟ »
أجفل . إن تبصرّها في سريره أمر مؤلم .

ماتت ويثيريرو بشكل مفاجيء بسبب تقدمها في السن وإفراطها
في الشراب . بناتها جنن إلى الكوخ لأول مرة منذ زواجهن ، وتظاهرن
بأنهن لم يلمحن ميوغو ، ودفتها دونما أية تساؤلات أو دموع . عدن
إلى بيوتهن . ومن ثم — ياللقراية — بدأ ميوغو يشعر بالحنين إلى عمته .
فمن هو بعد الآن ذلك الإنسان الذي بإمكانه أن يطلق عليه صفة القراية ؟
لقد شر بحاجته لإنسان ما ، لأي إنسان ينفعه أو يضره باسم حق القراية ،
ولسوف يكون هذا الإنسان أو ذاك ، طالما لا يتركه وحيداً ، إنساناً
دخيلاً عليه .

اتجه إلى الأرض . لسوف يعمل ويعرق ولسوف يجبر المجتمع
على الاعتراف به من خلال النجاح والثروة . لقد كان يتمثل العزاء
بالنسبة إليه في مجرد العمل بتفتيت التربة : في بذر البذار وفي مشاهدة
الأوراق الخضراء تتمايل وتطل بأعناقها من تحت التراب ، وفي رعاية
النباتات إلى أن تنضج ومن ثم في جني المحصول . كانت هذه الأمور

هي الشغل الشاغل للعالم الذي خلقه لنفسه وهي التي كونت الأساس الذي انطلقت منه أحلامه في عنان السماء . إلا أن كيهيكا جاء في تلك الآونة ، وفي تلك الآونة بالذات ، كي يعترض مسيرة حياته .

عاد ميوغو إلى بيته أبكر من المعتاد . وعلى الرغم من أنه لم يقم بعمل كبير فقد كان منهكاً . لقد سار إلى بيته كأنسان يدرك بأنه مطارِد أو مراقب ، ومع ذلك لا يريد فضح ذلك الإدراك من خلال مشيته أو تصرفه . وفي المساء سمع وقع خطى خارج الكوخ . فمن تراه هذا الطارق ؟ فتح الباب وفيجأة تمثل له خليط كل تلك المشاعر التي انتابته طيلة النهار خوفاً وحقدًا . واروي أكبر المجموعة سنًا ، كان على رأس المجموعة ، وبجانبه كانت تقف وامبوي ، إحدى نساء النهر . هاهي تبسم الآن وتكشف عن صف مفقود من الأسنان في فكها السفلي . وأما الإنسان الثالث فقد كان غيكونيو الذي كان متزوجاً من أخت كيهيكا .

« تفضلوا بالدخول » قال بصوت قلما تمكن معه من إخفاء اضطرابه . اختلق لنفسه عذراً وذهب باتجاه المرحاض . ابتعد عن كل هؤلاء الناس ... لم أعد أعير اهتماماً لم أعد أعير اهتماماً . دخل المرحاض وأنزل بنطاله حتى ركبتيه : هومت في أفكاره صور عجلٍ لزواره الجالسين في كونه . حاول مرات عديدة أن يقسر نفسه على إسقاط شيء ما في حفرة المرحاض . ولما أخفق في ذلك رفع بنطاله ، ولكنه

شعر براحة أكبر لقيامه بهذا الجهد . عاد أدراجه إلى زواره ولم يتذكر
بأنه لم يلق التحية عليهم حتى الآن .

« لسنا إلا ممثلين مرسلين لك من الحزب » - قال غيكونيو بعد
أن صافح ميوغو الجميع .
- الحزب ؟

- « نعم نحن مجرد أصوات من الحزب » أعاد عليه القول
غيكونيو بصوت بطيء وقد برقت عيناه ونحلب لبّه قوله الغامض .

* * *

الفصل الثاني

لقد كان الناس كلهم تقريباً أعضاء في الحزب ولكن لم يكن بمقدور أي إنسان أن يحدد موعد ميلاد الحزب على وجه الدقة: فبالنسبة إلى معظم الناس ، ولا سيما بالنسبة إلى الجيل الصاعد ، كان الحزب موجوداً دائماً ، مركز تجمع لمصلحة العمل . لقد استبدل الحزب أسماء ، جاءته القيادات ومضت ، ولكن بقي الحزب يفتح آفاقاً جديدة ، يستجمع قوة تزايد شيئاً فشيئاً إلى أن امتد نفوذه ، عشية الاستقلال ، من ذلك الأفق الذي يلاصق البحر إلى الأفق الذي يستند على البحيرة الكبرى .

ويمكن تتبع أصوله ، كما يقول الناس ، إلى ذلك اليوم الذي جاء فيه الإنسان الأبيض إلى البلاد شاهراً كتاب الله بكلتا يديه كشاهد سحري على أن الإنسان الأبيض جاء رسولاً من الله . كان كلامه معسولاً كما كان تواضعه يثير الشفقة . وتجاهل الناس ، ردىاً من الزمن ، صوت متنبئ في قبيلة الغيكويو الذي قال ذات مرة : سيأتي إليكم قوم بثياب كالفراشات . ومنح الناس ذلك الإنسان الغريب ذا البشرة المسمّطة موطئ قدم كي يشيد ملجأ مؤقتاً له . وبعد أن استكمل

هذا الغريب بناء كونه أشاد بناء آخر على بعد ياردات قليلة . هذا البناء دعاه بيت الله حيث كان بوسع الناس ارتياده للعبادة وتقديم القرابين .

وتحدث الإنسان الأبيض عن بلاد أخرى تقع خلف البحر وتربح فيها امرأة قوية على العرش بينما كان الرجال والنساء فيها يرقصون تحت ظل سلطانها وكرمها . وكانت على استعداد لبسط نفوذها حتى يشمل الآغيكويو . لقد سخر الناس من هذا الإنسان الغريب الأطوار الذي انسمطت بشرته على نحو عميق جداً ما أدى إلى انسلاخ بشرته السوداء الخارجية . لا بد من أن الماء الساخن قد دخل في رأسه .

ومع ذلك فان كلماته عن امرأة تربح على العرش قد لامست شغاف القلوب وغاصت في أعماق تاريخهم . حدث ذلك منذ سنين عديدة جداً خلت . بعدئذ حكمت النسوة أرض الآغيكويو . لم يكن لدى الرجال أية أملاك وما وجدوا هناك إلا لتلبية نزوات النساء ورغباتهن . كانت تلك السنون سنين عصيبة . وهكذا اغتتم الرجال فرصة ذهاب النساء إلى الحرب فدبروا ثورة وتعاهدوا سرّاً على إبقاء النساء مكبلات واحتنهن بالأخرى في مساعن العام ابتغاء الحرية . ولسوف يضاجعون كل النساء في وقت واحد ألم يتعهدوا على أن الأبطال يعودون جياً للحب والدعة ؟ وفعل القدر البقية ، وأصبحت النساء حبلى ، والاغتصاب لاقى مقاومة طفيفة .

ولكن ذلك لم يكن نهاية امرأة تربح على السلطة في البلاد . إذ بعد

مضي عدة سنوات أصبحت امرأة أخرى قائدة وحكمت قطاعاً واسعاً في مورانغا . كانت امرأة جميلة ، وكانت في حفلات الرقص تهز أردافها المكتنزة ذات اليمين وذات الشمال ، كما كان شعرها المضفور يرتفع ويهبط خلفها وفقاً لوقع خطواتها . وهذا ما جعل الرجال ، بالإضافة إلى بريق أسنانها البيضاء بياض الحايب ، يلعبون شفاهمهم ويلمظون شهوة . والتفوا حول بلاطها ، شيباً وشباباً ، دونما خجل يحدهم الأمل . وانغو ماكري اصطفت لنفسها محاربين شباباً أصبحوا هم أنفسهم موضع غيرة وحسد الآخرين الأقل حظوة منهم . وأدى لها الولاء رجال أكثر عدداً ، وما تخلّفوا عن حضور حفلة راقصة واحدة كانت تظهر بها ، وكان العديد منهم غاية في الشوق لأن تتسنى لهم إلقاء نظرة على فخذها . إلى أن جاءت في إحدى الأمسيات وقد حفزها دونما ريب إما الإعجاب الذي كانت تثيره ، وإما أنها كانت ترغب في إشباع اشتياقهم الوقح ، فتجاوزت وانغو ماكري نفسها . فرقصت ، بعد أن نصت عنها ثيابها كلها ، عارية تحت ضوء القمر . رالهب مشاعر الناس ، مدة لحظة ، ذلك السلطان الذي يفرضه جسد امرأة عارية . ولها بما القمر : وررفت على وجه المرأة نشوة ، خليط من الغم والبهجة . ولربما عرفت هي أيضاً بأن هذه الليلة هي النهاية : مامن امرأة سارت أو رقصت عارية على مرأى من الملأ فخلعت عن العرش وانغو ماكري ، آخر عظيمات نساء الغيكويو .

مسألة المسيح لم يستطيعوا فهمها في البداية ، إذ كيف يسمح الله

بأن يُصلب هو نفسه على شجرة ؟ وتحدث الإنسان الأبيض عن ذلك الحب الذي لا تتركه العقول . لم يكن لدى أي إنسان آخر حب يفوق حب ذلك الإنسان ، وقرأ من الكتاب الأسود الصغير عن إنسان قدم حياته في سبيل أصدقائه .

وأما النفر القليل من الناس الذين صباؤا إلى المسيحية فقد شرعوا يدافعون عن معتقد غريب على عادات البلاد . داسوا بأقدامهم على الأماكن المقدسة لكي يبينوا للآخرين أن الأذى لا يمكن أن يلحق بأولئك الذين تصونهم يد الرب . وسرعان ما لاحظ الناس أن الإنسان الأبيض قد حاز بشكل تدريجي على أرض أكثر من ذي قبل تلبية لحاجات وضعه المتزايدة . لقد قوّض الكوخ المسقوف بالقش ليشيد مكانه بناء أرسخ منه . احتج شيوخ البلاد . لقد كانوا يبصرون ما يقع خلف الوجه الضاحك للإنسان الأبيض وشاهدوا فجأة رتلاً طويلاً من الغرباء الحمر الجدد الذين كانوا يشهرون السيف وليس الإنجيل .

واياكي وغيره من قادة المحاربين حملوا السلاح . الحية الحديدية التي تحدث عنها ميوغو وكيبورو كانت تنسل بسرعة باتجاه نيروبي بغية استثمار كامل للمناطق النائية من البلاد . فهل استطاعوا طردها ؟ تشبّث الحية بالأرض وهي تسخر من جهودهم إلى حد الإحتقار . والإنسان الأبيض ، بقضبان الخيزران التي كانت تبصق اللهب والدخان ، دافع عن نفسه ، وضحكاته المتوعدة بقيت أصدائها في قلوب الناس

إلى أجل طويل بعد اعتقال واياكي ونقله إلى الساحل مكبل اليدين
والقدمين . وفيما بعد ، كما يقال ، دفن واياكي حياً في كيبوازي
ورأسه ناثيء في الأرض كتحدير حيّ لأولئك الذين قد تسول لهم أنفسهم
في السنوات القادمة ، محاولة تحدي سلطة المرأة المسيحية التي تجاوز
ظل حمايتها الآن السهل والبحر .

لم يعر أحد اهتماماً إلى دم واياكي في ذلك الحين ، ولكن إن عدنا
بأبصارنا إلى الوراء لوجدنا أنه كان يحمل معه بذرة ، حبة ، خلقت
حزباً سياسياً انبثقت قوته الأساسية فيما بعد من ميثاقه مع الأرض .

في غضون ذلك ، فرّخت المراكز التبشيرية قادة جدداً ، رفضوا
أن يأكلوا من طيبات فرعون واختاروا ، بدلاً من ذلك ، قطع الحشائش
وصنع الطوب مع الأطفال الآخرين .

ولذلك رأى الناس في شخص هاري ثوكو رجلاً يحمل رسالة
الله : امض إلى فرعون وأبلغه : دع شعبي يمضي ، دع شعبي يمضي .
وأقسم الناس أن يسيروا خلف هاري عبر الصحراء . ولسوف يشدون
أحزمتهم على بطونهم استعداداً لمكابدة العطش والجوع والدموع والدماء
إلى أن تطفأ أقدامهم أرض كنعان . لقد تقاطروا لحضور اجتماعاته
زرافات ووحداً ينتظرون منه أن يعطيهم الإشارة . وشهر هاري
بالإنسان الأبيض ولعن ذلك الكرم وتلك الوقاية اللتين تنكران على الناس
الأرض والحرية . لقد أذهلهم بقراءته عليهم جهازاً رسائل إلى الإنسان

الأبيض ، رسائل صوّر فيها بعبارات واضحة سحق الناس على الضرائب وعلى العمل الإجباري في أرض المستوطن الأبيض ، وعلى خطة بناء الشكنات العسكرية التي تركت العديد من الناس السود ، بعد الحرب الكبرى الأولى ، بلا بيوت أو أراض حول تيغوني وأمكنة أخرى .

طلب منهم هاري أن ينضموا إلى صفوف الحزب ليجدوا القوة في الوحدة .

تحدثوا عنه في بيوتهم وأنشدوا الأهازيج في مديحه في حوانيت شرب الشاي وفي الأسواق كما كانوا ينشدونها في طريقهم إلى كنائس الغيكويو الانكايكانية أيام الآحاد . كانت كل كلمة ينطق بها هاري تصبح أنباء تتناقلها الألسن من تل إلى آخر في طول البلاد وعرضها . كان الناس يتوقعون حدوث شيء ما . كانت ثورة الفلاحين قاب قوسين .

ولكن الإنسان الأبيض لم يكن غافلاً . فاقنيد هاري الشاب مكبلاً بالأصفاد ، وما تجنب الحفرة التي دفن فيها وإياكي حياً إلا بصعوبة . فهل كان هذا الحدث هو الإشارة التي كانوا ينتظرونها ؟ وتدفق الناس على نيروبي من كل فج عميق ، وأقسموا أن يقيموا أيامهم ولياليهم حول دار الحكومة حتى أعاد لهم الحاكم بنفسه محبوبهم هاري .

كان واروي حينئذٍ في مقتبل العمر ، سار على قدميه كل تلك المسافة من ثباي إلى نيروبي كي ينضم إلى تلك المسيرة . إنه لم ينس قط

ذلك الحدث العظيم . وحين اعتقل جومو كينييانا وقادة الحزب الآخرون
في عام ١٩٥٢ ، تذكر واروي مسيرة ١٩٢٣ .

« يجب أن يفعل الشباب من أجل جومو ما فعلناه من أجل هاري .
ما شاهدت في حياتي أبداً شيئاً يشبه حجم ذلك الرتل من الرجال والنساء »
خطب ، وهو ينتف شعرة لحينه برفق . « جئنا من تلال هنا ومن تلال
هناك ، من كل مكان . جاء معظمنا سيراً على الأقدام ، وآخرون لم
يتزودوا بالطعام فتقاسمنا كل كسرة خبز جلبناها معنا . ما شاهدته
هناك كان الحب العظيم بعينه . لقد سقطت حبة فول على الأرض وسرعان
ما تم تقسيمها بين الأطفال . بقينا نتجمع لثلاثة أيام في نيروبي وأقسمنا
بدمائنا على تحرير هاري » .

وفي اليوم الرابع ساروا إلى الأمام وهم ينشدون . والشرطة التي
كانت بانتظارهم بالبنادق والحرايب المشرعة فتحت النار عليهم . ثلاثة
رجال رفعوا أذرعهم في الهواء . يقال بأنهم حين سقطوا تشبهوا بقبضاتهم
بالتراب . وابل آخر من الرصاص فرق الجمهور . سقط رجل وامرأة
وتدفق دمهما على الأرض . وركض الناس في اتجاهات شتى . وفي
ثوان معدودة كان الجمهور الكبير قد تشتت ، ولم يبق خارج المبنى
الحكومي إلا خمسة عشر لصاً متفرجاً على الساحة .

« لقد وقع خطأ ما في اللحظة الأخيرة » قال واروي وقد كفّ
عن نتف شعرات ذقنه . « ربما لو أن الحرايب كانت في أيدينا » .

لقد أخفقت ثروة الفلاحين ، وهدأت سورة شبح المرأة العظيمة التي وضعت يدها الرحيمة حداً للحروب القبلية ، ولذلك رقدت في قبرها بسلام .

وأما هاري الشاب فقد تم ترحيله إلى مكان قصي من البلاد .

ونخاب فأل الحزب مؤقتاً . ولكن صادف في هذه الآونة أن برز على المسرح الرجل ذو العينين اللتين تقدحان شرراً . ما كان يعرفه وقتها إلا نفر قليل ، ولكنه أصبح ، فيما بعد طبعاً ، مشهوراً لدى الدنيا بأسرها باسم الحربة الملتهبة .

حضر ميوغو ذات مرة اجتماعاً للحزب في سوق رونجي وذلك لأن إشاعة سرت تفيد بأن كينياتا ، الذي عاد مؤخراً من بلاد الإنسان الأبيض ، سوف يتحدث فيه . وعلى الرغم من تحديد بداية الاجتماع في وقت مابعد الظهر لم يبق في السوق موطيء قدم لإنسان منذ الساعة العاشرة صباحاً . وقف الناس على سطوح الحوانيت . بدوا وكأنهم أسراب من الجراد تتكدس فوق الأشجار . جلس ميوغو في مكان بحيث يستطيع منه مشاهدة الخطباء عن كثب . وغيكونيو ، الذي كان حينها نجاراً مشهوراً في ثاباي ، جلس على بعد أقدام قليلة منه . وبجانب النجار كانت تجلس مومي . كان يقال عنها بأنها أجمل امرأة في كل النجود الثمانية ، حتى إن بعض الناس كانوا يطلقون عليها وانغو ماكري بسبب نظراتها .

بدأ الاجتماع بعد أن تأخر ساعة واحدة . وعلم الناس بأن كينياتا لن يحضر الاجتماع . ولكن على الرغم من ذلك فقد كان هنالك عدد كبير من الخطباء من مورانغا ونديروبي ، كما حضر خطيب من قبيلة ليو من نيانزا ليشير بحضوره إلى أن الحزب قد حطم الحواجز بين القبائل . كيهيكا من ثاباي كان أحد الخطباء الذين هلّل لهم الجمهور بحماس كبير . لم يحط بلغة توجيه الرسائل إلى الإنسان الأبيض كما كانت الخطابات في أيام هاري .

« ليست هذه السنة هي عين سنة ١٩٢٠ . إن مايقصنا اليوم هو العمل ، هو توجيه ضربه تتردد أصداؤها » قال كيهيكا بينما كانت النساء من ثاباي يمزقن أثوابهن وشعورهن ويزعنن مبهتجات . أشير وقتها إلى كيهيكا ، أحد أبناء الأرض ، بأنه واحد من أبطال الإنقاذ . ميوغو ، الذي كان قد رأى كيهيكا على التل مرات عديدة ، ماساوره الشك قط بأن هذا الإنسان كان يتمتع بقوة خارقة ومعرفة واسعة . فتح كيهيكا سجل القبيلة ، ومجىء الإنسان الأبيض وولادة الحزب . نظر ميوغو إلى غيكونيو ومومبي ، عيونهما كانت مسمرة على كيهيكا ، حياتهما بدت وكأنها معتمدة على كلماته الهادرة .

« لقد ذهبنا إلى كنيستهم . موبيا ، مرتدياً مسوح الرهبان ، فتح الانجيل . قال : دعونا نركع كي نصلي . ركعنا . موبيا قال : لنغلق عيوننا . ففعلنا ذلك . ولكن عينيه ، أعلمون ؟ ، بقيتا مفتحتين كي

يتمكن من قراءة الكلمات . وحينما فتحنا عيوننا كانت الأرض قد طارت منا وكان سيف اللهب لنا بالمرصاد . وأما مومبا ، الذي ماكف عن قراءة الانجيل ، فقد كان يرجونا أن نخبره كنوزنا في السماء كي لا يتمكن العت من إفسادها . في الوقت الذي كان هو يرسي كنوزه على الأرض ، على أرضنا » .

ضحك الناس . ولم يشاركههم ضحكهم كيهيكا . كان رجلاً صغيراً ذا صوت جهوري . لقد أشار مرة أو مرتين ، وهو يخطب ببطء ويشدد على الكلمات الهامة ، إلى الأرض والسماء وكأنه يُشهدهما على أن ماقاله هو الحقيقة عينها . تحدث عن التضحية الكبرى .

« سيأتي يوم يهجر فيه الأخ أخاه والأم وليدها ، ونسمع فيه ، أنتم وأنا ، غليان نداء الأمة » .

شعر ميوغو بغصة في حلقه . لم يكن يصفق لكلمات لاتقع منه موقع القلب . بأي حق يتحدث فيه مثل هذا الصبي ، لربما هو أصغر سناً من ميوغو ، بذلك الأسلوب ؟ يالللصلف ؟ لقد تحدث كيهيكا عن الدم بكل بساطة وكأنه يتحدث عن جر مياه النهر ، تصور ميوغو ، وبدأ ينتابه الغثيان لم رأى الدم ورائحته . إنني أكرهه ، سمع نفسه تقول وخاف من ذلك ، ونظر إلى مومبي متسائلاً عما كان يدور في ذهنها . عيناها كانتا ماتزالان مسمرتين على أخيها . كانت عينا كل إنسان شاخصتين صوب المنصة . شعر ميوغو بلسعة الغيرة حينما التفت وتطلع

أيضاً إلى الخطيب . في تلك اللحظة تلاقت عيونهما ، أو هكذا تخيل ميوغو ، على الإثم . ولهنية بدا أن الجمهور والدنيا كلها قد غرقا في صمت مطبق ، ولم يُترك على المسرح إلا كيهيكا وميوغو . كان شيء ما يجيش في صدر ميوغو ويفتش له عن مخرج ، شيء كان ، في الواقع جيشانا من الرعب والكراهية .

« ليس عليكم أنتم إلا أن تتفرجوا وتؤدوا صلواتكم » قال كيهيكا داعياً بذلك جمهور مستمعيه إلى تذكر المثل السواحلي الشهير : « من مأمته يؤتى الحنر » (١)

لقد عاش كيهيكا كلمات التضحية التي كان قد تفوه بها على مسامع الحشود ، إذ بعد اعتقال جومو وبقية القياديين في أكتوبر عام ١٩٥٢ ، اختفى فوراً كيهيكا في الغابة لكي تلتحق به فيما بعد حفنة من شباب ثاباي ورونجي .

إن أعظم انتصار مؤزر لكيهيكا كان الاحتلال الشهير لـ (ماهي) . كانت (ماهي) موقعاً حصيناً للشرطة في وادي (ريفت) الذي بقي بطنه يدعى لسنوات عديدة بالمرتفعات البيضاء . وكان يقوم في (ماهي) أيضاً سجن مؤقت للرجال والنساء الذين تم ترحيلهم سريعاً إلى معسكرات الاعتقال . وبما أن (ماهي) كانت تقوم في موقع متوسط فانها كانت تزود بالبنادق والعتاد مراكز أخرى أصغر منها للجنود والشرطة متوزعة

« (١) - Kikulacho kiko nguoni mwako » - المترجم .

في وادي (ريفت) كي تصون المستوطنين في كينيا وترفع من معنوياتهم .
وإذا أنت وقفت في (ماهي) في أي وقت من أوقات النهار رأيت أسوار
الخنندق المحيط بها وكأنها حارس يسحر الألباب لواد من أجمل وديان
البلاد . كانت الأسوار عبارة عن مدرجات ترتفع نحو المرتفعات ، ومن
ثم صف من الهضبات الأصغر - قمم بعضها منحوت على شكل دائري
وقمم بعضها الآخر مليئة بالحروف وفوهات البراكين - تترجع إلى
الوراء على شكل حجب من الضباب والسر .

وفي الليل كانت الظلمة تحجب الوادي ، لا بصيص فيه إلا ذلك
النور المنبعث من (ماهي) كان كل شيء هادئاً . كان الحراس قد
سكروا وغطوا في سبات عميق (على عرار ضباطهم البيض الذين
اعتادوا حياة الدعة وذلك لأن اسم (ماهي) نفسه كان يعني المنيع ضد
أي هجوم) مخلفين ورائهم حفنة من الحراس مراعاة للتقاليد . وفجأة
مزقت سكون الليل أصوات الأبواق والمزامير والصنوج كلها في آن
واحد . من داخل السجن استجابت لها صيحات التهليل للاستقلال .
الضابط المسؤول ، وقد أيقظته هذه الجلبة من تأثير الويسكي الذي كان
قد تناوله من قبل ، مدّ يده غريزياً إلى الهاتف ، محاولاً القيام بعمل
فد يتمثل في رفع بنطاله واستعمال الهاتف في وقت واحد . وفجأة
وجدت اليده التي رفعت سماعة الهاتف نفسها تسقط على الأرض التي
تكوّم عليها بنطاله أيضاً . لقد كانت أسلاك الهاتف مقطوعة ولذلك لم

تستطع (ماهي) طلب النجدة من المراكز النائية عنها . والشرطة ، وقد أخذت على حين غرة ، أبدت مقاومة ضعيفة حين اندفع كيهيكا ورجاله كالإعصار إلى الداخل . وتسلق الجدران بعص رجال الشرطة وقفزوا عنها للنجاة بأرواحهم . ومن تم اندفع رجال كيهيكا إلى السجن وحرروا المساجين وقادوهم في الظلام خارج الموقع ، الذي أصرمت النار فيه وهرب رجال كيهيكا إلى الغابة بعد أن حملوا معهم ذخائر جديده من الرجال والبنادق والعتاد ليتابعوا الحرب على نطاق لم يكن يحلم به أحد في أيام واياكي وهاري الشاب .

أصبح الناس يعرفون كيهيكا بأنه بجمع الإنسان الأبيض ، وقالوا عنه بأنه كان يستطيع أن يزلزل الجبال وأن يخطف الرعد من السماء .

وضع مبلغ من المال تمناً لرأسه .

إن أي إنسان يأتي بكيهيكا ، حياً أو ميتاً ، يتلقى مبلغاً ضخماً من المال .

بعد سنة ألقى القبض على كيهيكا وقد كان وحيداً عند طرف غابة كيني .

افتراء . من يصدق هذه الأنباء ؟ إن ذلك الإنسان الذي كان يزلزل الأشجار والجبال ، ذلك الإنسان الذي كان بمقدوره أن يزحف على بطنه لعشرة أميال فوق الرمال والأشواك ، كان من المؤكد أنه بعيد المنال بالنسبة للإنسان الأبيض .

خضع كيهيكا للتعذيب . يقول بعض الناس أنهم أدخلوا عتق زجاجة في استه حين كان الناس البيض من المكتب الخاص يحاولون انتزاع أسرار الغابة منه . ويقول بعضهم الآخر بأن مبلغاً كبيراً من المال قد دفع له بالإضافة إلى رحلة مجانية إلى انكلترا لمصافحة المرأة الجديدة التي تربعت على العرش — ولكنه ما كان ليتكلم .

شنق كيهيكا على مرأى من الملاء ، في أحد أيام الآحاد ، في سوق رونجي في مكان لا يبعد كثيراً عن المكان الذي وقف فيه ذات مرة يدعوا لبذل الدماء وإرواء شجرة الحرية . فوة مشتركة من الحرس القومي والشرطة جلدت الناس وساقتهم من ثاباي ومن النجود الأخرى لكي يشاهدوا جسد النائر متأرجحاً على شجرة من الأشجار — ولكي يتعظوا أيضاً .

الحزب على أية حال ، بقي حياً وانتعش ، كما يقول الناس ، على جراح أولئك الذين خالفهم وراءه كيهيكا .

الفصل الثالث

« لن نمكك عندك طويلاً » قال غيكونيو بعد برهنة صمت .
« جئناك في الواقع كي نقف على رأيك بالنسبة لاحتفالات الاستقلال
التي ستجري يوم الخميس » .

إذا تطلعت إلى غيكونيو لا يمكنك أن تصدق بأنه هو نفسه ذلك
الرجل الذي أثار زواجه من مومي . منذ ثلاثة عشر عاماً تقريباً ،
حفيظة خطابها من الشباب الآخرين ؛ : ماذا وجدت فيه مومي ؟ كيف
كان بوسع امرأة روعة في الحمال أن تلقي بنفسها في حمأة الفقر وهي
مفتحة العينين ؟ والآن بعد عودة غيكونيو من المعتقل إلى البيت بأربع
سنوات أصبح واحداً من أغنى الناس في ناباي . لقد ابتاع ، وخرأ
قطعة أرض هي عبارة عن مزرعة تبلغ مساحتها خمسة أكرات (الأكر =
٤٠٠ م ٢) ، وكان له حانوت في رونجي يحمل اسم « مخازن غيكونيو
العامة » ، وبالأمس فقط اشترى شاحنة مستعملة لاستخدامها في العمل
التجاري . وفوق كل هذا تم انتخابه أمين الفرع المحلي للحزب مكافأة له —
كما قال الناس — على صلابة رجولته التي امتنع تحطيمها على أي معتقل .
لقد كان غيكونيو محط احترام وإعجاب كرمز من الرموز التي يصبو
إليها أي فرد : إنساناً حراً إلى حد رهيب يحول أي جهد في أي مضمار
إلى نجاح .

« ماذا — ماذا تريد ؟ » سأل ميوغو وقد شخص ببصره إلى واروي .
كانت حياة واروي ، على نحو ما . هي قصة حياة الحزب : لقد
شارك في الاجتماعات التي كان يعقدها هاري الشاب ، وساهم في
تعمير مدارس الشعب وأصغى إلى خطابات جومو في العتريينات . انضم
كان واروي أحد الناس القلائل الذين رأوا في ذلك المستحدم الجديد
في المجلس البلدي لنيروي . رجلاً سيئه الأقدار للسلطة .

« سيقوم بأمور عظيمة » كان يقول عن جومو ، « يمكنكم رؤية
ذلك في عينيه » .

نظر واروي إلى الموقد . كان ينتصب على أنفيه سراج يظهر
السحام على عتق زجاجته وجوابيها .

« نحن أهالي قرية ثاباي يجب أن نلعب دورنا أيضاً » بدأ حديثه
بصوت على الرغم من ضعفه كان يلف العرفة بأكملها . « نعم يجب
أن نلعب دورنا بالطريقة التي نعرفها . إذ يجب ألا يقال أن ثاباي قد
وصحت بالعار أسماء أبنائها الذين فقدتهم في الحرب . لا . يجب أن
نبعثهم — حتى من بين الأموات — كي يشاركونا دورنا . (ياشعبنا)
هل هنالك نشيد للحرية أعذب منه ؟ وفي الحقيقة فقد أرقنا انتظار هذه
المناسبة ليالي عديدة . وأولئك الناس الذين قضوا قبلنا ، وأولئك الذين
تركوا كي يشهدوا شروق شمس هذا اليوم ، وحتى أولئك الذين
سيولدون غداً ، يجب عليهم جميعاً أن يسهموا في الاحتفال . وفي

اليوم للذي نضع فيه أيدينا على وإياكي نريد أن نشرب من طاسة اليقطين نفسها — نعم — من طاسة اليقطين نفسها » .

خيم الصمت بعد هذه الكلمات . وبدأ أن كل واحد من الحضور قد انكمش على نفسه وكأنه يقلب هذه الكلمات في ذهنه . تنحنحت المرأة ، إشارة إلى أنها ستسلم دفعة الحديث من واروي . تطلع إليها ميوغو .

لم تكن وامبوي طاعنة في السن على الرغم من أنها كانت قد فقدت معظم أسنانها . وأثناء حالة الطوارئ كانت تنقل الأسرار من القرى إلى الغابة ومن الغابة إلى الدساكر والقرى . كانت تعرف الحركات السرية في ناكورو وانجورو وألبرغون وفي أمكنة أخرى داخل وادي ريفت وخارجة . تروى رواية عنها تفيد بأنها كانت ذات مرة تحمل مسدساً معلقاً بفخذها قرب الحقو . وكانت ترتدي ثياباً طويلة فضفاضة وسميكة ، وتمثل صورة البلي والخرف والرهن . كانت تريد نقل المسدس إلى نايفاشا . وشاءت الأقدار أن تحتجز على حين غرة في إحدى عمليات التفتيش التي كان يمارسها الجنود والشرطة من حين إلى آخر ، تلك العمليات التي كانت تبتلي بها البلاد في تلك الآونة . لقد تم حشر الناس في الساحة خلف الحوائط . وسرعان ما جاء دورها في التفتيش . بدأ ضرسها يؤلمها : فلوت شفتيها وبدأت تن وطفق اللعاب يسيل من شديها وينصب على ذقنها . الشرطي الذي بدأ بتفتيشها كان من

قبيلة الغيكويو قال لها باللغة السواحلية: آسف ياماما : ثم قام بحشرجات حنونة أخرى وتابع تفتيشه . بدأ بصدرها ، تحرى تحت إبطيها بشكل دقيق ، ماداً يديه بشكل تدريجي إلى الأسفل نحو المنطقة الحرام . وفجأة زعقت وامبوي فتوقف الرجل مذهولاً .

« ياالصبيان هذه الأيام » بادرته بالقول . « هل تلاشي لديكم الخجل ؟ ولمجرد أن يقول لكم الإنسان الأبيض أن تفعلوا ذلك ، إنك على وشك أن تجس فرج أمك أمك التي ولدتك ، حسناً ، سأرفع ثيابي كي تتمتع ناظريك بفرج أمك ، لقد شاخ كثيراً . ولكن لنر مالفائدة التي ستجنيها من ذلك طيلة بقية عمرك ؟ » .

وتظاهرت عملياً بأنها على وشك رفع ثيابها وعرض عريها ، فأشاح الرجل ببصره بعيداً عنها على نحو عفوي .

« ابتعدني من هنا » هرت عليها . « . . . من التالي ؟ » . لم تتحدثت وامبوي بتاتاً عن هذه الرواية ولكنها مادحضتها قط ، وكانت حين يسألها الناس عن صحة هذه الرواية لاتضيف شيئاً على ابتسامة مبهمه .

« يجب أن نفعل كما كان يفعل شيوخنا الذين كانوا يصمون دائماً قليلاً من البيرة على الأرض قبل أن يشربوا هم أنفسهم . » قالت وامبوي الآن . « فلماذا كانوا يفعلون ذلك ياترى ؟ كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا دائماً يتذكرون أرواح أولئك الناس المدفونين تحت الأرض . ونحن أيضاً ليس بوسعنا أن ننسى أبناءنا . ولقد كان كيهيكا رجلاً عظيماً وأي رجل » .

كان ميوغو يقتعد كرسية بوفار . وكان واروي ينظر إلى السراج
الذي كان ياقى نوراً خافتاً على الكوخ ويلفّه بغموض مخيف .

كانت واهبوي تسنند برفقيها إلى ركبتيها وتحضن ذقنها براحتي
كفسيها المكورتين . بينما كان غيكو نيو يحمق في الفراغ مذهولاً .
« ماذا تريدون ؟ » سألهم ميوغو بصوت يخالجه شيء من الهلع .

وفجأة سمعوا قرعاً على الباب فانشدت كل العيون باتجاهه وشحن
الفضول جو التوتر السائد ، وذهب ميوغو إلى الباب .

« الجنرال ! » صاح واروي حالماً دخل ضيفان جديدان . عاد
ميوغو في إثر الرجلين . كان أولهما طويلاً حايق الذقن مقصوص الشعر
بينما كان شعر الرجل الأقصر معقوصاً . لقد كان من بين تلك الحفنة
من المحاربين دفاعاً عن الحرية ، من أولئك الناس الذين هجروا الغابة
مؤخراً بمناسبة إصدار العفو عنهم عشية الاستقلال هـ

« تفضلاً بالجلوس — على السرير » دعاها ميوغو وقد أدخلت
الروع في قلبه نبرة صوته . لقد أصبحت هرماءً . . . واهناً جلدًا . . .
هذا اليوم . . . هذه الليلة . . . كل شيء يبدو غريباً . . . إن نظرات
الناس إليّ وغمزاتهم تخيفني . . . لست خائفاً في الواقع لأن . . .
لأن . . . حياة فرد من الأفراد ، كحياتي ، لا تنطوي على أية أهمية . . .
و . . . و . . . يا إلهي . . . لم يعد يتبرني أي اهتمام . . . لا . . .

لا إن قدوم الرجلين قد حطم جو التوتر المتصاعد . وتحدث الجميع وأصبح الكوخ ينبص بالحياة من جراء التتميمات المثيرة . كانت وامبوي تحاول توضيح أمر ما عن استعدادات الاحتفال بالاستقلال للرجل المعقوص الشعر . في الغابة كان يدعى بالملازم الأول كويناندو . الرجل الطويل كان الجنرال ، الجنرال ر .

« يا للضحية ! يا للضحية ! » صاح كويناندو . آه مأطيب اللحم . خروف بكاماه . في الغابة لم نكن نأكل إلا براعم الخيزران والخنازير البرية . »

« ماذا تعرف عن الضحية ؟ » قاطعته وامبوي وهي تشاركه الضحك . « آه لقد ضحينا بالفعل — ضحينا بالخنازير — وأكلنا لحمها فيما بعد . كنا نصلي مرتين يومياً ومرة إضافية أخرى قبل القيام بأية غارة على مزارع الأوروريين لانتزاع الأسلحة . كنا نقف قبالة جبل كينيا : موينانياغا (١) نبتهل إليك لعلك تصون غائبنا .

موينانياغا نبتهل إليك لعلك تعلق سحابة فوقنا .

موينانياغا نبتهل إليك لعلك تحميننا من خافنا وقدأمننا من أعدائنا .

موينانياغا نبتهل إليك لعلك تبث الشجاعة في قلوبنا .

(١) اسم اله محلي — المترجم .

كما كنا نشد أيضاً :

مطلقاً لن نستريح

دون أرض

دون حرية حقيقية

يا كينيا يا موطن الرجال السود

لقد كفّ الجميع عن الحديث وأصغوا إلى نشيد كويناندو . إن
اللحن الحزين الذي كان يكمن خلف كلمات كويناندو كان يقف
على طرفي نقيض مع مرحة . ساد صمت مفاجيء مفعم بالقلق تقريباً .
لا شيء من هذا صحيح . . . لسوف أستيظ سريعا من هذا الحلم . . .
ولسوف يكون كوني خالياً وأجد نفسي وحيداً كما كنت دائماً . . .
سعل غيكونيو سعلة جافة . انفجر واروي .

« أتشعر بالبرد ؟ أنا دائماً أقول هذا . إن شباب هذه الأيام قد
فقدوا قواهم . إنهم لا يستطيعون مقاومة مرض طفيف . هل تعلمون
أننا في أيامنا كنا نقضي أياماً بلياليها في الغابة ونحن بانتظار الماساي (١) ؟
كانت الريح تعصف براقبنا ، وأما ثيابنا فقد كانت تتبلل بالندى ،
ومع ذلك فما كنت لتسمع سعلة في الصباح لا ، حتى ولا سعلة طفيفة .

تطلع المجاهدان إلى واروي . لقد مضى على وجودهما في الغابة
سبع سنوات . ولكن لم يخفض زعم واروي أي إنسان من الحضور .

(١) قبائل أفريقية تعيش على الصيد والري وتطن شرقي بحيرة فيكتوريا في كينيا وتنزانيا.

« ماجلوى الصلاة ؟ » سأل فجأة الجنرال ر وكأنا يتابع المحادثة السابقة . « إنها لم تسعف كيهيكا . كان كيهيكا يؤمن بالصلاة ، بل وكان يتلو الإنجيل يومياً ويحمله معه في حله وترحاله ، إن الشيء الذي لن أفهمه بتاتاً هو التالي : لماذا صادف أن الله لم يهمس له بكلمة ، مجرد كلمة واحدة – كي يحلّره من الوقوع في الفخ ؟ »

« وأي فخ ؟ » سرعان ما سأل غيكونيو . « هل تريد التلميح لنا بأن كيهيكا كان ضحية خيانة ما ؟ »

« قالت الإذاعة بأنه اعتقل إثر معركة قتل فيها العديد من عصابته » قالت وامبوي .

الجنرال ر استغل الفرصة السانحة له كي يعمق هذا الاهتمام الذي تمت إثارته ، فحماق في الأرض مستغرقاً بالتفكير .

« في ذلك اليوم كان في طريقه لمقابلة إنسان ما . لقد كان يخرج غالباً وحيداً إما لتصيّد المعلومات وإما للإجهاز على شخصية خطيرة مثل د. و. روبسون . ومع ذلك فقد كان دائماً يطلعني على خططه ، ولكنه في ذلك اليوم لم يطلعني على شيء . لقد كان يبدو متهيجاً بل يمكنكم القول بأنه كان متهيجاً . ولكنه كان يستشيط غضباً حينما كان يقاطعه أي إنسان . وأقولها للمرة الثانية بأنه لم ينس أن يصطحب إنجيله معه قط . بيد أنه في هذا اليوم خلفه وراءه . لربما كان يظن بأن غيابه لن يطول . »

دس الجنرال ر يده في جيبه وأخرج منه إنجيلاً صغيراً ناوله إلى غيكونيو . واروي و وامبوي مدّا عنقيهما للأمام وقد استثارهما هذا الأمر كطفلين صغيرين . قلب غيكونيو صفحات الإنجيل الصغير على عجل متوقفاً بين الحين والآخر عند آيات ترتسم تحتها خطوط سوداء وحمراء . كانت أصابعه ترتعش . توقف عند المزمور ٧٢ حيث ارتسم خط أحمر تحت آيتين :

« مامعنى هذه الخطوط الحمراء ؟ » قالت وامبوي بفضول خاشع .

« اتل عاينا بعض الأسطر » قال واروي .

فقرأ غيكونيو :

(لأنه سوف ينصف فقراء الناس ، وسيضعف أطفال المحتاجين .
ولسوف يمزق الظالم إرباً .

لأنه سينقل المحتاجين حين يجيء ، كل الفقراء وأي إنسان لا معين له) . ومرة ثانية نجيم صمت مطبق إثر هذه التلاوة . ثم تابع الجنرال ر قائلاً :

« بعد ذلك اليوم الذي أطلق فيه كيهيكا النار على د . و . روبسون لم يعد عملياً كما كان من قبل . وهذا هو السبب الذي جئنا فيه إلى هنا هذه الليلة » . طيلة هذه المدة كان الجنرال ر يحرق في نقطة واحدة . وكان يتكلم بهلوه يختار الكلمات اختياراً وكأنما ثمة تساؤلات تجيش

في صميم فؤاده . وفجأة شخص ببصره إلى ميوغو والتفتت جميع عيون الحضور إلى ميوغو .

« أعتقد بأنك أنت الإنسان الذي آوى كيهيكا تلك الليلة . وذلك هو السبب الذي أدى إلى اعتقالك فيما بعد وإرسالك إلى المعتقل ، أليس كذلك ؟ إن ما نريد معرفته منك هو ما يلي : هل ذكر لك كيهيكا بأنه كان سيقابل إنساناً ما من القرية — في غضون أسبوع ؟ »

شعر ميوغو في حلقه بالاختناق ، ولو أنه تكلم لبكى . هزّ رأسه بالنفي وحدث مباشرة إلى الأمام .

« ألم يأت على ذكر كارانجا ؟ »

وهز ميوغو رأسه بالنفي مرة ثانية .

« هذا كل ما أردنا معرفته . لقد حسبنا أن بمقصورك مساعدتنا » .
وغاص الجنرال ر في صمته السابق .

« الآن ، الآن ، من كان يخطر في ذهنه — » بدأ واروي ثم ركن إلى الصمت . كان يبدو على وامبوي أنها أكثر افتناناً بالإنجيل منها بالأنباء التي كان يرويها الجنرال ر .

« أكان يحمل لإنجيلاً ؟ وكأن أباه كان قسيساً . . . » قالت نادبة .
« كان يقضي الواجب أن يكون ولدنا هذا قسيساً . . . » .

« نَقَدَ كان قسيساً . . . وقسيساً جليلاً لحریتنا هذه » ، قال واروي تبسم غيكونيو مبدياً علم ارتياحه . وشاركته تبسمه وامبوي وكذلك الملازم الأول كويناندو . ولكن ميوغو لم يتبسم وكذلك الجنرال ر . انتهك جو التوتر مرة ثانية . سعل غيكونيو وتنحنح .

« أيها الجنرال ، كدت تنسينا الأمر الذي جئنا فيه إلى هنا » ، قال بلهجة رجل أعمال ليس لديه متسع من الوقت للشكليات . « ولكنني سعيد بقاءومك لأن هذا الأمر يهملك أيضاً . إن الأمر هو التالي : يعتقد الحزب وقيادات القرية بأن فكرة تكريم الأموات فكرة طيبة . في يوم الاستقلال سوف نستمطر الرحمة على أولئك الناس من قريننا ومن النجود المجاورة الذين قضوا نحبهم في الصراع من أجل الحرية . ليس بوسعنا أن ندع اسم كيهيكا يطويه النسيان . سيبقى كيهيكا حياً في ذاكرتنا ولسوف ينقل التاريخ اسمه إلى أبنائنا في السنوات القادمة . » توقف عن الكلام وتطلع مباشرة إلى ميوغو ، وأما كلماته التي وجهها إلى ميوغو فقد كانت تزخر بالإعجاب بكل بساطة . « لأريد أن أخوض في التفاصيل — ولكننا نعرف جميعاً الدور الذي لعبته في الحركة . وسيبقى اسمك مقروناً باسم كيهيكا أبد الدهر . وكما قال الجنرال هنا فانك أنت من آوى كيهيكا دونما وجل من الخطر الذي كان يحق بحياتك . لقد عملت لمصلحة ثاباي في المعتقل وخارجه الشيء نفسه الذي فعله كيهيكا في الغابة . ولذلك فقد فكرنا بأنك في هذا اليوم الهام ستقود الضحية والمراسم لتكريم أولئك الناس الذين ضحوا بحياتهم لكي نبقى

على قيد الحياة . سوف يرشدك الشيوخ إلى تفاصيل الطقوس . وأما بالنسبة لك فإن الشيء الأساسي سيكون الخطاب . إننا بصدد تدبير اجتماع حاشد في سوق رونجي قريباً من المكان الذي تدلّت فيه جثة كيهيكا من إحدى الأشجار . إنك أنت من سيلقي الخطاب الرئيسي في ذلك اليوم .

حملق ميوغو في عمود ينتصب قبالة ، حاول أن يدرك مغزى ماقاله غيكونيو . لقد كان دائماً يجد أن من العسير عليه اتخاذ القرارات . ولما كان وكأن الغريزة . قد ساقته للإحجام عن دفع الأمور وتحريكها باتجاه لائحمة عقباه ولا يستطيع فيه تقدير النتائج قبل البدء بذلك ، فقد ترك نفسه تنجرف مع الأمور أو تنجرّ إليها بواسطة عفريت هائل ، وركب موجة هذا الظرف الطارئ واسترخى على زبدها ، مذعوراً من القلر ولكنه مفتون به . وبدأت عيناه الآن ترقان ببعض ذلك الافتتان الشيطاني ، بيد أن جسمه كان ساكناً سكّون الموت .

« ماهو رأيك ؟ » سألته وامبوي وقد عيل صبرها بنظرته الثاقبة . ولكن واروي كان مهووساً بتأويل نظرات الناس ولطالما قال هذا عن ميوغو : إن له مستقبلاً ، مستقبلاً عظيماً ، من يعرف ذلك سواي ؟ يمكنكم أن تروا ذلك في عينيه قال الآن :

ليس عليك أن تخطب النهار بطوله . لقد شاهدت عدداً من الخطباء يفسدون خطابات رائعة لأنهم كانوا يخطبون حتى تبح أصواتهم وتجف

حلقوهم . كلمة تلامس شفاف القلب — وكفى . كنتك الخطبة التي ألقيتها في ذلك اليوم .

« لأفقه ماتقولون ؟ » قال ميوغو أخيراً .

« نحن أهالي ثاباي نحب أن نكرم أبطالنا . فما الضير في ذلك ؟ » سأله واروي .

« إنني أعرف حقيقة شعورك ، » قال غيكونيو . « إنك تفضل أن تترك وشأنك . ولكن تذكر هذا على أية حال : ليس من السهل على أي إنسان ضمن تجمع معين أن يترك وحيداً ، لاسيما إنسان بمقامك . لا ، ليس عليك أن تتخذ قرارك الآن ، ولكننا نريد معرفة الجواب سريعاً ، إن الثاني عشر من كانون الأول لايفصله عن اليوم إلا أربع ليال » .

بعد أن قال غيكونيو هذا نهض كي يغادر الكوخ . الآخرون وقفوا أيضاً . تردد غيكونيو قليلاً وكأن فكرة لاختلاص له منها تدور في خلده .

« ثمة شيء آخر أحب إضافته . إنك تعلم أن الحكومة ، التي يسيطر عليها الحزب الآن ، سوف تترك الشعب ينتخب الزعماء ، والفرع هنا يريدك أن تمثل هذه المنطقة عندما يحين الوقت » .
خرجوا جميعاً .

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شديقي ميوغو . كان من الممكن أن توحى بالبهجة أو الهزء أو المرارة . ترك الزوار الباب مفتوحاً فأغلق الباب وجلس على السرير . وتدرجياً بدأ مغزى ماقاله غيكونيو ينجلي أمام معميات إدراكه . ماذا يريدون ؟ ماذا يريدون حقاً ؟ سأل نفسه وهو يحتضن رأسه بكلتا يديه كي يشد من أزر نفسه .

خارج كوخ ميوغو انفصل الثائران عن غيكونيو ووامبوي و واروي كان الإثنين يتقاسمان كوخاً في الطرف الآخر من القرية . هذا الكوخ تم شراؤه لهما من قبل الفرع المحلي للحزب .
— هل تعتقد بأنه سيكون ذا عون لنا ؟ سأل كويناندو فجأة .

— من ؟

— ذلك الرجل .

— آه ، ميوغو . لأعلم . قلما جاء كيهيكا على ذكره . ولا أعلم علم اليقين إن كان على معرفة وثيقة به .

سارا بقية الطريق دون إضافة أية كلمات أخرى .

بحث كويناندو عن أعواد الثقاب لإضاءة السراج . كان رجلاً دقيق العظم رقيق الجلد وذا عروق ضخمة ناتئة على وجهه ويديه . الجنرال رجلس على السرير مستغرقاً بالتفكير . وقف كويناندو وحقق في اللهب الشاحب .

« ومع ذلك يجب أن نكتشف الحائن » قال الجنرال ر وكأنا يكمل محادثته السابقة مع صاحبه . كان صوته منخفضاً وينم عن عزم أكيد .

لم يجب كويناندو مباشرة . لقد تذكر ذلك اليوم الذي خرج فيه كيهيكا . خرج وما رجع ، بتاتاً . كان كيهيكا يترأس مجموعة تضم أكثر من ثلاثمائة رجل موزعين إلى جماعات يبلغ عدد أفراد الواحدة منها خمسين رجلاً أو خمسة وعشرين . وكانت تعيش هذه الجماعات منفصلة واحدها عن الأخرى في كهوف مختلفة ، حول غابة كيني ، وما كان يجتمع شملها إلا إذا كانت هنالك مخاطرة كبرى كمخاطرة احتلال (ماهي) . كان كويناندو يصاب بالذهول من جراء تلك اللامبالاة المطلقة التي كان يديها كيهيكا تجاه أي خطر شخصي يحق به . وأما تلك الطريقة التي أجهز بها على د. و. روبسون فقد تحولت إلى ضرب من الأساطير في المخيمات التي كانت تنتشر حول لونغونوت و انغونغ بل و نيانداروا . كان كويناندو يشعر نحو كيهيكا باعجاب يصل إلى حد العبادة . ولذلك كان في أمثال تلك المناسبات يقسم بقوله : « لن أتخلى عنه . أقسم بالله العلي العظيم بأنني لن أتخلى عن كيهيكا . لقد كنت إنساناً بلا عقيدة ، وهو الذي أمدني بها » . نعم لقد أمدّه كيهيكا ، وقد كان مجرد طبّاخ ، بروح جديدة حين جعله يدرك قوة السود . لقد شعر كويناندو بهذا في ذلك اليوم الذي احتلوا فيه (ماهي) . وحينما كانوا ينتظرون عودة كيهيكا خالجه شعور عارم حيال الخطر الوشيك

لتلك القوة السوداء . فأرسلوا فيما بعد الرواد الذين عادوا وتحذثوا عن وقوع عملية ضخمة . وانتشر النبأ . فأمر الجنرال ررجاله بالاستعداد لانسحاب عاجل إلى مخبئهم الكبير الآخر ، إلى لونغونوت . لقد علموا بنبأ اعتقال كيهيكا فبكاه انجري . وحتى هو ، وقد كان رجلاً بكل مافي الكلمة من معنى ، لم يجد سبيلاً لإخفاء دموعه .

— هل تعتقد بأنه كان في طريقه لمقابلة امرأة ؟ سأل كويناندو الآن .

— لا . لا أتصور ذلك . ولابد من أن يكون كارانجا فعلاً هو الرجل الذي نبحث عنه إذا كان ماثقوله لي عنه صحيحاً .

« إن أي إنسان في غيشما يروي لي الرواية نفسها . إذا ربت إنسان على كتفه من الخلف فانه يرتجف ارتجافاً يصعب عليه التحكم به . إنه لايسير في الظلمة وحيداً أبداً ، ولا يفتح باب بيته لأي طارق بعد الساعة السابعة مساءً ، إن كل هذه التصرفات ليست إلا أمارات لإنسان مذنب ولكن . . . »

« ياإلهي ! إن كان لهذه القملة أدنى صلة بصلب كيهيكا ! » قال الجنرال ر ووثب واقفاً على قدميه ، وأخذ يزرع الغرفة جيئة وذهاباً . نحن كلانا أقسمنا معاً . نحن كلانا أقسمنا معاً .

كان كويناندو يجلس على السرير مذهولاً بتلك العاطفة والحماسة في صوت الجنرال . لقد كان كويناندو يرهب جانبه أيضاً بل وكان

يشعر بالصغار في حضرته . لقد خاض الإثنان الحرب العالمية الثانية . فالجنرال حارب في بورما وأما هو ، كويناندو ، فما توصل مطلقاً لمرتبة تعلو مرتبة الطباخ . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها اشتغل الجنرال خياطاً ، وأما كويناندو فقد تنقل من عمل لآخر . وكان آخر عمل له مع المدةكتورة لايند ، امرأة يضاء عانس وقبيحة : شعر نحوها كويناندو بالكراهية منذ النظرة الأولى . لقد عرف هو والجنرال أحدهما الآخر عملياً في الغابة . وفي المعارك كان يبرز الجنرال إنساناً رابط الحاش . وحين اعتقل كيهيكا بقي الجنرال رزيناً ، لم تبد عليه الدهشة أو أية إشارة من إشارات الوجوم . وعلى مر السنين نسي كويناندو ، الذي أجهش في البكاء في تلك المناسبة ، مصرع كيهيكا ولم يعد يشعر بحاجة للنار . والآن كان الجنرال هو من يغلي حماساً . بينما كان كويناندو يحول بصره حول الكوخ الأجرد من الأثاث متجنباً تلك القائمة التي كانت تروح وتجيء فيه . قصبة وصحنان وبعض الزجاجات الفارغة وتنكة ماء كانت على الأرض تتبعثر بشكل يكاد يفطر القلب حزناً .
تنحنج :

« ربما لاجدوى من الأمر . ربما علينا أن ننسى الموضوع برمته » .

الجنرال ر توقف عن رواحه ومجيئه فجأة . تطلع إلى كويناندو يقيمه من الأعلى إلى الأسفل . تلملم كويناندو في مقعده وقد شعر بالخصومة تتجلى في نظرة الآخر إليه . « أنسى ! » سأل الجنرال بصوت

رزين مضلل . « لا يا صاح . يجب أن نكتشف الخائن وإلا فانا نكون ، أنت وأنا ، قد نُختنا دونما هدف ، من أجل لاشيء . غداً يجب أن تعود إلى غيشما وتقابل مواردنا بشأن الخطة الجديدة » .

المبعوثون الآخرون الثلاثة ابتعدوا مسافة معينة عن كوخ ميوغو قبل أن ينبس أحد منهم ببنت شفة .

— إنه رجل غريب الأطوار . علّقت وامبوي .

— من هو ؟ سأل واروي .

— ميوغو .

« ذلك نتيجة المعاناة » قال غيكونيو . أتعلمان مامعنى الحياة في المعتقل ؟ لربما كانت تنطوي على سهولة أكثر بالنسبة لأولئك الذين لم يُصنفوا من ذوي الرؤوس الحديدية . ولكن ميوغو صُنف منهم ولذلك تعرض للضرب ومع ذلك فانه لم يخن العهد .

« ليس الإعتقال كالسجن » تابع غيكونيو . منذهشاً من جيشان عواطفه المفاجيء . « ففي السجن أنت تعرف جريمته ، وتعرف مدة سجنك . ولتكن سنوات عديدة جداً ، سنة واحدة ، عشر سنوات ، ثلاثين — وبعد ذلك تغادر السجن » .

وعلى نحو مفاجيء ضبط غيكونيو نفسه . لم يستطع أن يرى وامبوي أو واروي بوضوح ، وبدأ الأمر إليه وكأنما كان يكلم الفراغ .

« عمتما مساءً » ودعهما خارج البيت الذي ابتناه حديثاً .

ابتعد واروي و وامبوي دون أن يردا على تحيته . أناخ الصمت المطبق على غيكونييو . لم يكن يحب ولوج البناية . ظهر النور في غرفة الجلوس من خلال الستائر والنوافذ الزجاجية . لابد إذاً من أن تكون مومي في انتظاره . لماذا لاتستطيع الذهاب للنوم . ابتعد عن النور دون أن يعلم إلى أين يمضي . اغتاض من انفجاره مؤخراً بحضور وامبوي و واروي . لماذا لم يكن بمقدوره أن يتحكم بعواطفه في كوخ ميوغو ؟ فالرجل ليس هو من يشكو مطلقاً . وأما الانخراط في العمل الدؤوب فقد كان بالنسبة لغيكونييو عقاراً من العقاقير ضد الذكريات التي تنغصص عليه حياته .

لقد ابتنى لنفسه بيتاً من أفخم بيوت القرية وأكثرها عصرية ، وكانت له ثروة — وإن كانت صغيرة ، كما كانت له مكانة سياسية في القرية : كل هذه الأمور تبتعد به كثيراً عن الأيام التي عاشها كنجار فقير . ومع ذلك فهذه الأمور كلها قد فقدت نكهتها . لقد كان يتناول الطعام ليس لأنه كان يستمتع بالطعام ، بل لأن الإنسان يجب أن يحيا .

أصبحت القرية الآن بعيدة خلفه . ادلم ظلام الليل . وخطر له فجأة — وكأنما ذلك شيء جديد عليه — أنه وحيد . فأصاخ السمع . وبدأ له أنه يسمع حفيف أقدام على الرصيف يصل إلى مسامعه من بعيد . اقتربت منه الخطوات . أسرع في مشيته وهرع مبتعداً عن الخطوات .

ولكنه كلما أسرع في سيره كانت الخطوات تصبح أعلى وقعا . لهث .
كان جسمه كله دافئا على الرغم من برودة الهواء . حيثئذ طفق يعدو ،
على نحو جنوني . تسارع خفقان قلبه . الخطوات على الرصيف ، وقد
بدت قريبة جداً منه ، تناغمت مع خفقان قلبه . كان يشعر بالحاجة
للتحدث مع أي إنسان . كان يشعر بالحاجة لسماع أي صوت بشري
آخر . ميوغو . ولكن ماذا تعني الأصوات البشرية المجردة ؟ أفلم يحى
معها مدة ست سنوات ؟ وفي معتقلات عديدة ؟ لربما كان يريد صوت
إنسان يستطيع تفهمه . ميوغو . توقف عن الركض فجأة . هاهي
الخطوات على الرصيف تتباعد عنه . ولكنها ستعود مرة ثانية ، كان
يعلم بأنها ستعود كي تنغصص عليه أمره . يجب أن أتحدث إلى ميوغو .
إن الكلمات التي قالها ميوغو في أحد الاجتماعات منذ سنتين قد لامست
شغاف قلب غيكونيو . ياإلهي ، سوف يعرف ميوغو .

ولكنه في الوقت الذي وصل فيه إلى كوخ ميوغو فترت حماسة
تصميمه . وقف عند الباب متردداً أيقزع الباب أم لا : ماذا جاء يقول
فعلاً لميوغو ؟ شعر بالسخف لدى وقوفه هناك وحيداً . لربما من الأفضل
أن يعود في اليوم التالي . لربما يستطيع في وقت آخر أن يكتشف أحسن
طريقة يفتح فيها مغاليق قلبه أمام إنسان آخر .

في البيت وجد أن مومي لم تأو إلى فراشها بعد . جلبت له الطعام .
وهذا ذكره بأنه قلما تناول طعاماً اليوم بطوله . جلست قبالة وأخذت

تتطلع إليه . تذوق قليلاً من الطعام ودفع بالباقي بعيداً عنه . لقد فقد شهيته .

— « حَضري لي فنجاناً من الشاي » همس لها من بين أسنانه .

— « يجب أن تأكل » ناشدته مومي . والتمع أنفها اللدقيق تحت نور المصباح . التضرّع في صوتها وفي عينيها كان يناقض وجهها الوقور والحمل الفخور الذي تحمله في جسدها المكتنز . ربما كانت الحاجة تقضي بأفضالية زيارته لميوغو بغية قيام حديث بين الرجال .

— « لأريد أن أكل شيئاً » نحر غيكونيو .

— « إن طعامي وحده هو الشيء الذي لا تريده » .

بقي غيكونيو هادئاً . لكمّ اشتاق في المعتقل للعودة إلى مومي . هل هذه المرأة هي نفسها تلك المرأة السابقة ؟ نظر إليها ملياً . كانت قد أشاحت بوجهها باتجاه الباب . لربما كانت تنرف الدموع . « لا أشعر برغبة في الطعام ، هذا كل ما في الأمر » قال لها وقد لان بعض الشيء .

« لا بأس بذلك » همست وذهبت إلى غرفة أخرى في البيت وجلبت الفناجين والإبريق وأوراق الشاي والحليب والسكر . أضافت عدة قطع من الفحم إلى الكانون وحملته إلى خارج الكوخ كي تذكو ناره في مهب الريح ، وبقيت خارج الكوخ في الظلمة .

أخرج غيكونيو دفتر حسابات عتيق من إحدى جيوب سترته الداخلية . وبحث عن قلم ، عثر عليه ، ولما رأى أنه مكسور براه بسكين . وأخذ يدون أرقاماً . جمع وطرح وضرب وشطب . استأسرت الأرقام باهتمام غيكونيو حتى إنه نسي مؤقتاً كل شيء خارج إطار عائدات العمل وآفاقه في اليوم التالي .

أعادت مومي النار إلى الداخل . وضعت الإبريق المليء بالماء على النار وجلست ثانية تتطلع إلى زوجها . كانت تبدو متحفزة كطير على أهبة الطيران لدى أول إشارة أو كلمة من سيده . ولكن مومي كانت قد تعلمت كيف تشدّب رغباتها ، أن تتقبل ماتقدمه لها الحياة والقلو .

« هل قابلت ميوغو ؟ » غامرت بسؤاله .

« نعم » .

« هل وافق على قيادتنا ؟ »

« سيفكر بذلك الأمر » . لم يرفع غيكونيو رأسه عن دفتر الحسابات .

« وامبوي قالت ذلك لي » قطعت له سلسلة أفكاره . فلم يحرج جواباً .

« ليم لم تقل لي عن ذلك ؟ » تابعت . « لا تنس ، أنني وكيهيكاً قد جئنا من رحم واحدة » .

« ومتى كنا نتقاسم الأسرار ، أنت وأنا ؟ »

وسرعان ماكره نفسه لركونه لتلك اللهجة . كان قد أقسم أن

يكون مهذباً معها دائماً ، وأن لا يسمح لزلة لسان قاسية أن تفلت منه
أو أن تكشف عما يجيش في صدره من انفعالات .

« لاني آسفة » قالت وقد شعرت بالصغار . « لقد نسيت بأنني
لأعني شيئاً بالنسبة لك » .

سرعان ما أصبح الشاي جاهزاً . صبت له بعضه وملأت لنفسها
فنجاناً . وبعدها قامت مومي من مقعدها ووقفت قبالة زوجها وكأنما
ثمة قوة خفية طاغية دفعتها لذلك . وضعت يديها الصغيرتين حول عنقه
متكئة على منكبيه . كانت عينها تستخدمان انفعالاً كما كانت شفتاها
تراقصان ارتعاشاً .

« هيا بنا نتكلم عنه » همست في أذنه .

« عن ماذا ؟ » سألها وقد رفع رأسه .

« عن الطفل » .

« ليس ثمة شيء يجدر التحدث عنه » قال لها بتوكيد لاذع .

« إذاً تعال لزيارة مخدعي هذه الليلة ، أنت هو من كنت أنتظره
طيلة هذه السنين » .

« ماخطبك هذه الليلة ؟ » رفع غيكونيو ذراعيها عن رقبته ودفعا
برفق بعيداً عنه . « أرجوك أن تذهبي وتجلسي ، أو الأفضل لك أن
تذهبي وتنامي . يبدو أنك متعبة » .

وقفت مومي هناك بفتور . طفق نهداها يضطربان صعوداً وهبوطاً .
فتحت فمها وكأنها تريد أن تصبح . وفجأة تناولت كبة الصوف والصنارة
من على الأرض وهرعت إلى مخدعها .

لقد كان غيكونيو في الواقع هو من يشعر بالإرهاق ، بالإرهاق
واطهرم ، فأسند رأسه على يده اليسرى ومرفقه على الطاولة . رفع القلم
بيده اليمنى وحاول أن يخربش رقماً من الأرقام ، ولكن يده لم تكن
ثابتة فترك القلم يسقط من يده . بذل جهداً حتى قام من مقعده وأمسك
بالسراج ووقف عدة ثوان عند باب مخدع مومي . ثم اتخذ قراره
ومضى نحو مخدعه .

* * *

وقال الرب إلى موسى ،
امض إلى فرعون وأبلغه ،
هذا الذي قاله الرب ،
اسمح لقومي بالخروج .

سفر الخروج : ٨ - ١
(آية وضع كيهيكا تحتها خطاً أحمر في إنجيله)

الفصل الرابع

في تلك الأيام التي كان يحتدم فيها الصراع بين المهاجرين الأوروبيين وبين المهاجرين الهنود للسيطرة على كينيا — وكانت وقتها أية فكرة عن اقتراب إنسان أسود من كرسي السلطة فكرة بعيدة كل البعد عن أي خيال جامح — كان مستر روجرز ، وهو موظف في الزراعة ، يسافر بالقطار من نيروبي إلى ناكورو في أحد الأيام ، فرأى تلك الغابة الكثيفة في غيشيما وسرعان ما انشد إليها ذهنه البارع التخطيطي . لم تكن تنصب اهتماماته في العمل السياسي ، وهذا أمر مستغرب في تلك الأيام ، بل في تطوير الأرض . لماذا لا يقوم في هذا الموقع مركز أبحاث حراجي ؟ سأل نفسه في الوقت الذي كان فيه القطار يهبط نحو الجرف نزولاً إلى الوادي الكبير . وعاد فيما بعد إلى غيشيما كي يتفحص الغابة . وبدأت خطته تتخذ لها شكلاً . فكتب إلى كل إنسان مرموق بل جاهد عبثاً لمقابلة الحاكم .

مجنوناً قالوا عنه : أعلم في إفريقيا السوداء
غيشيما والغابة الكثيفة استحوذتا على فكره كالروح الشريرة .
هجرته الراحه وطفق يحدث نفسه عن الخطة وأخذ يتحدث عنها لكل

من كان يقابله . وفي أحد الأيام دهمه قطار عند منعطف غيشيما وسرعان ما أسام الروح . وأقيم فيما بعد مركز أبحاث حراجي في تلك المنطقة نفسها ، ليس تخليداً للذكرى استشهاده ، بل كجزء من خطة استعمارية جديدة بغية التطوير . وسرعان ما أصبح مركز غيشيما للأبحاث الحراجية والزراعية يغص بالأوروبيين من علماء وموظفين إداريين .

يقال بأن شبح ذلك الرجل يهيم عند معبر القطار وأن القطار المحادر يتطلب كل سنة ضحية بشرية من موقع غيشيما . وآخر ضحية كانت الدكتور هنري فان دايل ، موظف سكرتير سمين في الأرصاد الجوية ، كان يحلف بأغلظ الأيمان . كما قال العمال الأفريقيون ، بأنه سوف يقتل نفسه إذا أطلق سراح كينياتا من لودوار و لو كيتوانغ . وسرعان ما اصطدمت سيارته بالقطار بعد عودة كينياتا إلى وطنه من مارالال . وأصيب الناس في غيشيما بالدعر ، حتى خصومه ، لدى سماعهم ذلك النبأ . فهل كان مقتله مجرد حادث أم عملية انتحار لإنسان ؟

كارانجا الذي كان يعمل موظفاً في مكتبة غيشيما لنفص الغبار عن الكتب وتنظيفها في رفوفها وكتابة القسائم عليها ، كان يتذكر الدكتور فان دايل بشكل رئيسي بسبب لعبة غريبة كان يمارسها أحياناً : كان يخرج إلى العمال الأفريقيين ويضع ذراعه حول مناكبهم ومن ثم يضربهم فجأة على أعجازهم التي لا يرقى لطهرها أي شئ . كما كان من عادته أن يرخي يده على إلياتهم تدغدغها بشكل غرائزي والكحول ينبعث

من لهاته على أكتاف ضحاياه . وينفجر من ثم على غير انتظار بقهقهة صاخبة مدوية . كان كارانجا يمت الضحك ، ولم يكن يعرف معرفة أكيدة فيما إذا كان الدكتور فان دايل يتوقع منه المشاركة فيه أم لا . ولذلك فقد كان كارانجا يجلس مكشراً بشكل عصبي مما جعله يكره الدكتور فان دايل أكثر من ذي قبل . ومع ذلك فان نبأ موت هذا الرجل ، حيث تمزقت سيارته وحشته إرباً بواسطة القطار ، دفع بكارانجا إلى التقيؤ .

اختار كارانجا ورقة استنسل من كومة على الطاولة وبدأ بكتابة القسائم . فالكتب التي كان من المفروض أن تؤول إلى غيتيما آلت إلى وزارة الزراعة في نيروبي ، وسرعان ما انصرف فكر كارانجا عن جميع الأمور — الاستقلال أو الدكتور فان دايل — وأخذ يولي كل اهتمامه للقسيمة التي بين يديه . « دراسات في الهندسة الزراعية ، المجلد . . . وفجأة شعر بوجود رجل في الغرفة . فترك صفيحه الاستنسل واستدار مكفهر الوجه وحاول جاهداً أن يتحكم بالقلم المرتجف في يده .

« لماذا أنتم أيها الناس لا تقرعون على الباب قبل اقتحامه ؟ » نبح على الرجل الوافف بالباب .

— « لقد قرعت الباب ، وقرعته ثلاث مرات . »

— إنك لم تقرع الباب . أنت تدخل دائماً إلى هنا وكأن هذا المكتب كوخ أليك .

— لقد قرعت على هذا الباب ، وهنا بالذات .

— ربما نقرته نقرأ خفيفاً وكأنك امرأة . لماذا لا تستطيع أن تقرر
قرعاً عنيفاً كما يقرعه الذكر المختون ؟ زاد كارانجا من حدة صوته
وخبط على الطاولة في الوقت نفسه كي يؤكده كل نقطة في حديثه .

— اسأل أمك ، حين نكحتهما .

— أأنت توجه الإهانة إلى أمي ، أنت — .

— حتى الآن أستطيع ممارسة ذلك معها ثانية ، أو مع أختك . هما
من بإمكانهما إنجبارك بأن موارا رجل مختون .

وقف كارانجا . وحلج كل منهما الآخر نظرة يقلح فيها الشرر .
ولهنية بدا الأمر وكأنهما على وشك الاشتباك بالأيدي .

أنت من يقول هذا لي ؟ ألمثلي توجه هذه الإهانات العديدة ؟ قال
مخناًظاً .

شفة موارا السفلى تهذلت . وبدأ بطنه يحيش وتنفسه يتسارع ويحتم .
حينئذٍ بدا وكأنه قد تذكر شيئاً ما ، فأمسك عن الكلام .

— « إنني آسف على أية حال » . قال فجأة ولكن بصوت مشحون
بالوعيد .

— يجب أن تعتذر . ماذا تريد من هنا ؟

— لاشيء . لاشيء سوى أن ثومبسون يطالبك لمقابلته ، هذا كل ما في الأمر . خرج موارا . انقلب مزاج كارانجا من التوتر إلى القلق . فماذا ترى يريد منه ثومبسون . ربما يريد أن يخبره شيئاً ما عن أجوره . نفخ الغبار عن كسائه الخاكي ومشط شعره الذي كان بلون شعر الخلد وهرع في الرواق باتجاه مكتب ثومبسون . قرع الباب قرعاً شديداً ودخل .

جون ثومبسون ، المدير الإداري ، رفع وجهاً متعباً عن كومة من الأوراق على الطاولة .

— ما خطبك ؟ لماذا أنتم أيها الناس تقرعون بشكل صاخب ؟

— « لقد ظننت ، ظننت بأنك أرسلت في طلبي ياسيدي » قال كارانجا بصوت واهن ، واقفاً ، كما كان يقف دائماً أمام أي إنسان أبيض ، قدماه متباعداً قليلاً ، ويداه مشبورتان خلف ظهره ، وكله لصغاء وخنوع .

— آه ، نعم ، نعم ، هل تعرف موقع بيتي ؟

— نعم سيدي .

— هرول إليه وقل للسيدة ثومبسون أنني لن أتناول غذائي في البيت ، إذ أن عليّ أن أذهب — آه — انتظر لحظة ، سأزودك برسالة .
لقد تشكل عند جون ثومبسون ، على مر السنين ، هوس بكتابة

الرسائل . لقد كان يخربش وريقات إلى أي إنسان . إذ قلما كان يوفد رسولاً إلى أي مكان سواء أكان إلى المدير أو إلى الإدارة المركزية بغية طلب الورق ، أو إلى المشغل بصدد مسمار أو مسمارين ، دون أن يزود الرسول بوريقة تتضمن التفاصيل كافة . وأحياناً كثيرة كان يفضل إرسال رسالة إلى أحد الموظفين حتى حين تكون مقابله شخصياً أمراً أيسر من الرسالة .

أخذ كارانجا الرسالة وتمهل هنيهة أو اثنتين آملاً أن يقول له ثومبسون شيئاً حول الطلب الذي كان قد تقدم به مؤخراً بشأن زيادة أجره . ولكن المدير تابع نظراته الجوفاء على كومة الأوراق المتكدسة على طاولته .

كان جون ثومبسون والسيدة ديكنسون يستخدمان كارانجا رسولاً شخصياً بينهما ، وكان كارانجا يتقبل تنفيذ طلباتهما بخفة مشوبة بشيء من الامةعاض : أفلم يكن هنالك ساعة مأجورون في غيثيما ؟

كانت السيدة ديكنسون تعمل قيّمة للمكتبة . كانت امرأة شابة انفصلت عن زوجها ولم تكن تتكلم على حياتها مع عشيقها . قلما كانت تواظب في مكتبها ، ولكن حينما كانت تزوره كان يعجّ بالنساء والرجال الوافدين لزيارتها كما كان الضحك والهرج والمرج يلعب خارج المكتب طيلة النهار . وبما أنها كانت شديدة الحماس لرحلات القنص الافريقية الشرقية فقد كانت تشارك بها دائماً وتقود سيارتها بالتعاون مع عشيقها .

ولكنها لم تكن تكمل الرحلة مرة واحدة . وأما المهمات التي كانت توفد فيها كارانجا فقد كانت من أبغض المهمات على نفسه : غالباً ما كانت توفده مثلاً إلى الأحياء الأوروبية لشراء اللحم لكلبيها .

واليوم بينما كان راكباً دراجته التي كان يسمع لها صريف ، تبادر إلى ذهنه فيض من المخططات : لسوف يشكو أمر هذه المهمات التافهة إلى جون ثومبسون بالتأكيد . لا . إن أشد ما كان يهتمه كارانجا لم يكن يتمثل بتلك المهمات أو تفاهتها ، بل في الموقف الحرج الذي تلقى فيه ببس العمال الأفارقة الآخرين . ولكن على العموم كان كارانجا يفضل تحمل الازل على فقدان تلك السمعة الحسنة التي اكتسبها لنفسه بين كل الناس البيض . لقد كان يعين على تلك السمعة وعلى النفوذ الذي أسبغته عليه . كان الناس في غيشما يعتقدون بأن مجرد شكاية صغيرة منه كانت كافية لصرف أي إنسان من عمله . كان كارانجا يدرك مخاوفهم تلك . ومراراً كان ، حين يدخل الناس إلى مكتبه ، يحدجهم فجأة بنظرة فائرة أو يطرهم بالتاميححات أو يكتفي بمجرد الدهدمة ، فكان بهذه الطريقة يزيد من مخاوفهم ومن زعزعتهم . ولكنه كان في الوقت نفسه يرهب جانب الرجال ويستبدل أمامهم هذه الوضعية البغيضة بتودد ذليل .

كان يحيط بدارة آل ثومبسون سياج دقيق التقييم من شجيرات الفواكه . وفي المدخل كانت العرائش الخضراء تلتف على عمود ختي

وتتكوم لتشكّل قوساً في القمة وتتهدل من ثم على جوانب السياج . وكان السياج يطوق خمائل من الورود : زنابق أرجوانية ، ونجمة الصبح ، وعباد الشمس وزهر البحار . ولكن اللون الطاغي كان لون خمائل الزهور . لقد كانت السيدة مارغري ثومبسون قد زرعت أزهاراً حمراء وأزهاراً بيضاء وأزهاراً قرنفلية — أزهاراً من جميع الاجناس . والآن برزت من قلب خميلة الألوان هذه وجاءت إلى الباب . كانت تلبس بنطالاً رقيقاً أبيض وفوقه قميص فضفاض كأنما كان يتدلى من نهديها النافرين .

« ادخل البيت » قالت بغنج بعد أن قرأت رسالة زوجها . كانت برمة بوجودها وحيدة في البيت . وكانت تتسلى عادة بتجاذب أطراف الحديث مع خادها أو بستانيها ، كما كانت تشاجرهما بعض الأحيان ويعلوصوتها حتى يصل إلى الطريق . والآن كان هذان الشبان قد غادرا البيت وبدأت تتيقّن ، خلال هذه الأيام القليلة ، كم كانا يمثلان شيئاً هاماً في البيت .

أصيب كارانجا بالدهشة لأنه ما دعي قط من قبل لدخول البيت . فجلس على طرف الكرسي ويداه المرتعشتان على ركبتيه . وحقق بكلّ بلادة في السقف والجدران كي يتحاشى النظر إلى نهديها .

شعرت مارغري بسطوة شهوانية للرغبة والهزيمة اللتين أوقعتهما في نفس كارانجا . لماذا لم ينظر إليها ؟ لقد رأته مراراً ولكنها لم تكن

تعتبره رجلاً قط . والآن تحولت فجأة إلى إنسانة فضولية تحب أن تعرف الأفكار التي تدور في خلده : ما هو رأيه في البيت ؟ وفي عيد الاستقلال ؟ وبها شخصياً ؟ وتركت العنان لخيالها . أحست برعشة الهيجان تسري في كل أوصالها ، فوقفت وقد أثارت فيها هذه الرعشة شيئاً من الغضب .

— أحب أن تتناول شيئاً من الشاي أو القهوة أو أي شيء آخر ؟

— « أنا — أنا يجب أن أذهب » أفصح كارانجا عن أفكاره تأثراً .

— « هل أنت واثق بأنك لا ترغب ببعض القهوة ؟ لا تعر وجود السيدة ديكنسون كبير اهتمام » قالت باسمته وهي تشعر بأنها تحوكم مؤامرة سعيدة على قلبها بعض الشيء .

— « حسناً » قال واقتعد كرسيه بشكل أفضل وعيناه تتوقان إلى الباب وإلى السياج الذي يخافه . وحتى في هذه اللحظة خائنه الشجاعة في أن يسند ظهره على الكرسي ويجلس جلسة مريحة . ولكنه في الوقت نفسه خالجه رغبة عميقة تمنى فيها لو رآه أحد العمال وهو موضع حفاوة سيادة بيضاء ، زوجة المدير الإداري ، تناوله القهوة .

وفي المطبخ عبثت بالأباريق والفناجين . وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال تشعر بالحجل من تلك الرعشة التي سرت في كيائها فإنها عقدت عزمها على عدم تركها تغلت سدى . وما كان لها بلد من أن تتذكر مرة مضت أحست فيها بلهيب مماثل . كان ذلك في اليوم الذي رقصت فيه مع الدكتور فان دايل في فندق غيثيما . حدث ذلك مباشرة بعد كارثة

(ريرا) . لقد كان لهائه المغمور هو الذي جذبها إليه وهو الذي . في الوقت نفسه ، أصابها بالتقزز أيضاً . وحينما أخذها في زهرة بسيارته في المساء استسلمت أمام قوته وتركته يضاجعها واختبرت لأول مرة في حياتها تلك الفتنة الرائعة التي ترافق الهيجان .

ولما كان كارانجا ينتظر في الغرفة لاحظ أن توتره العصبي قد تلاشى وحلّت محله رغبة مختلفة . أصبح أن يسألها . وقع في حيرة من أمره . لربما تعطيه ما كان يريد فعله : ليتحدث إليها عن الإشاعات المتناقضة التي كانت تفيد بأن آل تومبسون عائلون بالطائرة إلى انكلترا . مرات عديدة سار كارانجا باتجاه ثومبسون وقد صمّم على توجيه السؤال إليه مباشرة . كان الماء البارد يتلاطم في أمعائه كما كان يشتد وجيب قابله كلما اقترب من هذا الإنسان الأبيض . وكان تصميمه يضمحل دائماً بالطريقة نفسها : كان يلقي التحية على جون ثومبسون ويتخطاه متظاهراً بأن عمله يقوم في مكان أبعد . إن ما كان يخشاه كارانجا أكثر من الإشاعات كان احتمال توكيدها . وطيلة ما كان يجهل الحقيقة فقد كان يفسر الرواية بالشكل الوحيد الذي يزرع الأمل في نفسه : إن قدوم حكم السود لا يعني ولا يمكن أن يعني بتاتاً نهاية سلطة البيض . لقد كان ثومبسون ، وهو مدير المنطقة السابق والمدير الإداري الآن ، يبدو دائماً لكارانجا بمثابة الرمز المرهوب الجانب لتلك السلطة . فكيف يجوز إذناً رحيل ثومبسون ؟

عادت مارغري بنجانين من القهوة .

— أتحب لإضافة شيء من السكر إلى قهوتك ؟

— « لا » أجاب غريزيًا وهو يعلم في الوقت نفسه أن المرأة تنقصه لسؤالها عن الإشاعات . كان كارانجا يشمئز من الشاي أو القهوة إن كانت خالية من مقدار كبير من السكر .

جلست مارغري قبالة كارانجا ولفّت ساقاً على ساق ، ووضعت فنجانها على ذراع كرسيها ، بينما أمسك كارانجا فنجانها بكلتا يديه مخافة انسكاب نقطة منه على اللبادة . كان يحفل كل مرة يقرب فيها الفنجان من شفثيه وخياشيجه .

« كم روجة تقفني ؟ » سأله سؤالها المفضل الذي كانت تطرحه على الأفارقة . لقد أصبح هذا السؤال محبباً لها منذ أن اكتشفت أن آخر طبخ عندها كان له ثلاث زوجات . فأجفل كارانجا وكأن مارغري قد نكأت عليه جرحاً ما اندملت بعد إلا قشرته الخارجية فقط .

مومي .

— لست متزوجاً .

— ألسنت متزوجاً ؟ كنت أحسبكم هنا — أفلن تبتاع لك زوجة ؟

— لا أعلم .

— أفليس لك صديقة ، أعني امرأة ؟ صمتت ، تعاضم فضولها

واكتنف صوتهما الدفء . شيء ما في جرس صوتها حرك مشاعر كارانجا .
من أين لها أن تفهم ؟ من أين ؟

— « كان لي امرأة . أنا — أنا أحببتها » قال بجرأة . أغمض عينيه
ويجهد مفاجيء كبير تجرع القهوة المرة .

— لماذا لم تتزوجها ؟ هل هي متوفاة أو — ؟

— لقد رفضت الزواج مني .

— « لاني آسفة » قالت بتحنان . وفجأة تذكر كارانجا نفسه وتذكر
بأنه في بيت المدير .

— هل بإمكانني الذهاب الآن سيدتي المصون ؟ هل ثمة رسالة لمولانا؟

كانت قد سبت الأمر الذي جاء به كارانجا إلى البيت ، فقرأت
رسالة زوجها ثانية .

— « لا ، ليس ثمة رسالة . أشكرك جزيل الشكر » ، قالت له
عند الباب .

كانت الساعة تقارب الثانية عشرة حين غادر كارانجا بيت ثومبسون .
إن الجرح الذي نكأته مارغري طفق يبرّحه الآن . وبعد هنيهة بدأ كارانجا
يشفى من الجرح تلريجياً ، وتمنى لو أن موارا شاهلده في البيت . كما
تمنى لو أن الخادم كان في البيت إذ ذاك لانتشرت أنباء زيارته هذه . وكما
فرض عليه واقع الحال فقد كان عليه هو بالذات أن يقوم بالرواية : ولكن

سيكون لهذه الطريقة وقع أقل وسلطان أدنى . ولما كان الوقت يقارب موعد الغداء فقد ذهب مباشرة إلى المطعم الصغير الذي يقوم في الحي الافريقي وهو يتخيل زيارته وفنجان القهوة المر .

كان يطلق على المطعم الصغير اسم « صديقك حتى الممات » وباختصار « صديقك » . كانت جدرانها الحجرية مدهونة بالشحم وتشكل مرتعاً خصباً للذباب . فكانت اللذبابات تثر حول الزبائن وتقفز فوق الفناجين والصحون بل وكانت تتسافد فوق الأطعمة الموضوعة على الطاولة . ورود بلاستيكية في صفائح من التلك كانت تزين الطاولات الصرّارة . شعار المطعم كان مدهوناً بأحرف كبيرة على الجدار : تعالوا يامعشر الجياع والعطشى وسوف أوفر لكم الراحة . وعلى قسم آخر من الجدار كانت تتدلى قصيدة ضمن إطار دقيق :

بما أن الإنسان قد أصبح جائراً على أخيه الإنسان

فدلوني إلى الإنسان الذي أستطيع الاعتماد عليه .

لقد محضت ثقتي للعديد وما نالني سوى الغم ،

لذلك إن جئت بنية الدين يا صاح ، تعال غداً .

مطعم « الصديق » كان هو المطعم الوحيد المرخص في غيشما .

كارانجا التقى بموارا هناك . ليس خليةً بك أن تخلق لنفسك الأعداء ،

هكذا ما كان كارانجا يحدث نفسه به دائماً بعد أن يكون قد أساء لأحد

العمال ونفّسه منه .

« إنني آسف بخصوص ماجرى بيننا » عاجله بالقول كاراتنجا متصنّعاً دماً غريبة عليه . « آمل أن تعتبرها هفوة بين صديقين . فكما تعلم إن بعض الناس لا يدركون أن العمل الذي نقوم به ، كما تعرفه ، من كتابة القسائم لكل تلك الكتب العلمية يستلزم التركيز . وإذا فتح إنسان عليك الباب على مصراعيه دون سابق إنذار فإنه يضايقك وحينها لابد لك من تخريب الحروف . ولكن قل لي هل تعرف فيّمة المكتبة — تلك المرأة — معرفة جيدة كما أعرفها أنا — وهل تعتقد بأنها قد انفصلت عن زوجها دون سبب وجيه ؟

— « أيها النادل : أسرع إلي بفنجانين من الشاي . . . والآن ماهي الأنباء الواردة من رونجي ؟ » .

جون ثومبسون — وهو رجل طويل القامة ذو بشرة مرنة ملتصقة بعظامه — لم يذهب إلى نيروبي بل بقي في غيثيما خلال ساعة الغداء يمارس بعض الأعمال الخفيفة : أي أنه كان يقف ، يذهب إلى الخزانة المنتصبة حذاء الجدار . يتناول منها ملفاً ويعود إلى الطاولة ، وجهه المرهق من الطقس في ذهول دائم ، وكأنما فكره مشغول بأمور بعيدة وقديمة . كانت يدها النحيلتان وعيناها الברاقتان تجوسان في كل ملف بدقة قبل إعادته إلى الخزانة . استوى في جلسته مرة أو مرتين وداعبت إصبعه بعض التفضّعات المحشدة حول شلّقيه .

كان ثومبسون يتأمل الورق النشاف ومسند الأقلام وأقلام الحبر ،

والدواة والسقف وجدران المكتب الناصعة البياض ، كلاً بدوره ،
وكأنما يفتش عن نمط يوحد بين هذه الأشياء كافة : إلا أن عقله كان
يثب من فكرة إلى أخرى بكل خفة . بعدئذ تناول الصحيفة الصادرة
في ذلك اليوم - الإثير - نسخة من لواء شرقي إفريقيا - وهي أقدم
صحيفة يومية في كينيا ، واسترخى على كرسيه . وبينما كان يتصفح
التقارير المكتوبة عن الإستعدادات الجارية لعيد الاستقلال الذي يصادف
يوم الخميس ، أجفل ثومبسون من جراء شعور غامض بالخيانة .
ماكان بوسعه أن يحدد في الصحيفة ذلك الشيء الذي كان يسبب له
- منذ قيام الحكم الذاتي المحلي في حزيران - ذلك الشعور : أهو نبأ
الاستقلال الذي كان يعرفه من قبل ، أم الروح المتمثلة بالاستعجال
بتقبل مجريات الأمور . ذات مرة رأى صورة رئيس الوزراء على الصفحة
الأولى : ماكان يطيق النظر إليها مرتين فعجل في قلبها إلى الصفحة
التالية : فيما بعد شعر بالخجل من ردة فعله هذه ولكنه لم يتمكن من
قسر نفسه على النظر إليها مرة ثانية . كان ثومبسون يعلم سلفاً أن دوق
ادنبرة سينوب عن الماكة . لقد كان اي نبأ عن عيد الاستقلال يذكره
بمعرفته هذه . ومهما كانت وجهة نظر ثومبسون حيال هذا الأمر فقد
كان يؤرقه الحزن لمعرفته بأن اللوق سيكون حاضراً لمشاهدة إنزال
العلم الذي لن يرفرف ثانية على هذا الجانب من شاطئ انكلترا . هذا
الغم كان يعمقه فكره وهو يعود به إلى عام ١٩٥٢ حينما قامت الملكة ،
وقد كانت وقتها أميرة ، بزيارة كينيا . ولخنيهة نسي ثومبسون الصحيفة

وعاش ثانية تلك اللحظة التي صافحته فيها تلك المرأة الشابة . كان وقتها مدير منطقة . شعر برعشة : تسارعت نبضات قلبه وكأنما قام ميثاق بينه وبينها . وبعدئذ شعر بأنه على استعداد للإقدام على فعل أي شيء لإرضاء لها ، كقطع نفسه مثلاً ، كي يبرهن لها عن استعداده لتنفيذ تلك المهمة التي بدت متجسدة - وإن كانت غير معلنة - في شخصها وابتسامتها . ولما عادت له ذكرى تلك النشوة ألقى بالأوراق بعيداً بشكل لاإرادي وهب واقفاً على قدميه . كان في عينيّه بصيص " مضمة دامعة . فسار باتجاه النافذة وهو يتم هامساً : يا القبح كل ما جرى .

خبث تلك النشوة الآتية في نفسه وحل محلها التجهّم . فاتكأ إلى الأمام وعيناه تحدقان بذلك المشهد الذي كان يقوم أمامه بشكل سديمي : كانت تمتد أمامه سقوف المخابر الثلاثة المصنوعة من الحديد المبروم ، مخبر لأمراض النباتات والحراج ، والثاني لفيزياء التربة والثالث لكيمياء التربة . وإلى يساره كانت تنتصب البيوت الزجاجية لاستنبات الخضراوات وهي مبعثرة هنا وهناك على شكل مجموعات من بيتين أو ثلاثة لمح في المركز الدكتور لايند ، وهي عالمة بأمراض النباتات ، تجتاز الطريق الأسفلتي ولكنها سرعان ما اختفت خلف البيوت الزجاجية ، وبعد ثوان معدودة تبعها كلبها ، وقد كان ضاري حراسة بقي اللون ضخم الجثة تتهدل لغايديه السوداء ، مندفعاً من المخابر . عن يمينه كان يرى المكتبة ومجموعات من الأفارقة يتمددون على الحشيش تحت الطنوف . كان كل ما حوله هادئاً ، تفكر ثومبسون ، وهاهو الآن

يجبل بصره من ساحة الحشيش الأخضر إلى مبنى الكيمياء وهو أقرب
مخبر إليه . أناييب اختبار فوق أناييب اختبار كانت منضدة بشكل
أنيق قرب النافذة الزجاجية . هل ستبقى هذه الأشياء بعد يوم الخميس ؟
ربما ستبقى مدة لاتزيد على الشهرين : وبعدئذ - أناييب الاختبار
والأكواب سوف تتكسر أو تلقى متسخة على الإسمنت ، والبيوت
الزجاجية وأحواض البذور التي نشرت فيها النباتات البرية والشجيرات
المحيطة بها التي تقضبت أطرافها بكل عناية ، ستزحل تدريجياً إلى
فسحة مليئة بالقمامة .

برز الضاري من الجانب الآخر لمبنى الكيمياء وهو يتشمم سطح
الحشيش . تم توقف ورفع رأسه نحو المكتبة . فتوترت أعصاب ثومبسون :
لا بد من وقوع أمر ما . لقد عرف ذلك الأمر وترقبه ولكنه كان عاجزاً
عن كبت الرعدة التي حلت به . وفجأة بدأ الضاري ينبج وهو يقفز
عبر الساحة باتجاه مجموعة الأفارقة . زعق بعضهم وتفرقوا في اتجاهات
شتى . ثمة رجل واحد منهم لم يتمكن من الهرب في الوقت المناسب
فأتجه إليه الضاري . حاول الرجل أن يشق درباً للنجاة بنفسه بيد أن
الضاري حاصره عند الجدار . فأنحنى فجأة والتقط حجراً ورفعها
في الهواء . لم يكن الضاري يبعد عنه الآن أكثر من أقدام قليلة . وانتظر
ثومبسون وقوع الأمر الذي كان يخشى وقوعه . وفي تلك اللحظة بالذات
ظهرت الدكتوراة لايند على المسرح ، وبينما كان الضاري يتأهب

للوثب على الرجل ، صاحت شيئاً ما . استعاد ثومبسون أنفاسه أولاً
على شكل شهيق طويل ومن ثم على شكل شهيق سريع قصير . زال
توتره وأصيب بخيبة أمل غامضة لعدم وقوع شيء يذكر .

غادر مكتبه وعبر ساحة الحشيش باتجاه المكتبة حيث تجمع عدد
قليل من الأفريقيين . كانت الدكتوراة لايند تمسك طوق كلبها بيدها
اليسرى وتشير باصبع الاتهام إلى كارانجا بيدها اليمنى .

« إنني عاتبة عليك ، عاتبة عليك أشد العتب » قالت بصوت ينضح
بأشد أنواع الاحتقار . فأطرق كارانجا برأسه ، كان الخوف والغضب
باديين في عينيه ، كما كانت حبّات العرق مازال تتصبب على وجهه .
- « الكلب - الكلب - جاء - سيدتي المصون » قال متأثراً .

- ما كنت أتوقع هذا منك بتاتاً - أنت تقذف الحجارة على
كلبي ؟

- لأحجار - لم أقذفه بالحجارة .

- « بالطريقة التي تكذبون بها أنتم أيها الناس » - قالت وثافتت
حوها إلى الآخرين . والتفتت من ثم إلى كارانجا قائلة : « ألم أضبطك
ممسكاً بالحجر ؟ كان عليّ أن أتركه يتناولك . وحتى هذه اللحظة
تراودني فكرة ما بأن أسمح له بذلك » .

عند هذا الموقف وصل جون ثومبسون إلى المسرح . أفسح الأفريقيون

له الطريق وكفت الدكتورة لايند عن تقريع كارانجا وابتسمت إلى ثومبسون . رفع كارانجا رأسه يحدوه أمل ما . تطلع الأفريقيون الآخرون إلى ثومبسون وكفوا عن التمتمة والغمغمة . انتاب القلق ثومبسون من جراء ذلك الصمت المفاجيء والعيون العديدة ، وتذكر المعتقلين في (ريرا) في ذلك اليوم الذي أعلنوا فيه الإضراب . وهاهو الآن يشتم رائحة العداء نفسها . يجب أن يحافظ على رفعته - حتى النهاية . بيد أن الهلع سيطر عليه ، ودون أن يلتفت إلى أي إنسان تفوه بأول كلمات سواحلية نطق بها لسانه :

« سأعالج أنا هذا الأمر » . وسرعان ما أدرك بأن هذا القول كان القول الخاطئ الذي ما كان عليه أن يتفوه به - لقد كان هذا الكلام أقرب مايكون إلى الاعتذار . هاقد انتهك الصمت ، وطفق الرجال الآخرون يصيحون ويشيرون إلى الضاري ، وقام آخرون بحركات إيمائية غامضة في الهواء . نظر كارانجا إلى ثومبسون نظرة ملؤها العرفان بالجميل . وسرعان ما طوق ثومبسون كتف المرأة بذراعه ومشى بها بعيداً .

لقد سار بها عبر الرواق الواصل بين مبنى المكتبة ومبنى الإدارة على غير دراية منه إلى أين يقصد بها . لقد بدا كل شيء وكأنه عقاب من الماضي : ريرا والضاري . كانت الدكتورة لايند هي المتحدث الوحيد طيلة هذا الوقت .

« لقد بدأت الوقاحة تظهر عليهم لمجرد أن موعد عيد الاستقلال قريب - حتى أفضلهم بدأ يتغير » .

لقد أراد أن يفتحها بموضوع الضاري ولكنه وجد ذلك أمراً عسيراً عليه . كان يدرك بأن عليه أن يقوم بتصرف ما . فماذا كان من الممكن أن يحدث لو أن الضاري لمس كارانجا ؟ كان من المفروض به كمدير إداري أن يعالج العلاقات بين العمال والإداريين ، ولقد تلقى عدداً من الشكايات على كلب الدكتور لايند من سكرتير اتحاد المستخدمين الأفريقيين المدنيين في كينيا . لقد وصلا الآن إلى مشتل زراعي كبير مسور بالأسلاك الشائكة ، فجلسا على بقعة معشوشية من الأرض . أراد أن يكشفها بالحقيقة - ولكن هل يفصح عجزه لها : من أنه وقف مشلول الإرادة لأنه كان يتوقع لإهراق الدماء .

« عملياً لم تكن الغلطة غلطة ذلك الشاب » بادرها بالحديث .
« لقد رأيت الضاري يعدو باتجاههم » .

كان ثومبسون ، كالعديد من الأوروبيين الآخرين في كينيا ، يحب الحيوانات الأليفة - لاسيما الكلاب - حباً جمّاً . منذ عام مضى أخذ مارغري إلى نيروبي لمشاهدة مسرحية « أشهري مسدسك يا آتي » حيث كان يجري تمثيلها على (المسرح القومي) من قبل ممثلي المدينة . لم يكن قد زار ذلك المسرح بتاتاً من قبل - لأنه عملياً لم يقدم أية مسرحية هامة قط - بل كان يزور دائماً (نادي مسرح دونافان مول) . كان

الطريق بين غيئما ونير وني يمر عبر الريف . كان الظلام حالكاً . وفجأة ظهر أمام أنوار السيارة كلب على وشك عبور الطريق . كان بمقدور ثومبسون أن يكبح السيارة أو أن يخفف من سرعتها أو أن يستعمل النغير . كان أمامه متسع من الوقت والمسافة . ولكنه تشبث بالمقود . لم يكن يريد قتل الكلب على الرغم من أنه كان يعرف بأنه سوف يدهسه . كان ملتصقاً بالمقعد — خائفاً مما ليس منه بد . وفجأة تناهت إلى سمعه زعقة . فعادت إلى ثومبسون حيويته . كبح السيارة حتى توقفت وفتح الباب وخرج يحمل مصباح الجيب . رجع إلى وراء عدة ياردات ، لم يكن هنالك كلب . نظر على كلا جانبي الطريق ولكنه لم يعثر على أثر للكلب — حتى ولا على أثر للدماء . ومع ذلك فقد سمع الخبطة والزعقة . ولما رجع إلى السيارة وجد مارغري تهشش بالبكاء . وكم كانت دهشته حين وجد نفسه أسير الارتعاش وغير قادر على موااساتها . « ربما يكون تحت السيارة » قالت له . خرج ثانية وأمعن النظر تحت السيارة . لم يكن هناك أي شيء . قاد سيارته وهو يشعر بالحزن وكأنه قتل إنساناً .

لقد عاش تلك القشعريرة مرة أخرى حين رأى الضماري يعدو نحو كارانجا . كان الحادث قريباً قرب سواد العين من يياضها حينما كان يحاول أن يشرح للدكتورة لايند ماحدث تماماً — ولكن الصعوبة كانت تكمن في انفصل بين ماحدث خارج مكتبه على الحشيش — حذار من أن تقول لها غير ذلك — وبين ماكان يجيش في سريرته .

ولشد ماكانت دهشته وانزعاجه حين رآها تتعجب فأشاح بوجهه

بعيداً عنها . وبينما كان الضاري يتجول بين الشجيرات توقف قرب
أجمة من أشجار الكافور ورفع إحدى قائمته الخلفيتين وطفق يتبول .

« إنني آسفة » قالت الدكتورة لايند بصوت متهدج تخنقه العبرات
وهي تمسح دموعها بمنديل أبيض . كانت امرأة مسنة يتهدل اللحم
من خديها وتحت عينيها . وكانت يومياً تجتاز الساحة — الساحة القائمة
بين البيوت الزجاجية وبين المخابر وأحواض البذور — بنخفة كمخلوق
منعزل ، كالشبح .

— « لاتدعي هذا الأمر يكدرك » قال وعيناه تلاحقان الضاري
خلسة .

— « حاولت ألا أتكدر ولكن — ولكن — ولكنني أكرههم .
ليس بوسعي أن أتجنب ذلك . إذ كل مرة أراهم فيها أتذكر — أتذكر — »
تملأ فوق العشب وشعر بموقفه المضحك تجاه هذه المرأة التي أحب
الابتعاد عنها الآن بعد أن خبا عنده الحافز للحديث معها عن الضاري .
ولكن مزاج الدكتور لايند كان ذلك المزاج — مزاج الرثاء الذاتي
الطاهر المقدس — الذي يجد فيه المرء نفسه أقرب ماتكون إلى إنسان آخر ،
حتى لو كان غريباً ، وعلى استعداد للبوح له بأعمق مكنونات نفسه
من مخاوف ومتاعب . وهكذا أفضت له بالحادث الذي نغص عليها
حياتها وجانب جسدها بالعار . كانت تعيش وحيدة في موعوغا في
بيت ريفي عتيق تكسوه الأشجار من جميع جوانبه حتى السطوح . كانت

تحب البيت ، العزلة ، الطمأنينة . وقع لها ذلك الحادث إبان حالة الطوارئ . ولقد حذرها مدير المنطقة مرات عديدة بضرورة ترك المكان المنعزل والذهاب إلى غيشيما أو إلى نيروبي حيث تتوفر لها الحماية والأمن على نحو مؤكد . ولكنها ماكانت تلقي بالاً إلى تحذيراته : إن الروايات عن مقتل النساء في بيوت مزارعهن القصية لم تحفها . لقد جاءت إلى كينبا كي تمارس العمل وليس لكي تتمتعن السياسة . لقد أحبت المنطقة والمناخ ولذلك عقدت عزمها على البقاء . لأنها لم تتسبب بالأذى لأي إنسان قط . وإن القول بأنها كانت تفرّج خادمها أحياناً لقول صحيح ولكنها كانت تهبه الهدايا والثياب أيضاً كما أنها ابتنت له مسكناً من الطوب خلف بيتها وما كانت تلزمه بالإفراط في العمل الماضي . كان رجلاً صغيراً من قبيلة الكيكويو في منطقة رونجي ، وكان من الواضح أنه كان طباعاً أو شيئاً من هذا القبيل خلال الحرب العالمية الثانية ، ولكنه بقي عاطلاً عن العمل ردىً طويلاً من الزمن قبل مجيئه للعمل عندها . وتوطدت بين الخادم والكلب صداقة كانت رؤيتها تحرك مشاعر الآخرين . وحدث في إحدى الليالي ، وقد كان الظلام دامساً في الخارج ، أن طلب منها الخادم فتح الباب بالخاح . ولدى فتحها الباب اندفع إليها رجلان وجراها جراً إلى غرفة الجلوس والخادم في إثرهما . كانت تتوقع منه النجدة ولكنه خذلها ووقف باسمّاً . توقعت منهما أن يقتلها إذ أنها أسلمت نفسها للموت بعد الصدمة الأولى . ولكنها حين اكتشفت رغبتهما بها شعرت ببرودة متناهية

تسري في كل كيائها . يقول الناس أن النساء يتعرضن للإغماء في أمثال تلك الحالات أو أنهن يقاومن . كم تمت وقتها لو أصيبت بالإغماء أو لو ماتت في تلك اللحظة نفسها . ولكن الجانب المرعب في تلك العملية تمثل في أنها رأت كل شيء بأم عينها وكانت في حالة من الوعي التام وفيما بعد ألقى القبض على رجلين وشنقا وأما الخادم فقد أفلت وتوارى نهائياً . وكان عليها أن تشتري كاباً آخر وتدرجه (لأن الخادم كان قد دس السم للكلب الأول في تلك الليلة) . أعيتها الحيل لانتزاع تلك الرائحة البغيضة من أنفها ، ولنسيان تلك النظرات المسعورة الخبيثة في عيون الرجلين — لا — لا ، لن تنسى تلك الحادثة مطلقاً إلى يوم تموت .

نظر إليها ثومبسون منكفئاً على ذاته بعيداً عن صوتها وعن جسدها وعن حضورها غادر كلاهما الحقل وسارا في دربين مختلفين وكأتهما يشعران بالخجل من آخر وصال جنسي لهما . لقد كان شعوره بالخوف الذي استيقظ فيه بالمكتب يفوق إدراكه له ، فحاول أن يكبت موجه الخوف الخفية ، ولكن الكلب كان يسيطر على فكره . وتذكر الكلب الآخر الذي التقت عيناه بنور السيارة . ما الذي حدث له ؟ ماذا كان جرى لو أن الضاري وثب على كارانجا ومزق لحمه إرباً ؟ يالذلك العداء الذي لاحظته في عيون الرجال حينما اقترب منهم . يالهول الصمت . ياللمفاجأة . مثلما حدث في (ريرا) تماماً . هناك رفض المعتقلون الكلام . افترشوا الأرض ورفضوا الطعام أو الشراب . كان عنادهم

كالخديد . عيونهم كانت تلاحقه أينما سار . يالكرب الذي اعتراه .
وباللأرق الذي عاناه وهو يفكر في كيفية خرق الصمت . وفي الظلمة
كان يستطيع رؤية عيونهم . وفي الرجال عند المكتبة ، تعرف ثانية
على تلك العيون . النظرة نفسها فيها .

لقد عمل جون ثومبسون كمدير منطقة في أنحاء عديدة من كينيا .
كان يعمل بدأب كبير مما جعل مقدراته على التعامل العاجل الناجع مع
الأفريقيين موضع إقرار الجميع على نطاق واسع . كان وراءه سجل
حافل في الإدارة الاستعمارية . وخلال حالة الطوارئ نقل مؤقتاً
إلى معسكرات الاعتقال كي يعيد تأهيل مريدي الماو ماو إلى جادة
الصواب كرعايا بريطانيين . في (ريرا) وقعت مأساة حياته . لإضراب
عن الطعام ، ضرب خفيف ومات أحد عشر معتقلاً . رشحت هذه
الحقيقة . وبما أن ثومبسون كان الضابط المسؤول فقد تناقلت
اسمه الألسن في مجلس العموم والصحافة العالمية . وفجأة أصبح رجلاً
ذائع الصيت . تألفت لجنة لاستقصاء الحقائق . نقل إلى غيشما وطرده
من الإدارة العامة التي كان يحب العمل فيها . لكن جرحه هذا ما اندمل
قط . إن مجرد لمسة يعيد إلى ثومبسون كل ذلك الهوان الذي عاناه
في ذلك الوقت .

ولما كان الآن يحدق في عيونهم تراءى له فيها مغزى مرعب جديد :
هل كان سيخضع ثانية إلى التحقيق ، وفي ظل حكومة سوداء هذه
المرّة ، لو حدث لكارانجا أي شيء ؟

لقد مرت فترة العصر سريعاً على الرغم من أنه لم يزاول أي عمل يذكر . ربما سيعود غداً لإنجاز العمل . فأغلق النافذة وعاش المشهد ومخاوفه مرة أخرى . في نهاية الرواق كان كارانجا في انتظاره . ماذا تراه يريد منه ؟ ماذا يريد منه ؟

— ماذا تريد ؟

— لقد سلمت الرسالة .

— والمغزى ؟

— أريد تقديم الشكر لك .

تذكر ثومبسون كذبتة ، فحلق في الصبي وعبره . ولما خطرت على باله فكرة ثانية نادى كارانجا .

— « بشأن حادثة ذلك الضاري — » .

— أوامركم سيدي ؟

— لا تقلق بشأنه . أنا من سيعالج الأمر .

— لكم الشكر ياسيدي .

ومضى ثومبسون يغلي حنقاً في داخله . هل كان عليه هو أن يهدىء

من روع كارانجا ؟ بالنهية التي وصلنا إليها !

شعر بالدموع تترقق في عينيه واندفع إلى السيارة كالمسحور .

* * *

الفصل الخامس

كانت لدى ثومبسون رغبة في أن يحدث مارغري عن الدكتوراة لايند ، وفتح فمه مرتين لهذا الغرض وفي المرتين استحوالت الرغبة إلى التذمر من قيظ النهار . حاول أن يركز انتباهه على المستقبل : حفلة الوداع غداً ، ركوب الطائرة والعودة إلى الوطن في اليوم الذي يليه ، حياتهما الجديدة في بريطانيا ، بيد أن فكره كان مهووساً في الماضي وفي الجانب اللطافه منه : مثل حادثة الضاري التي وقعت في باكورة ذلك اليوم .

— ماذا كنت تفعل في نيروبي ؟ سألته وقد شعرت بقلقه علاوة على ما كانت تشعر به هي من أفكار .

— ماوصلتها عملياً — أجبها .

— لماذا ؟

— «عمل أكثر مما يجب في المكتب » ، تتم وتناول نسخة قديمة من صحيفة « بانش » وكأنه يريد حماية نفسه بها من زوجته .

— آمل أن يكون كل شيء قد أضحى الآن على مايرام — أعني في المكتب .

— نعم . كنت أومن النظر ببعض الملفات ، ثمة عدد آخر منها بحاجة للعمل غداً وعدد من الرسائل العاجلة بحاجة لإجابات . لقد أصبح كل شيء جاهزاً أمام الإنسان الجديد .

— وهل وجدوا إنساناً آخر ؟

— نعم . لا . لا أتصور ذلك .

— ربما سيكون أفريقياً ؟ أعتقد بأنهم يفرقون كل شيء الآن .

ألقى الصحيفة على ركبتيه ، وثبيّس وكأن دبوساً قد وخزه في استه . كابوسه السابق الذي تخيله صبيحة ذلك اليوم عاد إليه الآن وبشكل أكثر حيوية : قارورات وأنايب اختبار متكسرة ملقاة على أرض المخبر ومكتبه هو مليء بالرسائل التي تنتظر الإجابات والغبار والورق المتناثر على أرض المكتب . شعر بالغيرة على مكتبه وعلى النظام الذي ابتكره فيه كما شعر بالبغض لذلك الرجل الذي سيخلفه وتُمى لو استطاع حماية كرسيه من أية إهانة قد تلحق به . شعر ثومبسون بذلك الألم الصامت ، بل بذلك الكرب الذي يعاينه الناس من جراء معرفتهم بأن الاستغناء عنهم أمر ممكن في خاتمة المطاف ، وأن المدرسة التي تركوها أو النادي أو الجامعة سوف تتقبل رجالاً جدداً مهما بلغت

درجة إهمالهم وانعدام شعورهم بالمسؤولية ، دون أي اكتراث ، وكأن السابقين ما وجدوا قط وما تركوا بصمات أصابعهم على تلك الأشياء التي اعتادوا أن يقولوا عنها بأنها لهم شخصياً . وليسيب مجهول شعر ثومبسون بأن غضبه هذا ينقلب على زوجته ، فأراد أن يوجه لها سؤالاً ، أن يتحداها ، لعله يكتشف إن كانت هي ضده أيضاً . ولكن الشيء الذي أراد معرفته في الواقع كان التالي : لو أنه مات الأمس في (ريرا) أو في غابة كينيي ، لو أنه مات اليوم ، فهل ستقدم على الزواج من رجل آخر ؟ وفجأة ألقى بالصحيفة ومشى إلى الغرفة التالية دون أن يجيب على السؤال الذي سأله مارغري . بعد عدة دقائق عاد يحمل ملفاً يشتمل على دفاتر وأوراق وطفق يتصفحها .

قامت مارغري كي ترفع الفناجين والصحاف . تمهلت عند فنجانه ونظرت إلى زوجها وتذكرت الأيام التي مضت قبل التحاقهما بالخدمة الاستعمارية حين كان من عادته أن يفتح لها مكنونات قلبه ويخبرها عالياً فوق أمواج تهاوله وتطلعاته الأخلاقية . كان ذلك بعد أن عاد جون إلى أوكتفورد من الحملات الإفريقية في الحرب العالمية الثانية . رق قلبها لهذه الذكرى ولاحظت الآن التوتر البادي على وجهه وتمنت ، لثانية واحدة ، أن تبدده برفق وإلى الأبد . ولكن تلك الرغبة تلاشت بعد ذلك أمام الأفكار السوداء والذكريات المرة : مذمتي بالتحديد بدأ كل منهما يسير على طريق مستقل ؟ وبسرعة تناولت بقية الأشياء ومضت إلى المطبخ . ربما كان العمل هو الشيء الذي أبعد عنها . إذ بعد أن

غاص زوجها في العمل الإداري ووضع الرقيات نصب عينيه بدأت تطلعاته تتلاشى ، وأما هي فقد تزايدت بالنسبة لها صعوبة اكتشاف ماتخبئه قسّمات وجهه الغامض حتى أصبح من المؤلم لها بالنتيجة أن تكن له حتى الحد الأدنى من العواطف والرقّة . فخلال أزمة (ريرا) بذلت جهوداً مضنية كي تشد من أزرها وتواسيه . ولكن أين هو ذلك الحنان الذي كان من واجبها كزوجة أن تشعر به حياله ؟ لم يكن بوسعها أن تشاطره همومه ، وبدلاً من ذلك ، شعرت بالحجل الذي يعتور طفلاً يشاهد فجأة شاباً يافعاً منهمكاً بمطاردة فراشة في الحقول والدروب .

لم تكن مارغري تسمح لأي فكرة أن تستحوذ عليها طويلاً . والآن وهي في المطبخ تغسل الصحون . وجدت نفسها تعيد إحياء ذلك الدفء الذي شعرت به صبيحة ذلك اليوم . كم من السخف ، قالت لنفسها ، أن تتذكر كل تفاصيل ذلك اللقاء القصير مع كارانجا . ربما يكمن السبب في أنني سأغادر أفريقيا . لا . ربما لأنني أتقدم في السن . يقولون بأن القبط الأفريقي يفعل ذلك في النساء . تبسمت ولكنها فجأة توقفت : هل صحيح أنها تدخل هذا المطبخ لآخر مرة ؟ ألن ترى غيثيما أبداً مرة أخرى ؟ هل ستعني أزهارها أي شيء بالنسبة لأية إنسانة تحتل مكانها في هذا البيت ؟ كل زاوية من زوايا البيت ، الكراسي ، الطاولة ، السرر وحتى الحيطان كانت تثير فيها الذكريات ، وخلال تجوالها

من مقاطعة إلى أخرى في جميع أرجاء كينيا ، لم تجد أي بيت آخر ولا أي مكان آخر يحتل في نفسها ما احتله هذا البيت من تعلق حميم . وليس ثمة مكان آخر غير هذا البيت وفّر لها ذلك الإحساس بالانعتاق ، بالحرية ، بالسلطان .

كانت غيشما هي المكان الذي قابلت فيه الدكتور دايك وشيء ما في داخلها - شيء كانت تجهل تماماً وجوده لديها - تم إيقاظه على شكل عفيف إثر ذلك اللقاء . وشعرت أنها ضعيفة ، ذلك الضعف اللذيذ أمام هذا الإنسان . ومع ذلك فكم كانت عادة شربه مقززة وكذلك ضحكته الصاخب . كان بالتأكيد نقيضاً لجون الذي كان دائماً أنيق الملبس مهذب للتصرف مع الآخرين والذي ما كان يسمح لشربه قط أن يبلغ حد السكر . ومع ذلك فإن مارغري شعرت بأنها تغور في حيوية جديدة : الخلوة ، الجرأة . البهجة القوضوية الناجمة عن انتهاك إحدى القواعد ، كلها شحذت احتياج علاقتهما الغرامية . الليلة الأولى كانت تنطوي على روعة خاصة ، لحظة حبلى بالخوف والفضول والانشداه . وفي اللحظة التي اختلق زوجها لنفسه العذر بعدم المشاركة في الرقص أدركت أن شيئاً ما سيحدث لها . وحين عرض عليها (فان) أن يوصلها إلى البيت شعرت بامتنان عميق حتى إنها كادت تطيع قبله شكر على جبينه . وبعد أن توقفت السيارة بهما في إحدى الغابات الكثيفة العديدة في غيشما ، أغمضت جفניה ولامست شفتاه شفتيها .

- هيا بنا إلى المقعد الخلفي ، ههههم في أذننا .
- ليس اليوم يا (فان) ، ليس اليوم ، همست مسترخية .
- اليوم . بل الآن . قال وهو يكاد ينتزع ثيابها عنها وينتقل إلى المقعد الخلفي . تبعته مستسلمة ولم تنبس ببنت شفة .
- ولكن يجب أن نتوخى الحذر رجاءً ، عاد لها صوتها بعد أن شعرت بوطأته فوقها .
- نعم . نعم .
- رويدك ، على رسلك — قالت ولكن سرعان ماقاطعت كلماتها دفعة من جسده ، فالتصقت به وهي تخشى أن تتزلزل السيارة وكل للمدنيا من تحتها . الصمت المطبق في الظلام والطين الدائم في الغابة أضافا سحراً على سحر تلك اللحظة . وبعد أن فرغت من هذه المضاجعة بكّت وهي تتعجب كيف سيكون بوسعها مقابلة زوجها بعد الآن .
- لماذا تتحبين ؟
- زوجي .
- بش الرجل ! شم متمتماً .
- لم تكن علاقتهما الغرامية علاقة هنية . أخذت غيرها عليه تشتد ، وصارت تكره أن تراه في الحفلات يحادث أو يضاحك النساء الأخريات . ولكن أنى لها أن تثير فضيحة علنية أو تدعي حقها فيه صراحة . ولذلك

فان مشاحناتهما ومنازعاتهما كانت تحدث بشكل سري ، في اللحظات الثمينة لأنها لحظات مسروقة ، في الوقت الذي كان يجب أن ينهما المتعة فيه . في أحد الأيام ذهب جون ثومبسون لحضور مؤتمر في أوغندا . فجاء الدكتور فان دايلك إلى البيت ولأول مرة تحدث إليها عن عمله . طفق يتحدث برصانة . دون تجديف ، ويتباهى بعض الشيء بعمله .

الناس لا يدركون المصاعب التي نواجهها في كينيا . ففي منطقة مثل بريطانيا التي هي بلاد سهلة نسبياً كما تعلمين ، يسهل على المرء أن يحدد ، على سبيل المثال ، موضع ضغط منخفض يزحف إلى المنطقة . ولكن في كينيا ، حيث تكثر المرتفعات ، تميل هذه المرتفعات إلى إحداث تغييرات مفاجئة وغير مرتقبة في مواضع الضغط . ولذلك يصعب على المرء أن يتنبأ بالطقس .

— ولكن يجب أن يكون اديكم ما يغطي ذلك .

— آه ، نعم . مع أخذ العديد من العوامل بعين الاعتبار فان الأرصاد الجوية تبقى ، في أماكن مثل كينيا أو جنوبي أفريقيا ، أمراً أشد إثارة .

هاقد دخلت عالماً جديداً رأيت فيه الكثير مما يمت بصلات للدراساتها في المدرسة عن مقاييس الأمطار ، ومقاييس اتجاهات الرياح . وخطوط تساوي الضغط الجوي ، ومناطق الضغط الجوي المنخفض ، والكتل الهوائية . كانت تعلم بأنه ولد وتعلم في جنوبي أفريقيا وأنه عمل في

روديسيا الجنوبية ، وأنه في كلا البلدين واجه أموراً لا يفرقه عنها شيئاً
نغمّصت عليه حياته ، ولذلك بدأ بعملية التهرب منها ، إذا جاز التعبير ،
حتى وصل به الأمر إلى غيثيما حيث لم يعد توازنه النفسي إليه إلا من
خلال الشراب ، كما استتجت . ولكن هذه المرة كانت هي المرة
الأولى التي تحدث فيها عن عمله . وبدأ الحديث تدريجياً ينجرّ إلى حياتهما
الشخصية وهكذا بدأت بمحاولة سبر مغامراته مع غيرها من النساء .
تبّاً لك ، لست زوجك ! صاح في وجهها وغادر البيت عند منتصف
الليل ، مخلفاً إياها وحيدة شقية على الأريكة . « لينصرف » ، لأريد رؤيته
مرة أخرى » حدثت نفسها . ولكنها في اليوم التالي دفعت إليه برسالة
تطلب فيها منه العودة إليها على جناح السرعة .

مراراً عديدة كانت تجد نفسها في حمأة التحايل الذاتي الدقيق .
كانت تمنع النظر في علاقتها بزوجها . لا يمكنها نكران حق زوجها فيها
وانتمائها إليه . ولكن هل هذا هو المعنى الوحيد للحياة الزوجية ؟ في
أمثال هذه اللحظات ، وهي تغوص في مستنقع الشعور بالإثم والكره
الذاتي ، كانت تشعر بالرأفة عليه . رغبتها الشديدة في الاعتراف والبوح له
بمكنونات قلبها ، كانت رغبة عارمة . كانت تكره الدكتور دايلك .
ولكنها كانت كلما زادت كراهيتها له زاد إدراكها لسلطوته عليها :
كانت بحاجة إلى جسده ، إلى الطعنة النجلاء في صميم تيه مظلم لا قرار له ،
إلى التهتك في الملذات ، إلى الطيش اليائس والافتتان . بدأ الخوف
والغبرة لما كان يفعل من خلف ظهرها يفسدان عليها راحتها وطمأنيتها .

بعد ذلك ، وفي غفلة من الزمان ، تصيّد القطار عشيقها : ولشد ما كانت دهشتها حين لم تشعر بالحزن عليه ولا بأي شعور آخر . وفي الواقع كان أول رد فعل لها يتمثل في تصورها لاستعادة طمأنينتها المسلوكة . ولكن سرعان ما بدأ القلق يتتابها كأنسان فقد شيئاً ما دون أن يعرف ما فقد بالتحديد . فالتفت لتربية الأزهار (هواية أصبحت موضع إهمالها إبان مغامراتها) بهمة جليدة .

لقد تراحمت كل الأمور في فكرها وهي تغسل الصباحون . ونحول الحزن إلى تعب من زوجها وتبرمها به . إنهما على شفير التغيير ، كما تصورت ، ومع ذلك فانه صامت لا يتكلم . عيد الاستقلال أوصل حياتهما إلى ذروة الأزمة وزوجها يتصرف وكأن شيئاً لم يكن . لم تكن تعرف ماتريد منه أن يقوله لها بالتحديد : ولكن على الزوج والزوجة أن يتقاسما على الأقل همومهما حيال أي شيء : ماضيهما ، الحفلة التي ستقام في اليوم التالي ، عودتهما إلى الوطن بالطائرة يوم الأربعاء .

نعم . سوف تجربره على الكلام ، هذه الليلة ، صممت على ذلك وكفّت عن تنشيف الصباحون . عادت إلى غرفة الجلوس وقد عقدت عزمها على ذلك . كان جون يمعن النظر في أكedاس الدفاتر والأوراق التي أمامه ، ومن حين إلى آخر يخربش شيئاً ما بيد كان يبدو عليها الارتعاش . انحنى عليه من الخلف وطوقت عنقه بذراعيها ودغدغت بشفتيها شحمة أذنه اليسرى . ولشد ما أذهلها تصرفها هذا لأنها كانت

قد أفلحت عنه من سنين عديدة . وفجأة تبدد تصميمها العنيد على إقحام علاقتهما في أزمة مكشوفة .

-- عم مساء .

-- عمت مساء .

-- حذار أن تتأخر ، قالت له وهي في طريقها إلى الحمام ومن ثم إلى المخدع .

أول مرة جاء فيها ثومبسون إلى شرقي أفريقيا كانت خلال الحرب العالمية الثانية حيث أتى كضابط جري نقله بعد حين إلى كتيبة الرماة الافريقية الملكية . كان له دور ناشط في حملات مدغشقر عام ١٩٤٢ . وباستثناء ذلك فقد أمضى معظم وقته في كينيا يمارس مختلف واجبات التدريب والدفاع عن الحصون العسكرية . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها عاد إلى أوكسفورد لمتابعة دراسته التي قطعتها له الحرب . وهناك في أوكسفورد ، بينما كان يدرس التاريخ ، وجد نفسه مهتماً بتطوير الامبراطورية البريطانية . كان هذا الاهتمام في البداية اهتمام مؤرخ بمعزل عن أي تورط شخصي . ولكنه انجرف بتيار قصائد رديارد كيبلنج . شعر بومضة آنية ، بلهيب منبعث . نظر إلى نفسه كرجل من رجالات القدر ، كرجل تهيئوه الأقدار لإنجاز أشياء عظيمة في المستقبل درس أعمال اللورد لوغارد وحياته . ثممة اجتماع طارئ فيها بعد بطالبين أفريقيين بلور له صابته إلى قناعة راسخة . لقد تحدث معها

عن الأدب والتاريخ والحرب وكانوا كلهم متحمسين للرسالة البريطانية الطالبان الأفريقيان ، وقد انحدرتا من عائلة وجهاء مما كان يدعى في ذلك الوقت بساحل الذهب ، ظهر عليهما فهم حقيقي للتاريخ والأدب . لقد أثارا في نفس تومبسون التعجب والإعجاب . بدأ عقله يشتغل . هاهنا كان أمامه شخصان أفريقيان لا يختلفان عن البريطانيين في الملبس والحديث والكفاءة الفكرية . فأين هي إذاً تلك النزعة اللاعقلانية والتفاضل الذاتي والمعتقدات الخرافية التي تلمع العروق الأفريقية والشرقية ؟ لقد حل محل هذه النقائص الثلاث تلك المبادئ الأساسية الثلاثة التي تطيع الفكر الغربي : مبدأ العقل . ومبدأ الترافف الاجتماعي . ومبدأ الاعتدال . وبقي أياماً وأسابيع يفكر في هذا بانطباع واحد يراوده من حين إلى آخر : بدا له أن الطالبين الأفريقيين فخوران بترائهما البريطاني وبالتقاليد البريطانية . وعملت اللفظة عملها في نفس تومبسون وهو يدرك بأنه على وشك القيام باكتشاف عظيم : ماهي بالتحديد طبيعة ذلك التراث ؟ واستيقظ في إحدى الليالي . تباداً ، ورأى قمره يلبس لبوس فكرة من الأفكار .

« كانت البهجة تغمر قلبي » كتب فيما بعد . « وفي طرفة عين توصلت إلى قناعة تفيد بأن توسع الامبراطورية البريطانية كان وليد فكرة أخلاقية جائلة مؤداها : أن الامبراطورية البريطانية يجب أن تفضي بكل تأكيد إلى خلق أمة بريطانية واحدة تضم شعوباً وقبائل من كل

العروق والمعتقدات ، ويجب أن تقوم على أساس تلك الفرضية العادلة القائلة بأن البشر كلهم قد خلقوا متساويين .

« سطع بالنسبة لي نور هائل وسط الظلمة الخالكة . »

تحويل الامبراطورية البريطانية إلى أمة واحدة : أفلا يلقي هذا ضوءاً على أشياء كثيرة : لماذا ، على سبيل المثال ، تطوعت الألوف المؤلفة من الافريقيين للموت في الحرب على هتلر ؟ .

ومنذ البداية ، وحالما وضع يده على قلم حبر بغية تدوين أفكاره ، لاح أمام بصره عنوان المخطوط . لسوف يسميه « بروسبرو في أفريقيا » . وفي المخطوط ساق الحجج على أن الفرد ، لكي يكون بريطانياً ، يعني أساساً اتخاذ موقف فكري : يعني وجهة النظر في الحياة ، وفي العلاقات البشرية ، وفي التنظيم العادل للمجتمع البشري . أليس من الممكن إعادة تكييف الناس وفق طريقة الحياة هذه من خلال تغيير مناخهم الاجتماعي والحضاري ؟ « بروسبرو في أفريقيا » كان عصارة غوص دؤوب في أعماق التاريخ الانكليزي ، وفي « التاريخ العام للاستعمار » منذ زمن الرومان حتى الزمن الحاضر . لقد أعجبته السياسة الفرنسية ، سياسة الاستيعاب ، ولكنه انتقل الفرنسيين لأنه كان من أنصار مادعاه « بالمفهوم المعكوس لدى لوغارد عن الحكم اللامباشر » .

« يجب أن نتحاشى الغلطة الفرنسية المتمثلة في استيعاب النخبة المثقفة . فالفلاح في آسيا وافريقيا يجب أن تأخذ وضعه بعين الاعتبار

هذه الخطوة ، خطة إعادة التأهيل . فنحن في بريطانيا لدينا فلاحنا ، ولنا اليوم عاملنا ، وهما يحتلان دوراً حيوياً في مجتمعنا .

لقد كانت مارغري هي الإنسان الوحيد الذي كان يكشف له مراراً عن طموحاته . وأول ما شهدا إليه كان الحزن والتحفظ الباديان في وجهه . لقد أعجبت بألمعيته . انفعاله الأخلاقي كان يسبغ على الحياة معنى من المعاني . وذات مرة ذهبا في نزهة إلى أحياء لندن . توقفا هنيهة في حديقته القديس جيمز وشخصت أبصارهما إلى كنيسة وست مينستر وإلى مجلس العموم البريطاني وإلى ما كان يقع خلفه . أسندت مارغري رأسها على كتفه وكأنها كانت تتمنى أن يحملها معه إلى تلك البلاد التي تحدث عنها . ففعل ذلك . وبعد بضعة سنوات أبحرت السيدة والسيد ثومبسون قاصدين شرقي أفريقيا لكي يصبحوا بعدئذ في قلب مسرح الإدارة الاستعمارية .

« لأنني مسرور وأنا أظأ بقدمي » كتب لدى وصوله إلى ومباسا « التربة الحمراء لكينيا . لقد كنت هنا خلال الحرب وأعجبتني المناخ . وما كان بحسباني أنني سوف أعود إليها بمهمة مغيرة » .

كان دائماً يتذكر هذه الكلمات . وحتى في هذا اليوم ، عشية رحيله عن شرقي أفريقيا ، أعادت له بصيص الايمان الذي كان متشعباً به مجرد لمسة من أصابع مارغري . إن إيمانه بالامبريالية البريطانية قد ساقه مرة إلى التصريح بقوله : « إن إدارة شعب من الشعوب تعني إدارة

روح » . كان وقتها يتحدث مع مجموعة من الضباط في فندق ستانلي الجديد . وبعد العشاء كتب تلك الكلمات في دفتر مذكراته ، لا ، لم يكن دفتر مذكرات بل كان فيضاً من الملاحظات التي خرجتها في أوقات مختلفة وفي أماكن متعددة خلال مجرى حياته ، وكان ثمة أمل يحده في أن يصم بعضها إلى بعض على شكل فلسفة منطقية في مخطوطة « بروسبرو في أفريقيا » . هاهي الملاحظات الآن أمام ثومبسون وقد كان يتصفحها ويتمهل عند بعض الفقرات التي كانت تسبب له الدهول .

(نايري مليئة بالجبال والهضاب والأودية السحيقة المكسوة بالغابات التي لا يمكن النفاذ إليها . هذه الأشجار البدائية أدخلت الرهبة دائماً في العقول البدائية . إن ظلمة وغموض الغابة قادت « الإنسان البدائي » إلى السحر والطقوس) .

(ماكنه هذا الشيء المدعو بالماو ماو ؟)

(الدكتور ألبيرت شوتيزر يقول : الإنسان الأسود طفل ، ومع الأطفال لا يمكن فعل شيء دون اللجوء لاستخدام السلطة . وبما أنني زاولت العمل في نايري وغيشيما وكيسومو وانغونغ ، فأنني متفق معه) .

(هاقد عدت إلى نايري . الناس يتنقلون إلى القرى كي يقطعوا العروة فيما بينهم وبين الإرهابيين . لقد شعرت . لدى حرق البيوت في القرية القديمة ، بأن حياتي تقترب من طريق مسدود) .

(الكولونيل روبسون - وهو أعلى مدير منطقة في رونيكي وكيامو .
قتل بشكل وحشي . سوف أستلم منصبه في رونيكي . على المرء
أن يستخدم العصا . لا يمكن لأية حكومة أن تحتل القوضى .
لا يمكن بناء حضارة على هذا العنف والتوحش . الماو ماو هو
الشیطان : حركة إذا لم تقمع سوف تعني التدمير الشامل لكل
القيم التي فامت عليها حضارتنا) .

(كل إنسان أبيض هو في خطر مستديم من التداعي الأخلاقي
تسريعاً في هذا الصراع الدائر يومياً ودقيقة ف دقيقة مع الافريقي .
الدكتور ألبيرت شوينزر) .

(في تعاملك مع الافريقي تجد نفسك مضطراً دائماً أن تفعل الشيء
غير المرتقب . البارحة دخل مكنتي أحد الرجال . أخبرني
عن قائد إرهابي مطلوب . منذ البدء كنت مقتنعاً بأن ذلك الرجل
يكذب علي ؛ بل كان يمثل في الواقع ، ربما لكي يتصليني
أو لكي يخفي دوره هو في الحركة . بدا لي وكأنه يسخر مني .
ولما كنت أتذكر أن الافريقي ممثل بالفطرة فان ذلك هو السبب
الذي يجعل الكذب لدى الافريقي أمراً غاية في البساطة . وفجأة
بصقت في وجهه ، لأعرف لماذا ولكنني فعلت ذلك) .

عاد ثومبسون إلى واقعه . حلق بالمخطوط دون أن يقول شيئاً .
قبل ريرا كانت طريقه نحو القمة واضحة جداً ومفتوحة جداً . والآن
وهو في غيشيما شعر بسخف الكلمات التي كان قد دوتها من قبل ، وتعمق
هذا السخف من خلال حقيقة واحدة وهي أن زوج الملكة ضيف الشرف

في احتفالات عيد الاستقلال . أحلامه ، وقد بعثتها مجدداً لمسة زوجته له . ضللتها : وماذا كان يمنع أن يبلغ الدروة ، أن يحتل منصباً رفيعاً كأن يكون وكيل القنصل أو عضواً في مجلس شورى الملكة أو حاكماً عاماً ؟ كل هذه المناصب سوف تتلاشى الآن مثل بيته ومكتبه وغيثيما والبلاد برمتها . دع السخفاء البلهاء من أمثال الدكتور لايند يبقون . ولكنهم في خاتمة المطاف سوف يطردون دون مراسم . ذلك هو السبب الذي من أجله استقال ثومبسون ، لكي يبتعد قبل عيد الاستقلال . فلماذا يجب أن ينتظر الناس ويعيشوا وصمة عار اقتلاعهم من سرهم ومقاعدهم على أيدي خدامهم ؟ وتذكر الدكتور لايند وحادثتها ، وكذبه على كارانجا . أراد أن يتحدث إلى مارغري ، هذه الليلة بالذات لأنها جددت إيمانها به . عيناها الفاترتان وصوتها الرخيم سوف تطهره من الهلوسة التي نغصت عليه حياته . يا للهرم الذي بلغناه . بذل جهداً حتى وقف على قدميه . تراقص قلبه أملاً وخوفاً حين دخل الحمام كي يعد نفسه للاعتراف العظيم .

فتح باب المخدع محترساً وخطا إلى داخله . لم يشعل الأنوار لأنه كان يشعر بأن الظلمة سوف تخلق المناخ الصحيح . كان رجلاً ولد لكي يموت باستمرار وينبعث للحياة من جديد . كانت يدها ترتعشان ، بشكل طفيف ، وشعر بالظلمة تزحف نحوه وهو يسير متلمساً طريقه إلى السرير . بيد أن مارغري كانت قد غطت في نومها منة حين . اكتشف ثومبسون هذا وشعر بامتنان وارتياح عميقين . غاص في السرير ولكن الكرى لم يزر جفنيه إلا بعد مضي وقت طويل .

الفصل السادس

إن الله لا يعين إلا من يعينون أنفسهم ، هكذا يقال ويشار بالبنان إلى الانسان العصامي الذي أصاب ثروة وجاهاً ، مع التغافل عن آلاف الناس الآخرين الذين يكذبون ولكنهم يتضورون جوعاً ، يعملون يوماً ويطردون من العمل يوماً ، دون أن يفلحوا في تحسين أوضاعهم المادية . هذه القاعدة الأخلاقية المسلّم بها ، .بلدت قاعدة صحيحة بالنسبة إلى غيكونيو . قال الناس في تاباي : إن المعتقلات قد عامته أن يتحكم بنفسه .

كان غيكونيو من بين أول مجموعة من المعتقلين الذين عادوا إلى القرية بعد أن نجحوا في عبور « سم الحياط » . (كانت عبارة سم الحياط هي الاستعارة الرسمية المهابة لسلسلة المعتقلات التي يجب أن يمر بها المعتقلون كافة) ، ولما عاد إلى القرية كان أصحابه الوحيدون يمثلون بمنشار عتيق ومطرقة عتيقة . ومن حسن حظه أنه عاد خلال مواسم آب وأيلول حين يكون المزارعون بأمس الحاجة للنجارين لبناء العنابر

والمخازن لحفظ الذرة والفول والبطاطا . لقد كان الناس في ثاباي يعرفونه قبل حالة الطوارئ . فطلق يعمل الآن بجهد أكبر وينجز كل عنبر في وقته المحدد . تكاثرت طلبات العنابر عليه . ولكنه كان إذا أسرع في تنفيذ تعهده كما نص عليه العقد لا يتوقع بالمقابل من الطرف الآخر تلكؤاً في دفع النقود . وهكذا كان يصر على استلام النقود في اليوم والزمن المتفق عليهما . لم يكن يتساهل مع أي تأخير . فعامل الفقراء والأغنياء على قدم المساواة . والفرق الوحيد بينهما هو أنه كان يرضى بتمديد فترة الدفع لمن يلحفون عليه السؤال لتنفيذ ذلك المطلب . ولكن في الموعد المتفق عليه . سواء أكان بعد شهر أو شهرين أو ثلاثة شهور . يجب أن تكون النقود جاهزة . « لقد بدّله الاعتقال تبديلاً » كان الناس يقولون عنه وهم يتحسرون . ولكنهم كانوا يثقون بأمانته المطلقة ويحترمونها . فلقد كان ، على الأقل ، ينفذ جانبه من الصفقة في الوقت المحدد .

كان غيكونيو يتصرف بالنقود ، بدلاً من ابتياع الثياب له أو لأسرته ، مثلما يتصرف بها الباعة الهنود . لقد كان يشتري الذرة والفول بأسعار زهيدة خلال المواسم ويعبئها في أكياس ويخزنها في كوخ أمه المسودّ من السخان . وفي ذلك الكوخ أيضاً كان يعيش ومومي . لقد كان يناقش الأمر على الشكل التالي : لقد عرفنا (زوجته وأمه) العري وتضورتا من الجوع دليلاً السنوات الست الأخيرة . ولن يضيرهما الانتظار على تلك الحالة بضعة أشهر أخرى . وحينما كان يخف الإقبال

على عمله في النجارة ، نتيجة المواسم ، كان غيكونيو يمارس مختلف الأعمال الغربية مغتتماً الفرص الساحة هنا وهناك . ففي ثاباي وفي القرى المحيطة برونجي ، تأتي معظم العائلات على مخزون طعامها في كانون الثاني . ثم يتلو ذلك الشهر شهران من الجفاف إلى أن تبدأ الأمطار الغزيرة في آذار . وحتى في ذلك الشهر كان يجب على الناس انتظار حصاد المحاصيل . ذلك كان الوقت الذي هجر فيه عمله المأحور كنجار ودخل السوق . كان يذهب إلى السوق مع الفيجر ويشترى كيساً أو كيسين من النرة بسعر الجملة من موردي النرة المرخصين ، أو من السوق السوداء في وادي ريفت . وعند الضحى كانت تلحق به زوجته وأمه . وكانت مومي و وانغري — مثلهما مثل غيرهما من البائعات — تبيعان النرة بسعر التجزئة بميزان من طاسات القرع . وبالنقود التي كانتا تكسبانهما كان غيكونيو يساوم ثانية لشراء كيس آخر لكي تبيعه المرأتان بسعر التجزئة فيما بعد . وكان يعاد استثمار الربح المكتسب في العمل بالسوق . وأحياناً كان غيكونيو يشتري كيساً من النرة لبيعه في مكانه مباشرة إلى شخص آخر بسعر أعلى . لم يكن وقحاً مع الزبائن بل كان يتحدث معهم بقناعة متواضعة ويضع نفسه في خدمتهم . ولما كان على استعداد دائم للاعتذار فانه كان يصبر على الإصغاء المطلق لزيائنه . وبهذه الطريقة كان يتزع النقود . لقد كان التعامل معه أمراً مستحجاً ولا سيما للنساء . « باللسانه الحلو وبالأمانته الرفيعة » هذا ماكنّ يقلّنه عنه . وهكذا ذاع صيته في السوق . كان غيكونيو ينتظر فترة طويلة من الزمن إلى أن تصبح

الدرة نادرة جداً ، وبما أن مخزون الدرة من المزارع الأوروبية . كان محكم التصريف ، فقد كان يدفع ، في الوقت المناسب ، إلى السوق بما كان قادراً اختزنه منها بأسعار عالية .

كانت حياته حياة كفاح . وفي البداية كان يسخر منه الرجال الآخرون لقيامه بعمل من اختصاص النساء . تحتكّ جوانبه بتناير النساء . ولكن بعد أن تغيرت ثروته بدأوا يحترمونه حتى إن بعضهم حاول أن يحدو حذوه بمرجات متفاوتة من النجاح .

إن قصة إثراء غيكونيو ، على الرغم من أنها كانت على نطاق ضيق ، كانت تنطوي على مغزى أخلاقي تتحدث عنه كل أم لبنيتها في ثاباي .

« لم تعد تمة حاجة بزوجته وأمه العجوز لأن تذهبا إلى السوق وتحتكّ ثيابهما بتياب غيرهما من النساء . هذا هو الواقع لأن الابن لم يكن يخشى اتساخ يديه ، ولم يكن يغفو إلى وقت الظهيرة كأبي إنسان أوربي » .

صحيح أن غيكونيو كان ينهض باكراً ، ولم يكن يسمح لهموم القلب أو لأي شيء آخر أن يلهيه عن قصده العاجل . فمثلاً في صبيحة اليوم التالي لزيارته إلى ميوغو نهض باكراً قبل الديكة وذهب إلى كيريتا التي تقع خلف المرتفعات وابتاع منها الخضراوات التي كان سيرسلها فيما بعد إلى نيروبي . إن تموين نيروبي بالخضراوات (وكان لغيكونيو زبائن عديدين هناك) كان عملاً محزياً ولا سيما إذا دهنت بزبدة النعود

أفواه شرطة المرور وشرطة البلدية الذين كان بمقدورهم دائماً خلق المتاعب أمام رجال الأعمال الأفارقة . وأما بالنسبة للأوروبيين والآسيويين فإن الحكم الذاتي المحلي لم يبدل شيئاً من معاملتهم المتميزة . وبما أن غيكونيو كان يجهل قيادة السيارة فقد وظف رجلين ، سائقاً وجاياً ، للإشراف على هذا الجانب من عمله . بيد أن عين غيكونيو كانت ساهرة على كل شيء . حتى إنه حدد السرعة لمأجوريه . وعند وقت الغداء عقد اجتماعاً مع اللجنة المسؤولة عن تزيين الساحة التي كانت ستجري بها الألعاب الرياضية والرقصات في عيد الاستقلال .

وبعد الظهر كان غيكونيو على موعد مع نائب منطقته وذلك لأنه منذ شهر مضى اتفق مع خمسة رجال آخرين على الاشتراك في شراء مزرعة صغيرة تعود ملكيتها لمستر بورتن . كان مستر بورتن واحداً من أوائل المستوطنين الذين جاعوا تلبية لرغبة الحكومة البريطانية في الاستيطان بكينيا بعد الانتهاء من مد الخط الحديدي إلى أوغندا ، وأما أرض مزرعته تلك فقد حصل عليها مقابل أغنية ليس إلا . ولد أطفاله في كينيا ودرسوا في مدارسها — الذكور في مدرسة أمير ويلز والإناث في مدرسة كينيا الثانوية (أو كما كانوا يطلقون عليها « حظيرة العجول ») ومن ثم ذهبوا إلى موطنهم في بريطانيا لاستكمال دراستهم الجامعية ، حيث بقي معظمهم هناك إلا صبيّاً وبنْتاً عادا إلى كينيا . اشتغل الصبي لدى واحدة من كبريات شركات البترول في نيروبي . ولما هرم — مستر بورتن — لم يكن يعرف فعلاً موطناً له إلا كينيا وما كان

في نيته أن يغادرها مطلقاً (حتى إنه لم يذهب في إجازة إلى بريطانيا ولا لأسباب صحية أيضاً) إلى أن علم علم اليقين بأن السلطة ستنتقل إلى أيدي السود . إن مستر بورتن ما كان يصدق أبداً — كالعديد من المستوطنين الأوروبيين وعلى الرغم من التلميحات التي صدرت عن قائدهم السير مايكل بلنديل — بأن الحكم الانكليزي كان سينتازل عن السلطة . وفي تلك الآونة أراد مستر بورتن أن يبيع الأرض التي أحبها والتي وهبها الكثير من حياته وأن يعود إلى موطنه في بريطانيا . كان غيكونيو قد اتصل بمستر بورتن وأجرى معه ترتيبات أولية . وبما أن الرجال الخمسة لم يكن بوسعهم أن يدفعوا أكثر من نصف الثمن (وكان مستر بورتن يريد الثمن عدلاً ونقداً) ، فان غيكونيو ذهب لزيارة النائب ليرى فيما إذا كان بمقدوره أن يتوسط لهم ، أو أن يستخدم نفوذه خلف الستار . لمنحهم قرضاً حكومياً . أصغى النائب بوقار لمطلبهم ودون كل التفاصيل عن المزرعة على قصاصة من الورق . ثم طلب بعد ذلك من غيكونيو أن يعود لمراجعته في هذا اليوم . « هذه هي الروح الجماعية الحقيقية . لإنها مساعدة ذاتية حقيقية » قال لغيكونيو مودعاً وهو يشد على يده بقوة .

كان غيكونيو مفعماً بالأمل حينما انصرف مسرعاً من الاجتماع ليركب الحافلة إلى نيروبي . الحافلة ، التي كانت تدعى « بالولد المجتهد » كانت تعود ماكيتهما لأحد أولئك الناس في رونجي ممن جمعوا ثرواتهم خلال حرب الاستقلال . أولئك كانوا أناساً يحصلون ، من خلال

تعاونهم الفعال مع الحكومة الاستعمارية ، على إجازات استيراد بل وعلى قروض كي يطوروا بها أعمالهم ، وعلى الرغم من أن غيكونيو كان مفعماً بالأمل فقد كان يشعر ببعض الامتعاض لاضطراره تحمل مشاق السفر إلى نيروبي . ليس إلا عدد قليل من النواب كانت تقوم مكاتبهم في دوائرهم الانتخابية . وحالما تم انتخابهم هرعوا إلى نيروبي وقلما ظهروا في مناطقهم إلا حينما كانوا يعودون برفقة القادة الوطنيين الآخرين لإلقاء الخطب في الاجتماعات السياسية الحاشدة . قبل أن يصلوا نيروبي أوقف الحافلة شرطيان أفريقيان . دخل الأول منهما الحافلة وعدد عدد المسافرين بينما كان الشرطي الثاني يطلب من السائق إجازة السوق . كان في الحافلة راكبان إضافيان . تجادل السائق مع الشرطيين . عندئذٍ عمد الجاني لإخراج الشرطيين من الحافلة ولوّح للسائق بيده كي يتابع مسيره . فهم السائق مغزى الإشارة فقاد الحافلة ياردات قليلة وتوقف . سرعان ما عاد الجاني راكضاً ودخل الحافلة . « ماكانا يريدان إلا شلنات قليلة لدفع ثمن كوبين من الشاي » قال فضحك الناس في الحافلة . تابع « الولد المجتهد » رحلته إلى المدينة . شارع الاستقلال (وقد كان سابقاً شارع الأميرة أليزابيث) كان مزداناً على جانبيه بصفوف من الرايات الكينية الحديدية من سوداء وخضراء وحمراء بالإضافة إلى رايات بلدان أفريقية أخرى . لقد نسي غيكونيو مهمته التي جاء من أجلها إلى المدينة لأن قلبه كان يرفرف طرباً مع الرايات . خرج من الحافلة وسار في شارع كينياتا وهو يشعر في تلك اللحظة بأن

المدينة ملك له فعلاً . تمثال اللورد ديلاير الذي كان يطغى بكل شموخه على الشارع ، حلت محله الآن بركة احتشد من حولها الرجال والنساء الأفاقة بـ وكان الماء يترشش منها في ساحة فندق ستانلي الجديد — وكانوا كلهم يشيرون إلى زخات الماء الدورانية الصادرة عن النوافير . « إن هذه النوافير وهي تتبارى في لفظ الماء تتشبه بأعضاء ذكورة الرجال » هكذا سمع غيكونيو إحدى النساء تقول والأخريات من حولها يتضاحكن لقولها هذا . بدت نيروني لغيكونيو مدينة مستعدة لعيد الاستقلال . فعقد عزمه على أنه لدى عودته إلى ثاباي سيحاول بث الحماس من جديد لتزيين روني .

اجتاز الطريق الحكومية إلى شارع فيكتوريا وسرعان ما بدأ ذهنه التجاري يعمل مرة ثانية . وأخذ يتساءل ، كما كان يفعل دائماً أثناء اجتيازه لهذه الشوارع ، لماذا لا يوجد حانوت أفريقي واحد في كل الساحة الرئيسية في نيروني وهي أكثر الساحات حيوية . في الواقع لم تكن نيروني ، على نقيض كامبالا ، مدينة أفريقية قط (كما قال كاريوكي على الأقل) . لقد كان الهنود والأوروبيون يسيطرون على الحياة التجارية والاجتماعية في المدينة . وما كان الإنسان الأفريقي يأتي إليها إلا لتكنيس الشوارع وقيادة الحافلات والتسوق ومن ثم العودة إلى منزله الواقع على تخوم المدينة قبل حلول الظلام .

... كان حشد من الناس ينتظر خارج مكتب النائب لأنه كان غائباً عنه .

ولكن الناس كانوا قد اعتادوا منه على الوعود والمواعيد الكاذبة .
لقد كانوا في بعض الأحيان يروحون ويحيثون أياماً وأياماً دون أن
يتمكنوا من مقابلة ممثلهم .

— إن مقابلته تنطوي على صعوبة تماثل صعوبة مقابلة الاله
تذمرت إحدى النساء .

— لماذا — ماذا تريد أن تطلي منه ؟

— ابني يريد منحة دراسية إلى أمريكا . وأنت ماذا تريد منه ؟

لإنها مشكلة بيتيه ، إذ يوم السبت الفائت جاؤوا واعتقلوا بعلي
« لأنه لم يدفع الضرائب . ولكن أنى له أن يدفع رسم الاقتراع وهو عاطل
عن العمل ؟ لقد اضطر ولدانا لترك المدرسة بسبب انعدام النقود لدينا » .

لقد جاء بعض الناس بصدد مشكلات تتعلق بالأرض ، وآخرون
لأنخذ مشورته في مشكلات زواجهم ، وجاء آخرون على شكل وفد
يطلب من النائب أن يساند مطلبهم بمدرسة ثانوية في نجاوهم .

« ليس ثمة مكان يذهب إليه أبناؤنا بعد انتهائهم من المدرسة
الابتدائية » كان يقول أحد الكهول .

بعد ساعة أو مايقاربها وصل النائب . كان يرتدي بذة سوداء
ويحمل حقيبة جلدية . كان يلمح الغليون . حياً جميع الناس كما

يحيي الأب أبناءه أو المدير تلامذته . دخل المكتب دون اعتذار عن تأخره . دخل الناس عليه واحداً واحداً .

قلب غيكونيو كان يخفق بالأمل : ليتهم يستطيعون الحصول على القرض ، ولاح في الأفق طيف مستقبل جديد يفتح أمامه . سوف يديرون المزرعة على أساس تعاوني ويهجنون الأبقار لتحسين نسلها ويزرعون البابونج والشاي والذرة ، وكل شيء . وفي المستقبل قد تتوسع هذه التعاونية وتضم إليها أناساً آخرين . وبعد انتظار طويل جاء دوره . وبدا كأن الدهشة تعقل لسان النائب لدى رؤيته غيكونيو .

« اجلس ، اجلس ياسيد غيكونيو » قال متكرماً عليه بكرسي أشار إليه بيده اليسرى في الوقت الذي كانت فيه يده اليمنى تسند الغليون في فمه . أخرج مانماً من الدرج وفتحه ، واستغرق فيه عدة دقائق فعلاً . انتظر غيكونيو مترقباً . رفع النائب وجهه عن الملف واتكأ على كرسيه . نزع الغليون من فمه .

« والآن بشأن تلك القروض ، لا يخلو الحصول عليها من صعوبات ، ولكنني مازلت أبذل كل ما بوسعي . وربما تتوفر لدي في غضون أيام قلائل أنباء سارة لكم . »

« متى أستطيع العودة إليك ؟ » سأله غيكونيو وهو يعجز عن إخفاء خيبة أمله .

« آه ! - لنرى . هذا اليوم هو يوم . . . » وقلب أوراق مفكرته
ثم نظر إلى غيكونيو .

« لنترك الأمر على الشكل التالي : مارأيك لو جئت أنا لزيارتك ،
أو على الأقل لو كتبت إليك حينما أتوصل إلى نتيجة ؟ إن لك حانوتاً
في رونجي أليس كذلك ؟ »

- نعم .

- ذلك سوف يجنبك الكثير من المشقة . هل نترك الأمر كما
قلنا ؟

- « حسناً » قال غيكونيو حينما وقف يتأهب للذهاب . عند الباب
التفت غيكونيو إليه .

- هل تعتقد أن بالإمكان الحصول على ذلك القرض ، أو أن
علينا أن نفتش عن وسيلة أخرى لتأمين النقود ؟ .

اعتقد غيكونيو بأنه قد اكتشف علائم الذعر على وجه الرجل الآخر »

- « آه ، لا ، لا » قال النائب وهب واقفاً. مشى بخطوات رصينة
إلى المكان الذي كان يقف فيه غيكونيو . « ليس ثمة إشكال فعلي في
موضوع القرض . القروض موجودة هناك . إن الأمر لا يعدو مجرد
السؤال عن السبل . . . لا عليك اترك الأمر لي . هل الأمر هكذا على
مايرام ؟ »

« حسنًا » قال غيكونيو وقد عقد عزمه على مقابلة مستر بورتن في اليوم التالي . إذا قبل مستر بورتن نصف النقود فسيكون بإمكانهم تسليمه البقية بالتأكيد حال تسلمهم القرض أو أنهم سوف يتدبرون أمرها بطريقة أو بأخرى . وما اجتاز غيكونيو ياردات قليلة إلا وسمع الناس خلفه يصفّرون . أدار رأسه ورأى الناس يشيرون إليه . لقد أراد منه النائب العودة إليه . وهكذا ارتقى درجات السلم للمرة الثانية ودخل المكتب .

بشأن احتفالات عيد الاستقلال في رونجي ، أرجوك أن تشكر نيابة عني فرع الحزب هناك والكبار لتوجيههم الدعوة لي للمشاركة . ولكن في ذلك اليوم نفسه دعي كل النواب للقيام بمهام مختلفة هنا . لذلك أرجوك أن تعتذر لهم عني وتبلغهم بأنني لا أستطيع الحضور .

— « عاش الاستقلال . »

— « عاش الاستقلال . »

بعد مضي يومين كان ميوغو موضع حديث الناس كافة في النجود الثمانية التي تحبط بثناباي : لقد رووا بلرجات متفاوتة من التهويل كيف أنه نظم الإضراب عن الطعام في ريرا ، حدث دفع (فثنا بروكوي) لتوجيه الاستفسارات في مجلس العموم البريطاني . عاداته التي لانظير لها وسلوكه الغريب خلعا عليه نعت الإنسان المصطفى .

ولنتأ، كر أيضاً أن سنوات، اعتقاله ومعاناته قد عززتاً بنيتة القوية . كان
إنساناً طويل القامة ذا عيين واسعتين سوداوين . وكانت الخطوط
على وجهه مستقيمة . حمدة تحديداً واضحاً وكأنها قد حُزرت بحجر -
لنه أحد أولئك الناس اللذين توحى نظراتهم بالأمل والثقة .

ولكن لا يوم الأحد ولا يوم الإثنين ساوره هاجس من أن تأليه
على نطاق واسع كان في طريقه إليه . بل إن الاقتراح المفاجيء من
الحزب قد أفقده توازنه فعلاً . استيقظ صباحاً وثمة أمل يحده بأن
يكون حدث الليلة السابقة مجرد حلم آخر ، بيد أن مرأى المقاعد التي
اقتعدھا المنسوبون بدّد له أضغاث أحلامه تلك ، كما أن الكلمات التي
قيلت وقعت في فكره موقع الكابوس . لماذا يريدونه أن يترأس احتفالات
عيد الاستقلال ؟ لماذا لا يكون غيكونيو أو واروي أو أي واحد من
الذين قاتلوا في الغابة ؟ فلماذا ميوغو ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

فكر في الذهاب إلى المزرعة ، لا . لم يكن بوسعه ممارسة أي عمل
علاوة على أنه لم يكن يرغب بالمسير عبر القرية . لم يكن يريد مقابلة
واروي أو وامبوي أو غيثوا أو المرأة العجوز . السير إلى رونجي سيكون
أفضل . كان يوماً قائظاً آخر ، حرقّت له الرمضاء قدميه العاريتين ، تجمع
الغبار فوق أصابع قدميه والتصق بالعرق المتصّيب منها . ألّهب القيث
في فكره مهجوس الأمر الذي كان يتخبط فيه . نعم لهم يريدون
مني أنا أن ألقى خطاباً أقرظ فيه كيهيكا

و كل الأمور يا إلهي ما ألقى خطاباً في حياتي قط
آه ، نعم ألقى ذات مرة خطاباً هم قالوا ذلك قالوا
بأنه كان خطاباً بليغاً بالبلاغة قه ، قه ، قه تلوت
عليهم الأكاذيب تلو الأكاذيب لقد صدقوها أي إنسان
غيري لماذا أنا أنا أنا يريدون أن يتصيدوني . . .
غيكونيو صهر كيهيكا الجنرال ر الملازم الأول
كويناندو آه نعم خطاباً اطلاق الكلمات .

لم يلق ميوغو خطاباً حقيقياً إلا مرة واحدة في حياته . حدث ذلك
في اجتماع عقد بعيداً عن حوانيت كابوي قرب ثاباي . عقد الحزب
الاجتماع لكي يقدم المعتقلين العائدين إلى الجمهور . وافق ميوغو على
الحضور آنذاك لأنه كان يعتقد أن بإمكانه ممارسة حياته العادية في القرية :
فلماذا يوجه الأنظار إليه برفضه الحضور ؟ حضر الاجتماع أناس
كثيرون من ثاباي لأن السلطة كانت قد سمحت لنا ، كما تتذكرون ،
بعقد الاجتماعات السياسية . وثمة أناس آخرون جاءوا وهم يأملون
أن يتسلوا بسماع قصص الحرب والأفعال البطولية الأخرى . كان
الموقف في كينيا وقتها على الشكل التالي : انتهت حالة الطوارئ رسمياً
(منذ سنة تقريباً) بيد أن جومو كينياوا ورفاقه الوطنيين الخمسة
— أبطال محاكمة كابن غوريا — كانوا لا يزالون رهن الاعتقال في
السجن . وعلاوة على ذلك فإن الجراح العديدة التي عانى منها شعبنا

كانت لاتزال جراحاً طرية ولا تستطيع العين أن تنظر إليها ولا أن تلمسها اليد .

كانت قيادات الحزب في المنطقة هم أوائل الخطباء . فقالوا بأن الواجب يقضي باطلاق سراح جومو كينيي حتى يقود كينيا إلى الاستقلال لم يكن الناس يقبلون أن يصبح غيره رئيساً للوزراء . طلبوا من كل إنسان أن يقترح لمرشحي الحزب في الانتخابات القادمة : إن التصويت للمرشح يعني التصويت لكينيي . وفي الواقع دعي للاجتماع لتقديم أولئك الرجال الذين أتاحت تضحياتهم وإخلاصهم للبلاد إمكانية إجراء هذه الانتخابات .

واستلم دفعة البلاغة المعتقلون الذين وقفوا لإلقاء كلماتهم . فتحدثوا عن العذاب الذي تعرضوا له في ظل الإنسان الأبيض ودلوا على ذلك برواية أحداث كشفت عن عميق حبهم لكينيا . كان الناس يقاطعون كل خطيب بهتافهم : « كينيا موطن الناس السود » . لقد كانت زبدة هذه الكلمات تتمثل في قول أحد المعتقلين : « أين هو ذلك الشيء الذي ينطوي على حب أكبر من حب الإنسان لوطنه ؟ إن الحب الذي أكنه لكينيا هو ما أبقاني على قيد الحياة وأملني بأسباب القوة لتحمل أي شيء . ولذلك فإن القول بأن كينيا موطن الناس السود هو قول صحيح » .

وهندما بلغت مجريات الأمور هذا المستوى قام بضعة معتقلين من

الذين علموا بجاذبة ميوغو ودفَعوا به إلى الأمام . لقد كان من بينهم (انيامو) - الذي تم انتخابه فيما بعد أميناً للفرع المحلي للحزب - والذي كان موجوداً في (ريرا) في ذلك الأسبوع الذي ضرب فيه الأحد عشر معتقلاً حتى الموت . وقف ميوغو أمام الجمهور . صوته الفاتر الأجش أدخل الرعب إلى قلبه . تكلم برتابة مملّة ، متعباً وكأنه يتحدث عن مشاهد ما كان يريد أن يتذكرها .

« أخذونا كلنا إلى العمل في الطرقات وفي مقالح الأحجار حتى أولئك الذين لم يفعلوا أي شيء . نعتونا بالمجرمين . ولكن ليس لأننا كنا قد سرقنا أي شيء أو قتلنا أي إنسان . نحن لم نطالب إلا بالشيء الذي كان لنا منذ بدء الخليقة . لقد أجبرونا على الحفر ليلاً نهاراً . وقعنا فريسة المرض ولطالما نمنا وأمعأؤنا خاوية وثيابنا ممزقة وأسمالنا بالية حتى إن المطر والرياح والشمس عرفت كلها عريننا . في تلك الأيام ، لم نبق على قيد الحياة لأننا كنا نعتقد بأن قضيتنا عادلة ، وليس لأننا كنا نحب بلادنا . لو كان الأمر مجرد ذلك فمن كان عاد حياً منا ؟ »

« لم نكن نفكر إلا في بيوتنا » .

« لقد تقنا لذلك اليوم الذي نستطيع فيه رؤية نسائنا يتصاحكن أو حتى أن نرى أطفالنا يتعاركون ويتصايحون . عندما كنا نعتقد بأننا في يوم من الأيام سنعود إلى بيوتنا لنرى وجوه أمهاتنا وزوجاتنا وأطفالنا ونسمع أصواتهم أصبحنا أقوياء . نعم . لقد أصبحنا أقوياء »

حتى في تلك الأيام التي بدت فيها القضية التي أهرقت الدماء من أجلها
— بدت — » .

في البداية كان ميوغو يجد المتعة بتلك المسافة التي أقامها بينه وبين
صوته . ولكن الصوت سرعان ما أثار في نفسه الاشتزاز . لقد أراد
أن يصيح بأعلى صوته : ليست القصة هكذا أبداً ، لم أكن أريد العودة ،
لم يكاباني الشوق للقاء أمي أو زوجتي أو طفلي لأنه لم يكن لي شيء
من هذا القبيل . قولوا لي إذا من هو الإنسان الذي كان بمقدوري أن
أتوجه بحبي إليه ؟ توقف في منتصف الحملة ونزل عن المنصة وسار
باتجاه كوخه .

بعد الاجتماع وجد ميوغو ملاذه في قلة الكلام . تابع الناس أعمالهم
اليومية لإعادة بناء ما كان قد انهدم . جاءت الانتخابات . اقترح الناس
للحزب ورفعوه إلى السلطة وتابعوا كدّهم . ظن ميوغو بأن ثاباي
قد نسيت . ولكن الخرافات انتعشت على أساس أقل خصباً . لقد قال
الناس في الاجتماع بأن الرجل كان في غاية الانفعال مما منعه عن متابعة
خطابه . وفي كل مرة كان واروي يعلق على هذا الاجتماع لم يكن
ينسى أن يضيف قائلاً : « تلك الكلمات لا يمكن أن تصدر عن قلب
عادي » .

غدّ ميوغو الخطى في مسيره وكأنه عازم على الوصول إلى بيتغاه
باكرًا . إن كل ماضيه سوف يتبدى أمام ذهنه فجأة على شكل ومضة

حين يشق البرق الظلمة إلى نصفين . إن كل حياته ستكون مكثفة بتلك الومضة . ثم سوف يحاول أن يعزل الحوادث بعضها عن بعض كي يقفز فوق تلك الحوادث التي كانت تنغص عليه عيشته . فتذكر ذلك اللقاء - ثم ارتد ذهنه إلى اجتماع الليلة الماضية . « إنه سينصف فقراء الناس وسيضعف أطفال المحتاجين . ولسوف يمزق الظالم إرباً » . هزته هذه الكلمات هزاً وتراقص لهب في سريره مرة ثانية . فوقف متسماً . بعدئذ وعلى نحو مفاجئ جداً داهمته أفكار أخرى وأطفأت ذلك اللهب . لولم يكونوا قد شكّوا في أمره فهل كان الجنرال ر توجه إليه بتلك الأسئلة المربكة ؟ لقاء مع إنسان ما بعد أسبوع ؟ كاراتنجا ؟ نعم ، هل كان بمقدورهم فعلاً أن يطلبوا منه نحت مكانته في المجتمع من خلال إطلاقه المدائح على الإنسان الذي خاناه بكل حسنة ؟

هذه المخاوف والآمال والشكوك كلها كانت تنبئ على كاهل ميوغو حينما فاجأه غيكونيو مساءً بقوله : « من هنا ؟ » عند الباب ودخل الكوخ . وقفاه هنيهة وقد ارتبك كل منهما بحضور الآخر .

- « تفضل بالجلوس » وقدم له ميوغو كرسيّاً قرب الموقد .

- « لأنني واثق بأنك لم تتوقع حضوري » قال غيكونيو مرتبكاً بعد أن اقتعد الكرسي .

- « لاعليك . أتصور بأنك جئت كي تسمع قراري » .

— « لا — ليس ذلك مأجأني إليك هذه الليلة » . وروى على مسامح
ميوغو تفاصيل زيارته لنيروبي ولقاؤه بذلك النائب .

ميوغو الذي كان جالساً على السرير قبالة غيكونيو صمت كي
يسمع بقية القصة . النار التي كانت تشتعل في الموقد الذي تحيط به
ثلاث أناف كانت تتوهج بينهما . .

« ولكن ليس ذلك الأمر هو مأساقي إليك . بل لأنها المموم ،
هموم القلب » . قال غيكونيو مبتسماً وهو يحاول تصنع اللامبالاة .
« لقد جئت إليك في الواقع كي أوجه إليك سؤالاً واحداً » وأبى
حديثه بصمت مفاجيء .

هبط قلب ميوغو ما بين الخوف والفضول .
« أتعلم أننا ذات مرة كنا معاً في معتقل واحد ؟ » قال غيكونيو
متلمساً دبره إلى أي حديث .

« أصبح هذا ؟ لا أتذكر » . وعلى الرغم من أن روعه قد هدأ
قليلاً فإن هاجس الشك بقي ينهشه . « كان هنالك جمع غفير من
الناس » أضاف مسرعاً .

« كنا في معتقل موهيا وعرفنا بأنك سوف تنقل إليه . وكنا طبعاً
قد سمعنا عنك بشأن الإضراب عن الطعام في ريرا . لم نخبرنا السلطات
بذلك لأن الأمر كان من المفروض أن يبقى طبي الكتمان ولكننا
عرفنا به » .

. وبشكل نابض بالحياة عادت الذكريات إلى ميوغو عن ريرا وعن
ثومبسون الذي كان يجلده . وأما بصدده موهيا فما كان ليتذكر إلا
الأسلاك الشائكة والمنطقة السهلية الجرداء . ولكن معظم المعتقلات كانت
في تلك الآونة تقوم في أمثال هذه المناطق .

— لماذا تحدثني عن كل هذه الأمور ؟ لأريد أن أتذكر .

— أبوسعك نسيان ذلك نسياناً تاماً ؟

— أحاول ذلك . تقول الحكومة بأن علينا أن نطمر الماضي .

— أما أنا فلا أستطيع أن أنسى ولن أنسى ، صاح غيكونيو .

— هل عانيت الكثير ؟ سأله ميوغو وقد أخذته الرأفة به .

— لا . لم أعان الكثير . أعني هل تعلم بأنني ماعرضت
للجلد قط ، ولا مرة واحدة ، أيدهشك ذلك ؟

— أعرف أن بعض الناس ماعرضوا للجلد قط .

— كنت منهم ؟

— نعم . مرات عديدة .

— لقد كنت شجاعاً برفضك الاعتراف . كانت شجاعتك
موضع إعجابنا ، وأما نحن فقد جلدنا هاماتنا بالعار .

— لم يكن لدي ما أعترف به .

— وأما نحن فقد اعترفنا . كان بإمكانني أن أفعل أي شيء سعي
أعود إلى بيتي .

— كانت لك زوجة . وأم .

— نعم . أنت تلرك مغزى ذلك .

— لا ، إنني لأدرك ، إنني لأدرك أي شيء . صاح ميوغو
بأعلى صوته .

— لماذا تحدثت بذلك الأسلوب إذا ؟

— متى ؟

— في ذلك الاجتماع ، أتذكر ؟ لقد تحدث العديد منا بذلك
الأسلوب لأننا أردنا خداع أنفسنا . إن ذلك يخفف بعض الشيء من
عارك . لقد تحدثنا عن الإنخلاص للحركة وعن حبنا لبلادنا . لقد مرّ
علي وقت لم أعير فيه استقلال بلادي أي اهتمام . بل جلّ ما كنت
أبتغيه كان العودة إلى البيت . وكنت على أتم استعداد لينج كينيا إلى
الإنسان الأبيض مقابل حريتي الشخصية . إنني أكن الإعجاب لأناس من
أمثال كيهيكا . إنهم غاية في الصمود حتى الموت في سبيل الحقيقة .
وأما أنا فينقضي مثل ذلك الصمود . وذلك هو السبب الذي من أجله
كنا فخورين بك في المعتقل ، ولكننا استأنا منك وأبغضناك — كلنا
كنا على هذه الشاكلة . إن الناس الذين من أمثالك ، من الذين رفضوا
خيانة رجولتهم ، ضربوا لنا مثلاً عما يجب أن تكون عليه — ولكننا
كنا بحاجة إلى عظام حقيقية داخل أجسادنا . لقد كنا جبناء ..

— لم يكن ذلك جيئاً منكم . لو كنت مكانكم لفعلت ربما مثلكم .

— ولماذا لم تفعل مثلنا ؟

— تريد أن تعرف ، أليس كذلك ؟ قال ميوغو وقد نسي نفسه ،
ثم تلاشى الإغراء بعيداً .

« لم يكن لي بيت أعود إليه » قال بهدوء دونما انفعال . « أعتقد
أنني لم أكن أريد العودة » .

— « لا ، ليس الأمر كما تقول » . قال غيكونيو بعاصفة من
الاعجاب الأصيل . « إن لك قلباً عظيماً . وكان يجب أن يكون الناس
من أمثالك هم أول من يقطف ثمار الاستقلال . ولكن الآن ، من هم
أولئك الذين يركبون السيارات الفارحة ويستبدلون يوماً كأنهم
يستبدلون الثياب ؟ لأنهم من أولئك الناس الذين لم يكن لهم أي دور
في الحركة ، وهم أنفسهم من طينة الذين تسابقوا للاحتماء بالمدارس
والجامعات والإدارات . ولكنك تسمعهم في الاجتماعات السياسية
يصيحون : الاستقلال الذي حاربنا من أجله . فأين حاربوا ؟ لأنهم مجرد
صبيان بظران . لم يعرفوا المعاناة إلا بالكلام . كان يجب عليهم أن
يسمعوا نخطابك ذلك اليوم . كلهم بدون استثناء . حين كنت تتكلم
كنت أشعر بأنك تقرأ أفكاري » .

« أكان الانتظار عليك صعباً ؟ » سأله ميوغو بذهن شارد وكأنما

كان يريد تغيير موضوع الحديث . لم يكن غيكونيو بحاجة إلا لتشجيع قليل .

« نعم . لأنني كنت أظن بأنني لن أعود أبداً . وبالنسبة لخبرتي بمشاق الاعتقال كنت واثقاً بأنني إذا تمكنت من الخروج منه فأنني كنت سأقوم بشيء عظيم من حياتي مع مومبي » .
كان غيكونيو يتحدث عن عالم يتيسر فيه الحب والبهجة لأصحابه . فلماذا يتذمر الآن إذاً . تساءل ميوغو . إن لديه كل ما يحتاجه الإنسان كي يكون سعيداً : الثروة والجاه وأواصر توليه الاهتمام .
— إنك تحب زوجتك . علق ميوغو .

— لقد كنت أحبها . قال غيكونيو مؤكداً كل كلمة على نحو بطيء . كان الصمت يخيم على الكوخ . وكانت النار لاتزال تتوهج بينهما ، ونور السراج يتراقص على الجدران .

— « لقد كانت زوجتي تعني بالنسبة لي حياتي . حياتي كلها » ، أوضح غيكونيو محملاً في الموقف . « أتعلم » أكمل حديثه بتلك اللهجة الهادئة نفسها ، « أتعلم أنني حين عدت في خاتمة المطاف ، كان كل شيء قد تغير لحسن طالعي : المزارع والقرى والناس » .

— وهل تغيرت مومبي أيضاً ؟

— « نعم . لقد تغيرت هي أيضاً ، » قال غيكونيو بصوت خافت جداً يشبه الهمس . « أين هي الآن يا الهي من مومبي التي خلفتها ورائي ؟ »

الفصل السابع

كان نجد روينجي ، كما هي حاله اليوم ، ينحدر برفق من سفح عال من ناحية الغرب حتى يصل إلى سهل صغير قام فيه المركز التجاري لروينجي ، وكان هذا المركز عبارة عن مجموعة من الأبنية المسقوفة بالصفيح تتقابل على شكل صفيين مستقيمين . وأما الفراغ الذي بينهما فقد كان بمثابة سوق تحتشد فيه النساء من النجود المختلفة لبيع وشراء الأطعمة وتبادل النميعة . وحين اكتشف التجار الهنود هذه السوق بدأوا يزورونها دائماً بغية مساومة النساء حول الأسعار وقذفهن بكلمة بذيئة أو كلمتين تجعلهن يعرقن في الضحك ، ومن ثم يشترون الخضار والمؤن الأخرى ويشحنونها إلى يروني لبيعها إلى سكان المدينة بأسعار باهظة جداً . ولكن ثمة هنود آخرون استوطنوا في هذه المنطقة الهندية إن مسيرة بعض الدقائق من الحوانيت الافريقية توصلك إلى المنطقة الهندية حيث كانت الأبنية فيها تتخذ شكل صفيين مستقيمين أيضاً ، غير أنها مصنوعة من صفائح الحديد المفتول . وكان هؤلاء الهنود يبتاعون أيضاً البطاطا والبازلاء والبقول والذرة من سوق روينجي أثناء

الموسم كانوا يختزنونها في الأقسام الخلفية من حوانيتهم لكي يبيعوها في الأيام العصيبة فيما بعد .

كانت الحوانيت الافريقية تسمتع بمزية مثلى تتجلى بجمالها الحجرية أو الترابية على الرغم من سقوفها الصفيحية الصدئة . لقد زعم الناس بأن رونجي كانت أول مركز قامت فيه أمثال هذه الأبنية في كل منطقة الغيكويو . ولكن كان لرونجي مزايا أخرى أيضاً مما جعل الحية الحديدية تنسلّ أول ما تنسل على هذا السهل قبل أن تتسلق الجرف في طريقها إلى كيسومو و كامبالا . وبقيت ثاباي لزمان طويل موضع حسد غرها من النجود الأخرى التي لم يسعفها الحظ بنعمة الخط الحديدي . وحتى الناس في نجود تتاخم أرض الماساي كانوا يقومون بزيارتها من حين لآخر كي يتفرجوا فقط على القطار وهو ينفث الدخان ويلفظه أثناء مسيرته الصاخبة . كانت ثاباي فخوراً برونجي . وكان الناس يشعرون بأن هذا المركز يعود للنجلد برمته ، وحتى سكة الحديد والقطار كانا على ارتباط سري بثاباي — أفلم يكونوا هم أول من رحبوا بالسكة الحديدية والقطار في قلب البلاد ؟ وحيال تلك القصة التي بقيت رائجة إلى هذا اليوم في النجود الأخرى والتي روت كيف أن الرجال والنساء والأطفال هجروا ثاباي لمدة اسبوع كامل حينما أطلقت الحية الحديدية برأسها على الأرض — كما تنبأ بها أحد المتنبيين من قبيلة الغيكويو — ظلوا صامتين صمتاً مطبقاً . لقد هربوا إلى النجود المجاورة طلباً للمأوى ، كما تحكي القصة ، وما بدأوا يرجعون فرادى إليها — وذلك تم بمنتهى

الاحتراس — إلا بعد أن عاد الجواسيس المغامرون المزودون بالخراب يحملون الأنباء عن الحية بأنها وديعة جداً حتى إن الغرباء الحمر أنفسهم يلمسونها .

وفيما بعد أصبح رصيف المحطة يلتقى الشباب . فصاروا يجتمعون في بيوتهم للحديث ويذهبون مشاوير إلى الريف ، حتى إن بعضهم صار يؤم الكنيسة . بيد أن الشغل الشاغل لهم كان دائماً قطار يوم الأحد . فبعد ظهر الأحد كان ياتقي في محطة رونجي قطار المسافرين إلى كاهالا بقطار مومباسا . ولم يكن الناس يذهبون إلى هناك — كما يمكن أن يُظن — لاستقبال الأصدقاء القادمين من مومباسا أو كيوو أو كاهالا . بل كانوا يذهبون إلى هنالك لكي يقابل واحد منهم الآخر ولكي يخادته ولكي ينمّا معاً ولكي يتضحكا .

لطالما نشأت العلاقات الغرامية هناك ، وعدة زيجات بمارافقها من أفراح أو أتراح كانت لها أصولها على ذلك الرصيف .

— هل أنت اليوم ذاهب إلى القطار ؟

— آه . نعم .

— إياك أن تتركني خالفك أيها الصديق !

— إذا يجب أن تكوني على أتم استعداد في الموعد المحدد . إن مجرد ارتدائك للملابسك يستغرق منك اليوم بطوله .

— إن ادعائك هذا كذب واضح وضوح الشمس في رابعة النهار .
كانت الفتيات يذهبن إلى النهر يوم السبت لغسل ثيابهن . وكن
يخصصن صباح الأحد لكي الثياب وتسريح شعورهن . وعند وقت
الغداء يصبحن في أتم استعداد للسير أو للهولة إلى المحطة . بينما لم
يكن الرجال أمثال هذه الطقوس . إذ كانوا دائماً على أهبة الاستعداد
لأن معظمهم كان يقضي وقته في حرايت رونجي التي لا تبعد عن المحطة
أكثر من مسافة قصيرة .

لقد أصبح القطار هاجساً : إذا فاتتك الفرصة فإن الغم ينشبت
بتلايب قلبك طيلة الأسبوع . وتصيح في غاية الشوق لقدم القطار
التالي . ثم يأتي الأحد وتمضي إلى هناك في الموعد المحدد . وسرعان
ما يتبدد الغم .

كان الناس يذهبون بعد زيارة المحطة لممارسة الرقص في غابة
كينني التي تطل على وادي ريفت . وكان عازفو الغيتار يحتلون مرتبة
الصدارة في هذه التجمعات إذ كان يحيط بهم الفتيات الجميلات للتعبير
بلحظهن عن ثنائهن . وكان الرجال يطلبون الرقصات المأجورة .
وحين يشترى الفرد رقصة ما كان عازف الغيتار يعزف له وحده
هتافاً على اسمه مادحاً إياه بأنه من أشرف الناس . وكان الرجل يرقص وفق
الإيقاع الموسيقي إما وحيداً وإما بصحبة أصدقائه الذين يدعوه لمشاركتهم
فيما يبقى الآخرون مجرد متفرجين ولا يجوز لواحد منهم دخول حلبة

الرقص . وأما التقاليد التي كانت تتحكم بتلك الرقصات في الغابة فقد كانت مفهومة تماماً .

وأحياناً كانت تنتهي هذه الرقصات إلى مشاجرات . وهذا أيضاً أمر معروف جيداً ولذلك كان يأتي الرجال إليها وهم على أهبة الاستعداد لأي طارئ ، كما أنهم كانوا يستلرجون الشر من خلال بعض الكلمات البذيئة أو الأغاني المهينة . وكان الرجال ينظمون أنفسهم ويتكثرون على شكل جماعات طبقاً للنجود التي جاؤوا منها . وكانت ثاباي أكثر شهرة من غيرها لأن رجالها كانوا يتغلبون على المجموعات الأخرى ويسلبونهم صوبيحاتهم . وكانت الفتيات يحبين رجال ثاباي ولذلك لم يكن سبيهن ينطوي على مغامرة حقيقية .

ولكن الأمور على الرصيف كانت مختلفة . فهناك لم يكن يخطر على بال إنسان إثارة عراك ما . وكان الرجل الذي يضربك في أحد سابق ويسلب منك خليلتك سرعان ما يصبح صاحباً لك ، إذ كنتما تتحادثان وتتضحكان معاً . ولكنه كان يدرك بأن الفرصة إذا واثتلك فيما بعد في الغابة فقد تطعنه وتسابه خليلته .

« قلما تغيب عن قطار » تذكر الآن غيكونيو — بعد مضي سنوات — بعد أن أضحي ذلك ضرباً من أساطير الأولين . « كنت أحب صحبة الرجال والنساء » .

« ومع ذلك فان ذلك اليوم الذي تغيب فيه عن القطار كان أبهج يوم في حياتي » قال إلى ميوغو .

ثم اشتغل غيكونيو نجاراً في ثاباي . وعلى الرغم من أنه كان وافداً على هذا النجد فانه ذاب وأمه في ذلك المجتمع وأعرافه اليومية . لقد جاء إلى ثاباي طفلاً مقمّطاً على ظهر أمه . من منطقة ألبورغن في مقاطعة وادي ريفت حيث كان يعمل أبوه . واروهيو . مربياً للأغنام في المزارع الأوروبية . وبما أن واروهيو كان رجلاً مجتهداً فانه وجد نفسه بعد مضي فترة قصيره موضع إعجاب عدة نساء . فحصل على عرائس جديدة شاكياً من أن فخاوي الزوجة الأولى لم يعودا يوفران له الدفء . ولذلك فقد أخذ يضربها آملاً أن يبعدها الضرب عنه ولكن وانغري تشبثت بالبقاء . وبالنتيجة أمرها واروهيو بمغادرة بيته وابتلى الأم وابنها بحياة التشرد الدائم على أرض الله الواسعة . ولكن تشرد وانغري لم يدم طويلاً لأنها لاقت الترحيب بقسومها إلى أرض الغيكونيو . « يتصور واروهيو بأنني سأموت لأنني فقيرة وليس بحوزتي . أقبات به » حدثت نفسها في أحد الأيام وهي جالسة فوق حجر بالقرب من محطة ألبورغن . « ولكن ليس من بيت يضم طفلاً ذكراً إلا يأكل رأس تيس من التيوس في المستقبل » قالت وضمت الطفل إلى صدرها . وحين استقلت القطار الذي نقلها إلى ثاباي كانت في الواقع تقلد بتحدّ ضمني في وجه واروهيو .

أرسلت وانغري ابنها إلى المدرسة . ولكن غيكونيو لم يمكث هناك طويلاً لأن الأم لم يكن بحوزتها مايكفي من النقود لدفع الأقساط المدرسية .

ولكنه لحسن حفظه تعلم في المدرسة شيئاً من النجارة جعله يعقد عزمه على استغلال هذه المعرفة لكسب معيشته منها .

لقد كان يعشق النجارة .

فحينما كان يمسك بالمسحج بغية صقل قطعة من الخشب كان هذا العمل يدخل في روع ذلك الشاب رعشة من الخوف والدهشة . كانت رائحة الخشب تسحره . وسرعان ما تمكنت في حواسه القدرة على التمييز الدقيق بين أنواع الأخشاب حتى صار يحدد نوع الخشب من مجرد شمه . وهذا لا يعني أن النجار الشاب كان يستهين بمهنته أمام الآخرين ، بل كان يقوم في الواقع بممارسة بعض الطقوس التمثيلية التي كانت تؤثر تأثيرات مختلفة على أصحاب العلاقة . كانت التمثيلية تجري على النحو التالي :

حينما كانت تأتيه امرأة بقطعة من الخشب لمعرفة نوعها كان النجار يأخذها منها ويلقي عليها نظرة خاطفة ثم يطوح بها فوق كومة من الأخشاب . تصنعاً اللامبالاة . ثم يتابع عمله السابق بينما تقف تلك المرأة هناك معجبة بحركات عضلاته . وبعد لحظة من الزمن يتناول قطعة الخشب تلك ويثبت طرفها الآخر على الطاولة . يغمض عينه اليسرى ويحلق إلى قطعة الخشب بعينه اليمنى وهي شبه مغمضة . وبعدئذ يغمض عينه اليمنى ويعيد حركاته السابقة بعينه اليسرى ، وحالما ينتهي من هذا يقرع عليها بضربات سريعة ايقاعية بعقدة سبائه وكأنه يطرد عنها

الأرواح الخبيثة . ويتناول المطرقة بعد ذلك فيضرب ويصني مرات عديدة . ثم يتشمّم الخشب بكل عناية (أي على نحو مهني) ويعيدها إلى المرأة ليتابع عمله الآخر .

« ما نوع هذا الخشب ؟ هل هو خشب البودو ؟ » تتجاسر المرأة وتغامر بسؤاله وقد سحرتها الشمشمات والتوقفات المهنية .

« بودو ؟ » يقول تتممةً « هاتها » . يتشمّمها مرة ثانية ويقلب قطعة الخشب رويداً رويداً وهو بهز رأسه هزّ من عرف نوع الخشب . ويقضي بعدئذ عدة دقائق يشرح فيها للمرأة لماذا ليست هذه القطعة من خشب السودو .

« إنها من خشب الكافور . هل صادف وسمعت به في حياتك ؟ إنه ينمو بشكل رئيسي على الأراضي المرتفعة في أبرديرز وحول جبل كيتيا . إنه خشب في غاية الجودة . وإلا فلماذا يختص الناس البيض أنفسهم بتلك الأراضي ؟ » يقول النجار بحكمة رزينة .

كان مشغل غيكو نيو لا يعاد طاولته صغيرة مثبتة إلى جدار كونه . وكان من عادة وانغري أن تأتي دائماً حوالي مغيب الشمس إلى المشغل لتتقّب بين نشارة الخشب عن قطعة أو قطعتين من الأخشاب التي أهملها النجار لإشعالها في الموقد .

.. « أحتاجه أنت لهذه القطعة ؟ » تسأل ابنها باسمه .

— «آه . خلي تلك يأماء . ليس بوسحك رؤية قطعة من الخشب
إلا وتريدن إحراقها . لأنها ذات قيمة نقدية طبعاً . ولكن أنتى للنساء
إدراك مثل هذا الأمر » .

— « وما رأيك بهذه ؟ » لم تكن وانغري من ذلك الصنف من
النساء اللواتي يتراجعن بسهولة . كانت تحب أن تسمع دائماً ابنها يوجه
عنايه لها .

— حسناً خايميها . ولكن حذار أن تعودى .

وتعود مساء اليوم التالي إلى هناك . فلتلقط منشراً أو مطرقة وتمعن
النظر فيها وكأنها شيء عجيب ، وعندها لن يكون بوسع غيكونيو
إلا القهقهة .

— أتصور أن باءكانك أن تصبحي نجاراً ماهراً يأماء .
مهما قلنا عنهم فان هؤلاء الناس قوم أذكىاء فعلاً . إذ كيف
فكروا بابتكار مثل هذه الآلات التي يمكن أن تقطع أي شيء ؟ كانت
وانغري تشير دائماً إلى الناس البيض بعبارة هؤلاء الناس .

— اذهبي واطبخي . ليست هذه الأشياء من اختصاص النساء .

— أحتاج هذه القطعة التي هنا ؟

— أف منك يأماء !

كان يطمح غيكونيو سرّاً إلى امتلاك قطعة من الأرض ليوطن أمه فيها . ولكن بلوغ ذلك الهدف كان يتطلب النقود . وكان طموحه لإحراز الثروة يزداد كلما شاهد أو فكر بموهبي . تلك الفتاة التي كان صوتها ووجهها يثيران في قلبه الخفقان المسعور . ولكنه كان يعتقد بأن قلبه يخفق عبثاً . وبالتأكيد لم تكن موهبي ، وهي من أجمل فتيات النجد . لتتنازل أبداً وتجلب له قرعة مليئة بالماء القراح وتقول له : أرجوك أن تشرب هذا كرمي لي . ومع ذلك صبر وأخاف يتلمس طريقه حنراً . كان يشاهد موهبي تخطر على دروب المنطقة بين أزهار البازلاء وحببات الفول الأخضر وشجيرات النرة ، فبدأ يشجع نفسه كي يفصح لها عن رغبته . ولكن الشجاعة كانت تخونه فما أن يصادفها حتى يلقي عليها التحية ويمضي في طريقه مخدولاً .

مبوغوا ، والد موهبي ، كان شيخاً مشهوراً في النجد . كان منزله يتألف من ثلاثة أكواخ وعنبرين لخزن مخاصيل الموسم . وكان حول المنزل - دغل عبارة عن كتلة كثيفة من النباتات المتعرشة والعليق وأشجار الزعرور والقراص ونباتات سائكة أخرى - يشكل سياجاً طبيعياً . كانت ثاباي القديمة في الواقع عبارة عن مجموعة من الأكواخ المسقوفة بالقش والمتناثرة هنا وهناك على النجد . وأما الأسيجة المحيطة بالأكواخ فما كان يتناولها التشنيد إلا لماماً وبذلك أصبحت موطناً للحيوانات المفترسة لإقامة أوجارها فيها . لقد بلغ مبوغوا مكانته في القرية من خلال منجزاته كمحارب وكمزارع ، إن مجرد ذكر

اسمه ، هكذا يقال ، كان ييث الذعر في أوساط قبائل الخصوم . وكانت تلك الأيام هي الأيام التي مرت على البلاد قبل أن يضع الإنسان الأبيض حداً للمنازعات القبلية . ولكن صيته بقي ذائعاً حتى بعد أيام السلم كلمته ، في المنازعات الواردة إلى مجلس الكهول لتسويتها ، كان لها وزنها دائماً . زوجته الوحيدة . وانجيكو . كانت دائماً تخلع عليه لقب المحارب الشاب . كانت امرأة رقيقة الجسم على نقيض محاربيها الغليظ الفخذ . كان صوتها مشحوراً دائماً بالدفع واللفظ . وكان صوتها هذا (وقد كانت تغني في حفلات الرقص أيام ريعان شبابها) أول شيء سحر مبوغوا . ومن بين ابنيهما الاثنين - كيهيكا و كاريوكي - كانت وانغري تحب كاريوكي لأنه الأصغر بينهما ولأنه آخر ذكر ولدته . بينما كان مبوغوا سرّاً معجباً بكيهيكا باعتباره الابن الذي قد يسير على خطوات أبيه شجاعة ، وصلفاً محكم التدبير .

كاريوكي كان أيضاً معجباً بكيهيكا ويكنّ له الاحترام . كان هذا الصبي يتوق لقدم ذلك اليوم الذي يرتقي فيه مربية الرجال ويصبح حراً كي يتسنى له لمس النهود النافرة لأولئك الفتيات الناضجات اللواتي كن يأتين لزيارة بيتهم ليلاً . التحق كاريوكي بالمدرسة في مانغوا وهي من أقدم المدارس المستقلة في منطقة الغيكويو . كان يحب الكتب ولذلك فقد كان في الأمسيات يقرأ بمساعة النور المنبعث من نار الحطب . ولكن أنسى له أن يستوعب ما يقرأ في الوقت الذي كان يتسلى فيه الشباب والشابات من أتراب أخيه ويروون النكات والحكايا

البديئة ؟ كان من المفروض فيه ألا يسمع أو يرى شيئاً . « إنك سوف تطرد من هذا البيت أنت يا كيهي » كان يهدده الرجال حين يضبطونه ضاحكاً . وغالباً ما كان غيكونيو يجلب له الحلوى وأشياء أخرى مما دفع الصبي لمحبة النجار . وكان من عادة غيكونيو أن يروي القصص المضحكة التي كان يستمتع بها كاريوكي بشكل حقيقي . ولكن على مر الشهور والسنين أصبح يزداد صمت غيكونيو أثناء حضور مومي ويسك عن الكلام نهائياً . لقد كان كارانجا في الواقع هو الإنسان الذي يحتل مركز الصدارة ويلقي بالنساء في نوبات من الضحك البذيء . وكانت لكارانجا طريقة في سرد الروايات والحكايا تجعله يبرز كبطل حتى لو أحجم عن الكلام . ولذلك أصبح كاريوكي يعجب به لشجاعته وحنكته وتعدد مواهبه .

لقد كانت البيوت التي تقطنها الفتيات الحميلات . من مثل بيت مومي ، مؤثلاً لعدد كبير من الشباب والشابات . وكان على وانجيكو أن تحضر وجبات الطعام باستمرار وبانتظام . إن البيت الذي يعج بالأطفال لا يعيش الوحدة بتاتاً ، كانت تقول دائماً . وكانت بعد وصول الرجال تحتلق لنفسها الأعذار وتنسل من الكوخ بكل ثكم قائلة لمومي : « قدمي لهم الطعام » .

وغالباً في أيام الآحاد كانت مومي تزور رصيف المحطة . وكان القطار الصاخب يهزها طرباً حتى إنها كانت تتمنى لو أنها القطار نفسه

في بعض الأحيان . ولكنها لم تكن تشارك البقية رقصات الغابة ، بل تعود مباشرة إلى البيت ، بعد مشاهدة القطار ، بصحبة بنت أو بنتين لمزاولة الطبخ ونفش الشعر وإعادة تسريحه . كان يرين على عينيها السوداوين نظرة حاملة تتوق لشيء ما كان بمقدور القرية توفيره لها . وكانت تستلقي تحت أشعة الشمس وهي تتقد صباة لحياة تزخر بالعشق والبطولة والمعاناة والشهادة . كانت في ميعة الصبا . وكانت مشحونة بقبصص تتحدى فيها نساء الغيكويو رعب الغابة لإنقاذ الناس ، وبقبصص عن الفتيات الجميلات اللواتي يقدمن قرابين للآلهة في صلوات الاستسقاء . وغالباً ما كانت ترى نفسها مثل (إستر) في كتاب « العهد القديم » : ولذلك فقد كانت تجد متعة عارمة في تلك اللحظة التي تجيب فيها (إستر) أخبراً على سؤال الملك أهازيورا وتشبر على نحو مفاجيء باصبع الاتهام إلى هامان وهي تقول : الخصم والعدو هو هامان الشرير .

كانت تستمتع بذلك الإعجاب الذي تستثبره في عيون الرجال . وكانت حين تضحك تميل برأسها إلى الخلف ويتلأأ جبينها تحت الضوء المنبعث من النار . في مثل هذا الوقت لم يكن غيكوئيو يثق بنفسه ويتجاسر على الحديث . لقد قيل بأن ريتشارد ، ابن القس جاكسون ، قد تقدم لخطبة مومي . كان جاكسون رئيس الأساقفة في كيهيننجو . وسرت إشاعة تقول بأن ريتشارد الذي كان وقتها في السنة الأخيرة في مدرسة سيرياما الثانوية ، سيذهب فيما بعد إلى أوغندا أو إلى انكلترا

لاستكمال تحصيله العلمي . ولكن مومي رفضت العرض دون الإساءة إلى كبريائه . ولذلك بقيا صديقين حميمين . وغالباً ماكان ريتشارد ينسل من بيته ليلاً ويذهب لرؤية مومي في ثاباي . ولذلك فقد كان غيكونيو يسائل نفسه : إذا كانت قد رفضت مثل هذا الرجل فأني حظ لي أنا بالنجاح ؟

فأغرق نفسه في العمل . كان يصنع الكراسي لأهالي ثاباي ويصلح لهم خزائهم ويتبث لأخوانهم الأبواب والنوافذ الجديدة . ثمة امرأة جلبت له كرسيّاً مكسوراً ، كانت تريد تثبيت قائمة جديدة له ، فأمعن النظر بالكرسي وهو يصفر لحناً شعبياً .

— « ثلاثة شلنات » قال لها .

— ماذا ، ثلاثة شلنات ، ياوالدى ؟

— لايمكننا إصلاحها بلا مقابل كما تعلمين .

— إنني بعمر أملك يابني . يكفيك شلن واحد .

— « لك ماتريدين » قال لها وهو يعلم بأنها قد لاتدفع له حتى الشلن الواحد ..

وتمضي المرأة وهي تعلم بأنه سيصلح الكرسي في النهاية (وقد يستغرق ذلك منه شهرين أو ثلاثة) وأن من المحتمل ألا تدفع له أكثر

من نصف الأجرة المتفق عليها . وحتى لو دفعت له فسيكون المبلغ تقسيماً على عدة شهور .

— « على هذا المنوال سأموت فقيراً » كان يقول لأمه شاكياً .

— « لأهمية لذلك » كانت وانغري تقول لابنها . « أنت تعلم بأنهم يدفعون لك لو توفرت لهم النقود » .

وفي أحد الأيام وقد أخذ منه التعب أي مأخذ أخرج غيتاره وبدأ يعزف عليه . لقد قضى الصباح والعصر يشغل في أثاث لعروسين جديدين . لقد وعده الرحل بأن يدفع له في نهاية الشهر . كان غيكونيو يحب الغيتار . كان غيتاراً عتيقاً ومع ذلك فقد دفع ثمنه مبلغاً كبيراً من المال لتاجر هندي .

طلق يعزف بهلواء وهو يغني بينه وبين نفسه محاولاً عزف لحن جديد . وسرعان ما استغرق في غنائه وعزفه وبدأ التعب يتلاشى من عضلاته . كانت الشمس على وشك المغيب وكانت الظلال المتطاولة للأشجار والبيوت قد بدأت تختلط بعضها ببعض رويداً رويداً .

سمع خشخشة النشارة فأجفل غيكونيو وشعر ببعض التحرج والاثارة لدى رؤية مومي : كانت تطوي صوفها وصنارتها تحت إبطها .

— « لماذا توقفت ؟ » قالت له باسمه .

— « آه ، ما كنت أريد لك سماع صوتي ، صوت النجار ، وتشاهدي يديّ تعيثان فساداً في الأوتار والأغنية » .

— أهذا هو السبب الذي كان يمنعك من النطق حين كنت تزور بيتنا ؟ والتمع في عينيها بريق ماكر .

— أما كنت أنطق ؟

— أنت الذي يجب أن يعرف وعلى كل حال فقد أمضيت بعض الوقت واقفة هناك أستمع إلى غنائك وعزفك . كان أداء جيد .

— صوتي أم يدي ؟

— كلاهما .

— وكيف تعرفين إن كان عزفي جيداً ؟ رديئاً ؟ إنك لاتأتين بتاتاً إلى الرقص يوم الأحد .

— آه صحيح أنني لأذهب قط . ولكن هل تعتقد بأن كل الرجال بانانييتك ؟ فكأرانجا كثيراً مايعزف لي حين أكون وحيدة في البيت . أجلس أنا أحوك الصوف وهو يعزف إنه عازف ماهر .

— « فعلاً إنه عازف ماهر » ، وافق غبكونيو باقتضاب ، لم تلاحظ مومي أن غبكونيو كان يبالغ شيئاً ما في حاقومه لأن مزاجها في تلك اللحظة كان قد تغير من المزمل إلى الجلد .

— « لكنك عزفت عزفاً ماهراً أيضاً — وما كنت أعلم أن بمقدورك

العزف بهذه المهارة — لقد كان عزفاً مثيراً ، ربما لأنك كنت تعزف لنفسك » قالت بصراحة أدخلت البهجة على نفس غيكونيو .

— ربما يتسنى لي ذات مرة أن أعزف لك .

— « اعزف الآن ، أرجو أن تعزف لي » ، قالت بلهفة . فاعتبر غيكونيو ذلك منها تحدياً وخشي أن تخونه عزيمته .

— « إذاً يجب عليك أن تغني أثناء عزفي . إن لك صوتاً رخيماً » قال وتناول آلة العزف .

ولكنه اكتشف أن أصابعه ترتعش . فداعب الأوتار قليلاً محاولاً تثبيت نفسه . انتظرت مومي إلى أن يعزف لها اللحن . وحين عادت الثقة إلى نفس غيكونيو شعر بأن ثاباي كلها قد أصبحت طوع بئانه . أحس بقشعريرة تسري في ظهره حيال صوت مومي . توفزت أصابعه وقلبه حتى الأوج . وهكذا بدأ عزفه بتلمس طريقه ببطء وثقة في الظلمة باتجاه مومي . فعزف وابتهل وهو يلرك أن قلبه هو الذي يمدّ أصابعه بأسباب القوة . شعر بالسرور بل بالغبطة .

كان صوت مومي يفيض جوى وهي تترنم به وفق لإيقاع الأوتار . وشعرت بأن المشغل وثاباي والأرض والسماء قد أحست بالتحامهما معاً . وفجأة بدأ قلبها بالوجيب ، لقد كانت الآن تعوم فوق أمواج غريبة : وحيدة تتحدى الرياح والأمطار ، وحيدة تكابد الجوع

والعطش في صحراء ، وحيدة تصارع الشياطين الغريبة في الغابة سكي
تزف البشرى إلى شعبها .

انتهت الأغنية وشعر غيكونيو بأنه يكاد يتحسّس هدوء الشفق العميق
— لماذا تبدو المنطقة على هذه السكينة والطمأنينة ، قالت .

— إنها دائماً هكذا قبيل حلول الظلام .

— أندرني بأنني شعرت وكأنني (روت) وهي تجمع السنابل
لنفسها في الحقل .

— أعتقد بأنك ستدخلين الجنة . أنت دائماً تستشهدين بالإنجيل .

— « لاتسخر » تابعت حديثها بلهجة جادة . « هل تعتقد بأنها
ستبقى دائماً هكذا ، أعني الأرض ؟ »

— « لأعلم يامومي » . أجابها وقد استرد منها الوقار . « ألم تسمعي
الأغنية الجديدة ؟ »

— أبة أغنية . هاتها .

— أنت تعرفينها أيضاً ، أعتقد بأن كيهيكا كان أول من جلبها
إلى هنا وافتر ثغر مومي عن ابتسامة عذبة انتهكت بها الوقار .
— ماخطبك ؟

— آه منك أيها النجار ، أيها النجار . إذا أنت تعلم سبب مجيئي إلى هنا ؟

— لا ، لأعلم . أجابها مرتبكاً .

— ولكنك هأنت تغني لي ، وهاهم الغيكويو يقولون لنا بأن الحرق في المقبض .

وحين وصل الحديت إلى هذه الزاوية برزت وانغري على المسرح عائدة من النهر الذي ذهبت إليه بلحلب الماء . فطفح وجهها بالبشر لرؤية مومي .

— ليتك ولدت بنتاً بدلاً من هذا الابن الكسول « مازحتها مومي .

— « يال سوء حظي » أجابتها وانغري ضاحكة . « ولكن ليس لذلك أهمية لأن متطلبات المرأة العجوز قليلة جداً . لقد بلغ الكسل بهذا الرجل أي مبلغ حتى إنه يضمن بالماء لغسل نفسه أو ثيابه . »

— إنك تجورين عليّ يا أماه ، ولن تلبث أحاديثك أن تنفر كل الفتيات مني .

— أتريدين كوباً من الشاي ؟

— « لاعليك » عاجلتها بالإجابة مومي . « عليّ أن أكون في البيت قبل حلول الظلام . »

والتفتت إلى سلة صغيرة كانت تحملها وأخرجت منها ساطوراً كبيراً .

— « إن هذا الساطور بحاجة لمقبض خشبي لأن مقبضه القديم
احترق خطأ بالنار . وتريد أُمي الإسراع في إنجازه لأنه الساطور الوحيد
الذي بحوزتها » .

تناول غيكونيو الساطور منها وأمعن النظر فيه .

— كم تريد أجراً عنه ؟ سألته مومي .

— لا يحزننك ذلك . إنه لا يكلف شيئاً يذكر .

— ولكنك لاتعمل مجاناً .

— « بيد أنني لست عطاراً هندياً » رد عليها غاضباً .

دخل المشغل كارانجا وكيهيك وغيثوغو ومعهم رجل رابع .
لقد كان مشغل غيكونيو يتحول إلى مكان آخر حين كان الشباب
يجتمعون فيه بقصد النسيمة . فنادى كارانجا وانغري :

— يأم الرجال ، هاقد جئنا ، حضّري لنا الشاي .

— « رويدكم » وصلهم صوت وانغري من الكوخ : « إن الماء
على النار » .

مومي التي كانت تتحدث مع غيثوغو بواسطة إشارات اليدين
قالت بأنها ماضية إلى البيت . فاحتج عليها الرجال بشكل جماعي ،
ولكنها أصرت على الإنصراف .

— « لاضير عليك في ذلك . سأخرج معك لتوديعك » عرض عليها كارانجا بكل شهامة .

— « هيا بنا أيها المخلص » قالت مومي بصوت رخيم ، وسرعان ما اختفى كارانجا ومومي في الظلام الدامس .

— « هيا ندخل الكوخ » قال غيكونيو للآخرين بصوت واهن إلى حد غريب . كان يحسد كارانجا على عدم تخرجه وعلى ثقته بنفسه في حضرة النساء . وإن مجرد فكرة عزف كارانجا الفيتار إلى مومي بدأت تهجس في ذهنه وتضايقه إلى حد بغيض .

حين عاد كارانجا لاحظ الآخرون هدوءه وشرود ذهنه .
« مابك أيها الرجل » تلذذ الرجل الجالس حده بازعاجه « أوقعت صريع تلك الفتاة ؟ » فضحك الجميع باستثناء غيكونيو . حتى كارانجا نفسه ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة .

باكرآ في صبيحة اليوم التالي بدأ غيكونيو عمله في المقبض . شحنت من الانفعال سرت في أوصاله وجعلت قلبه يرقص طرباً بعد أن وقع اختياره على قطعة خشبية لصنع المقبض منها . كان مجرد لمس الخشب يحثه دائماً لخلق شيء جديد . ولكنه شعر الآن وكأن حياته كلها تتوقف على تكريس نفسه نهائياً للنجاح في إنجاز العمل الحالي . كانت يده ثابتتين . فدفع المسحج (الذي كان قد اشتراه مؤخراً) على السطح الخشن مقشراً بذلك موجات وموجات من النشارة . لقد تراءت له

مشية مومي ، وإيماعاتها بالذات ، في ملمس المسجح وحركته . وصوتها كان حوله في الهواء وهو ينحني ليرسم الساطور على القطعة الخشبية . لهاثها كان يمدّه بأسباب القوة .

والآن استنمر تلك القوة على قطعة خشب البودر . فنحت بالإزميل وجرف به الزوائد لكي يصنع من الباقي قطعتين متماثلتين بشكل دقيق . لقد بذل جهوداً خاصة لحفر الثقوب . وكانت فتائل الخشب تتسلل على طول الحفر الدائرية وتطرح نفسها على الطاولة بعيداً عن حدّ المثقاب . وأخيراً أصبحت الثقوب جاهزة . وكانت الخطوة التالية تتمثل بقطع ثلاثة مسامير لتثبيت القطعتين الخشبيتين إلى الساطور . وحين طرّق الرؤوس الرفيعة للمسامير على شكل قبعات ، غمرته موجة أخرى من العزيمة . قوة جديدة حلت يمينه فضرب بالمطرقة وأنزلها إلى تحت . رفعها إلى فوق وأنزلها إلى تحت من جديد . شعر بأنه أصبح حرّاً ، وشعر بأن ثاباي والعالم بأسره وكل شيء قد أصبح طوع بنانه . وعلى حين غرة تحولت موجة القوة إلى نشوة ، إلى جذل . ووجدت السكينة سيلاً إلى نفسه . وشعر بطمأنينة قدسية : إنه يعشق الدنيا بما فيها .

خطر له أن يأخذ الساطور في صبيحة يوم الأحد . حان الوقت وبدأت المواجهات تعمل نهشاً في سكينة نفسه . هاقداً بدأ يجد عيوباً في المقبض : لقد قصّر الصقل والثوابت عن الصورة التي راودت ذهنه عنهما . بدا المقبض عادياً جداً ومن ذلك النوع الذي يستطيع أي نجار

أن يصنع مثله . وماذا بشأن الخشب أيضاً ؟ إنه سوف يقرّح يدي أية امرأة بعد استعمالها له بدقائق معدودة . تحول مزاجه من ثم إلى التحدي .
مأهمية رضى مومي عن المقبض أو عدمه ؟ وإذا لم تتقبل أعطيته
الخرقاء هذه فلتقم هي نفسها بعمل النجار ، أو فلتطلب من كارانجا
مساعدها في إنجاز ذلك . ولكن ، على أية حال ، قد لا تكون في البيت .
نعم . لقد كان يفضل ألا يجدها هناك . ولكنه حالما وصل إلى الممر
الضيق الذي يفضي إلى ساحة الكوخ من خلال السياج ، بدأ يساوره
القلق من أن تكون خارج البيت . إن عمله برمته لن يكون كاملاً
بمعزل عن مشاركتها هي .

وجدتها تقعد كرسياً ذا أربع قوائم خارج كوخ أمها . لبس
غيكونيو لبوس اللامبالاة .

— « هل والدتك داخل الكوخ ؟ » سألها كيفما اتفق ، يده
متلهفتان لعرض الساطور على مومي .

— « وما شأنك بأمي ؟ ألا تدري بأن لها زوجاً ؟ » عيناها كانتا
تبسمان إليه . ولكن غيكونيو لم يبتسم لها بالمقابل ، وبصعوبة حافظ
على قدر أكبر من الرصانة .

— « اجلس » قالت ووقفت لتقدم له مقعدها . ثم اجت الساطور
فاندفعت إلى الأمام وأخذته من يديه . وقفت لحظة هناك تبدي الحزن .

بالمقبض ، وفجأة نفرت باتجاه الكوخ صائحة : « أماه . يأماه ! تعالي وتفرجي » .

دفع عذب فاض في سريرة غيكونيو . أوجعته البهجة . لقد أنجز عمله . وكرمي لابتسامة مومي ، كرمي لنظرة إعجاب منها ، فلسوف يستمر بصنع الكراسي والطاولات والخزائن ، ولسوف يرمم السقوف الواكفة والبيوت المتداعية ، ولسوف يصلح الأبواب والنوافذ في كل ثاباي دون أجره سنت واحد . إنه لن يهتم بجمع النقود ، ولسوف يبقى فقيراً ولكنه سينال مومي .

كان لايزال واقفاً ، أسير نشوة بالغة بقراراته السرية حينما خرجت مومي بكرسي آخر ودعته ثانية للجلوس .

— « لأنني في عجلة من أمري » احتج دون قناعة حقيقية .

— أذهب أنت إلى عرس ؟ .

— « لا . لن أذهب إلى عرس إلا عرسك » قال ضاحكاً ، ولكنه كف عن الضحك حين تذكر كارانجا وجلس دون إضافة كلمة أخرى .

— « ولم العجلة ؟ إننا لن نأكلك » قالت وهي تجاهد لشحن صوتها بمسحة من الغضب مما أدخل البهجة على قلب غيكونيو .

راقب مومي وهي تصفف شعرها : ألا ليته يستطيع لمسه . ولمجرد ورود هذه الفكرة على ذهنه سرى الدم إلى رؤوس أصابعه . كانت

تسند مرآة صغيرة بين ركبتيها ، وتلتقي يداها المشنيتان فوق رأسها لتعقص أصابعهما شعرها . ومن حين إلى حين كانت ترمقه بنظرة خاطفة وتبتسم . فاستوعب غيكونيو هذا كله بابتهاج كبير .

وفجأة ظهر على المسرح كيهيكا وكارانجا . لكم أبغض غيكونيو حضورهما لأنهما سيفسدان عليه احتكاره لاهتمامات مومي : فلماذا ظهرا وفي تلك اللحظة بالذات ؟ مدعنا غيكونيو إلى ماليس منه بدّ شارك في الحديث الذي أفضى بشكل لامفر منه إلى السياسة والعاصفة المرتقبة في البلاد .

لقد بدأ اهتمام كيهيكا بالسياسة منذ نعومة أظفاره حين كان يقعي كصي صغير يستمع إلى الروايات التي تتحدث عن كيفية سلب الناس السود أرضهم . كان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية ، أي ، قبل خضوع الأفريقيين للتجنيد الإجباري ولإلزامهم بالحرب إلى جانب بريطانيا ضد هتلر في حرب لم تكن لهم بها ناقة أو جمل . كان واروي وقتها يبحث عن أي مستمع له ليعيد على سامعه أفعال وإياكي وغيره من المحاربين الذين ، بحلول عام ١٩٠٠ ، قتلوا في صراعهم مع الإنسان الأبيض لطرده من البلاد . كما كان يتحدث عن هاري الشاب وعن المصير الذي آلت إليه مسيرة عام ١٩٢٣ ، وعن موثيريغو ومدارس التبشير التي حظرت الختان لكي يتسنى لها أن تأكل — كالجراد — جمود مجتمع الغيكويو وفروعه . وبدأ قلب كيهيكا — وقد كان حينئذ

إنساناً مجهولاً لدى أولئك الناس الذين حوله — يقسو على « هؤلاء الناس » ، وقبل زمن طويل من رؤيته لوجه أبيض . عاد الجنود من الحرب وتحدثوا عما شاهدوه في بورما ومصر وفلسطين والهند . ألم يكن ذلك القديس ، المهاتما غاندي ، يقود الشعب الهندي ضد الحكم البريطاني ؟ كان كيهيكا ينهل من منهل هذه الحكايات ؛ وأما رواية البقية فقد كانت من نصيب خياله ومشاهداته اليومية . منذ أن شب كيهيكا عن الطوق بدأت تراوده أحلام عن نفسه ، قديساً يقود شعب الغيكويو إلى الحرية والمنعة .

أرسل كيهيكا أول ما أرسل إلى مدرسة ماهيغا ، مدرسة الكنيسة الاسكتلندية التي لا تبعد كثيراً عن ثاباي ، وذلك بناء على نصيحة الأب المحترم جاكسون كيغوندو . كان جاكسون ، كما كان يدعى تحبباً ، أحد أصدقاء مبولغوا ، وكان يحب زيارة الناس في بيوتهم لكي يدرس كلمة أو كلمتين — على هامش أحاديث العشيات — حول المسيح . كان كلما جاء إلى ثاباي يقوم بزيارة مبولغوا ويتلو عليه المواعظ عن المعتقدات المسيحية . « إن انغاي ، إله الغيكويو ، هو نفسه الإله الواحد الذي أرسل المسيح ، الابن ، للمجيء وبدء المسيرة من الظلمة إلى النور » . كان جاكسون يسوق الحجج في محاولة منه أن يبين أن المعتقدات المسيحية لها جلورها في نفس التقاليد التي يجلبها الغيكويو . كان مبولغوا يصغي بانتباه ليقوم بعد ذلك إلى إحدى زوايا كونه ويخرج وعاء من القطين مليئاً بالبيرة ويقدمه إلى جاكسون .

« والآآن بعد اختتام حديثنا » كان يقول « ليس علينا إلا الغوص في ماء البشر الأقدمين كي نشفي به غليلنا » .

كان جاكسون يضحك من هذا الاغراء ويخرج مصمماً على العودة ثانية والمثابرة على ممارسة لعبة الكلمات والتصرفات التي لانهاية لها . كان صغيراً ونحيلاً ، أعرج الوجه غائر العينين اللتين تطل منهما سنوات من الحكمة . كان يلبس دائماً قبة القس ويعتمر قبعته التي كانت تغطي رأسه الأصلع اللامع . جاكسون كان كهلاً محترماً في أوساط النجود المحيطة برونجي . وغالباً ماكان يستدعيه إلى القرية مجلس الكهول (محفل غير رسمي ، تقليدي في أصله وطابعه ، لبحث وفض المنازعات بين سكان القرية) للمشاركة في المسائل الهامة التي تؤثر على النجود .

« والآآن سيقراً المحترم في كتابه ويدي لنا برأيه في هذا الأمر » كان يقول أحد الكهول . كل هذا دام عدة سنين قبل أن تصل حركة البعث إلى كينيا وتسري في النجود سر يان النار في الهشيم . كانت الحركة تتألف من أولئك المسيحيين — بغض النظر عن هذا النعت — الذين رأوا النور ، والذين من خلال اعترافهم علناً بآثامهم أصبحوا هم الأفراد الناجين . ويقال بأن من بدأ هذه الحركة الإنجيلية (وما يزال بقاياها يعيشون في القرى حتى يومنا هذا) كان مبشراً أبيض في رواندا وبعدئذ سرعان ماانتشرت إلى أوغندا وكينيا . وبعد أشهر قليلة على إعلان

حالة الطوارئ اعتنق جاكسون هذه الحركة فجأة . وقف أمام المصلين في ماهيغا ، وارتعش كرجل به مس وخبط على صدره قائلاً : « لقد دعوت نفسي مسيحياً . لقد وضعت ياقة بيضاء حول عنقي وظننت بأن هذا سوف ينقذني من اللهب القادم في المستقبل . باطل الأباطيل ، قال الواعظ ، باطل الأباطيل . كل شيء كان باطلاً لأن قلبي كان طافحاً بالغضب والخيلاء والحسد والسرقة ونيات الزنا ، كما كانت صحبتي مع الزناة والسكران . لقد سرت في الظلمة وخضت مستنقع الآثام . فما رأيت المسيح . وما أبصرت النور . وبعدئذ ، في ليلة ١٢ كانون الثاني من عام ١٩٥٣ ، صهقتني صاعقة الرب فجأة فصحت بأعلى صوتي : يارب ماذا عليّ أن أفعل حتى أنجي نفسي ؟ فتناول يديّ ودسهما في جانبيه وشاهدت آثار المسامير في يديه . فصحت ثانية : يارب طهرني بدمائك . فقال لي : « اتبعني يا جاكسون » . واعترف بعاء ذلك بأنه كان يضع نفسه في خدمة الشيطان : من خلال الأكل والشرب والضحك مع الضالين ، ولكونه كان لّين العريكة مع كهول القرية وأولئك الذين تنكروا للمسيح ، ولأنه منع دماء المسيح من إرواء البئرة كي تضرب جذورها في الأرض . لقد أصبح الآن جندياً مسيحياً ، يخطو خطوات نظامية وكأنه في طريقه إلى ساحة الحرب . فما السياسة إلا قنارة ، وما متاع الدنيا إلا لثم من الآثام .

« إن بيتي هو السماء وما أنا على هذه الأرض إلا زائر » .

فنهض الأخوة والأخوات في الدين وبدأوا بالغناء والقفز في

أرجاء الكنيسة ، وذهب بعضهم إلى المقدمة وعانقوا جاكسون وقبلوه
قبلة مقدسة . فمزق جاكسون ياقته وقبعته - للتدليل على تفانيه في
خدمة الرب وعلى تفطر قلبه في حبه .

كانت حركة البعث هي المنظمة الوحيدة التي سمح لها بالانتشار
في كينيا من قبل الحكومة أثناء حالة الطوارئ . أصبح جاكسون
قائد المنظمة في منطقة رونجي .

كان من ضمن أول مجموعة من المسيحيين الذين تمّ قتلهم في
رونجي فيما بعد .

في صبيحة أحد الأيام وجدت جثته ممزقة بالسواطير إرباً إرباً :
أضمرت النار في بيته ومحتوياته حتى أضحي يباباً ورماداً . ولحسن الحظ
لم تكن زوجته ولا صغاره في البيت . كان ريتشارد وقتها بعيداً في
انكلترا . إن نبأ مصرع جاكسون قد بث الدعر في قلوب الناس في
ثاباي وفي النجود المحيطة بها . من هو الشخص التالي الذي قد يكون
ضحية الماو ماو ؟ تساءل الناس وهم يتذكرون المعلم مونيو (بعثي آخر
ذاع صيته على أنه مخبر سري للبوليس) الذي قتل بطريقة مماثلة قبل
أيام فقط . كان البعثيون يحمدون الله ويقولون بأن مافعله جاكسون
ومونيو بموتهما لم يكن أكثر من السير على خطا المسيح . فأى شرف
أعظم من هذا يمكن أن يناله المسيحي ؟

ما كان بإمكان إلا القلة من الناس أن يتنبأوا بهذا القدر من الاضطراب

في تلك الأيام التي كان يذهب فيها كيهيكا إلى المدرسة ويكشف
عالم الكلمة المطبوعة . تأثر الصبي بقصة موسى وبني اسرائيل التي كان
قد تعلمها في مواظ الأحد - وقد كانت تشكل قسماً جوهرياً من
برنامجهم - التي كان يشرف عليها المدير في الكنيسة . وحالما تعلم
كيهيكا القراءة اشترى إنجيلاً وقرأ قصة موسى مرات ومرات لكي
يرددها فيما بعد على مسامع مومبي وعلى مسامع أي إنسان آخر يقبل
الإصغاء إليه .

ترك كيهيكا مدرسة ماهيغا وقد أصابه شيء من رشاش الخزي .
حدث الأمر على النحو التالي : في فصل دراسي في صبيحة أحد أيام
الآحاد كان المعلم مونيو يتحدث عن ختان النساء فنعت تلك العادة
بالعادة الوثنية .

- « نحن كمسيحيين محرم علينا أن نقوم بأمثال هذه الممارسات » .

- عفوك يا أستاذ !

- نعم . ماذا تريد يا كيهيكا ؟

وقف الصبي يرتعد هلعاً . حتى في تلك الأيام كان كيهيكا يحب
أن يلفت الأنظار إليه بقوله وفعله أشياء كان يعلم بأن غيره من الصبيان
والبنات لا يتجاسر على قول مثلها أو فعله . في هذه المناسبة كان صلفه
البالغ هو ماجراًه على انتهاك الصمت الذي كان يرين حوله وقذف
الكلمات التالية :

— ليس ذلك صحيحاً ياسيدي .

— ماذا تقول ؟

حتى المعلم مونيو بدا مذعوراً من ذلك الصمت المباغت . أخفى بعض الصبية وجوههم ، هزتهم كلمات كيهيكا ولكنهم كانوا خائفين من أن تستجر عليهم غضب الأستاذ .

— لا يقول لنا ذلك الكلام إلا الناس البيض ، بينما الانجيل لا يتحدث عن ختان النساء .

— اجلس يا كيهيكا .

هبط كيهيكا في مقعده . تشبث بالمقعد وندم على اندفاعه المتهور . المعلم مونيو أخذ إنجيلاً ودون ترو طلب من التلاميذ أن يفتحوا على (١) الكورنثيين ، (٧) ، الآية ١٨ ، حيث بحث القديس بطرس موضوع الختان . وطفق مونيو يقرأ بصوت عال وبزهو ، ولم يكتشف الخطيئة التي ارتكبها إلا بعد قراءة جملتين . لم تكن تلك الصفحة خالية من أي ذكر للنساء فحسب ، بل إن الختان البشري لم يكن موضع إدانة قاطعة أيضاً . أغلق الانجيل ولكن بعد فوات الأوان ، لأن كيهيكا كان قد عرف بأنه قد كسب المعركة وما كان له مناص من التلفت حوله لطلب الاستحسان من عيون بقية الصبيان الذين اغتبطوا سراً لرؤيتهم معلماً يضعه واحد منهم في موقف معيب . فشرح مونيو الآيات بشكل

أُحرق تقريباً وصرف الصبيان . أصبح كيهيكا محط الأنظار ، بطلاً صغيراً ، في الوقت الذي كان الصبيان يتجادلون ويلقون ويتساءلون عما يمكن أن يفعله المعلم فيما بعد . يوم الاثنين لم يقل المعلم مونيو شيئاً . في صبيحة الثلاثاء جمع المدرسة كلها (طلاباً وإداريين) في مبنى الكنيسة . وبصوت متهدج بالانفعال هادهم بأن يحذروا التجديف ضد الكلمة المقدسة .

— إذمن نحن حتى نقول بأن الكلمة الصادرة من فم الله إن هي إلا فريسة ؟ جلجل صوته الغاضب في أرجاء المبنى .

ولكنه ، على أية حال ، بعد حادثة يوم الأحد مع شيوخ الكنيسة ، قرر أن يعطي الصبي فرصة لإنقاذ روحه . وهكذا قرر المعلم أن يجلد الصبي عشرة سياط على إلتيته العاريتين على مرأى من الحشد كله — هنا من أجل روح الصبي وأرواح الحاضرين كلهم . وكان على كيهيكا ، بعد جلده ، أن يشكر المعلم وأن يشجب كلماته التي نفوه بها في الأحد الماضي . كانت الكنيسة هادئة هادئة مطلقاً . سعة أو سعلتان زادتاً من توتر الجو المشحون . التفت مونيو إلى أحد زملائه المعلمين وطلب منه أن يتناول العضوين اللتين وضعتا بشكل ظاهر فوق المذبح .

— « قف يا كيهيكا » . حتى تلك اللحظة لم يكن المعلم قد جاء على ذكر كيهيكا بالاسم صراحة ، بل كان قد تحدث عن تلميذ معين .

والآن توجه عدة صبيان ، بما فيهم أولئك الصبيان الذين التزموا
بكيهيكما بكل افتخار في لحظة انتصاره يوم الأحد الماضي ، نحو كيهيكما
بنظرات عدائية ، يعيون برأت نفسها من ذنبه .

— « تقدّم » .

تسمرت قدما كيهيكما بالأرض . أصبح جوفه فارغاً وكان كل
محتوياته قد استؤصلت منه . وحتى قبل أن يتحرك أفسح له الآخرون
الطريق .

— قلت لك تقدم .

تظاهر بأنه على وشك المسير . جالت عيناه في السقف وفي المعلم
وفي العصوين وفي المذبح . وفجأة ارتقى المقعد وقفز إلى مقعد آخر
وقبل أن يترك الناس ماكان يجري ، وصل إلى أقرب نافذة إليه وتسلق
منها خارج الكنيسة — إلى الحرية . وما توقف عن الجري إلى أن وصل
البيت حيث رمى بنفسه على الأرض باكياً من الخوف .

« أفضل أن أشتغل في الأرض » قال لأبيه الذي اقترح عليه الانتقال
إلى مدرسة أخرى .

بقيت هذه الحادثة تغلي في فكره زمناً طويلاً . فقرأ أكثر مما كان
يقرأ من ذي قبل ، بل وتعلم كيف يقرأ ويكتب اللغة السواحلية واللغة
الانكليزية . وبعد مضي سنوات ، بعد انتهاء الحرب مباشرة ، ذهب

ليشتغل في نيروني ، وثابر على حضور الاجتماعات السياسية واكشف
الحزب . هاقه وجد لنفسه حلماً جديداً .

* * *

« أنت تسأل ما المطلوب ؟ » كان يقول كيهيكا الآن . « سأقول
لك . لقد تكلم شعبنا أكثر مما يجب » .

— « وماذا بإمكاننا أن نفعل ؟ » سأل كارانجا الذي كانت عيناه
دائبتين في الانتقال من كيهيكا إلى مومبي « إن لديهم البنادق والقنابل .
انظر كيف جلموا هتلر . وروسيا هي البلد الوحيد الآن الذي ترتعد
منه فرائص الانكليز . »

— « إن الأمر يتعلق بمسألة الوحدة » أوضح كيهيكا على نحو مثير .
« إن مثال الهند هناك ماثل أمام أعيننا ، لقد بقي الانكليز فيها مئات
ومئات من السنين . لقد التهموا ثروة الهند . لقد شربوا دماء الهند .
مأعاروا أذنًا صاغية لهذر حفنة من الرجال . فماذا حدث بعد ذلك ؟
ظهر هذا الرجل المدعو غاندي . يجب أن تأخذ بعين الاعتبار أن غاندي
كان على معرفة جيدة بالإنسان الأبيض الذي عنده . وطلق يلدور
وينظم الجماهير الهندية بسلاح أمضى من القنبلة ، إلى أن صاروا
يقولون بصوت واحد : نريد استرداد حريتنا . ضحك الانكليز ،
لأنهم يحسنون الضحك . ولكن كان عليهم في النهاية أن يخمدوا ضحكهم

حين اتخذت الأمور طابع الجحيم . ماذا فعل الطغاة ؟ أرسلوا غاندي إلى السجن ، ليس مرة واحدة ، بل مرات عديدة . بيد أن جدران السجن الحجرية لم تقو على احتجازه . سُجن آلاف الناس وآلاف أكثر قتلوا . الرجال والنساء والأطفال كانوا يلقون بأنفسهم أمام القطارات الهادرة التي كانت تدهسهم . تدفقت الدماء غزيرة كالماء في تلك البلاد . لم تستطع القنبلة أن توقف سيل الدماء ، دماء الشعب القانية ، الذي كان يجاهر مطالباً بحريته . يا إلهي ! يا العدد المرات التي يجب فيها أن يعول اليتامى وأن تندب الأرامل فوق هذه الأرض حتى يتعلم هذا الطاغية ؟ » .

يا للتأثير الذي كانت تحدثه كلماته وصوته المتهدج على الحضور ، ذلك التأثير الذي كان يتجلى في الصمت المطبق الذي يعقب الحديث . كانت كلماته تسحر مومبي وتنقلها إلى أطراف ماض بطولي لبلاد أخرى تتسم بالتضحية والشهادة . ثمة ضباب سحري كان يلف تلك البلاد النائية والسنين السحيقة الغنية غنى غامضاً يشدّ إليه مومبي ويروق لها ، ما كان بإمكانها أن تتصور فعلاً بطولياً باقداً النساء والرجال على اللقاء أنفسهم أمام القطارات . كانت فكرة أمثال هذه المشاهد السديمية تلقي بها في سورة الغضب . فكرتها عن بهاء المجد كانت شيئاً أقرب إلى آلام المسيح في حديقة سمعان .

— « إنني أكره أن أرى قطاراً يدهس لي أمي أو أبي أو إخوتي . آه ، من يلدري كيف كنت أتصرف حينها ؟ » تساءلت على عجل .

— « النساء جبنات » قال كارانجا بلهجة يخالطها الهزل .

فكالت له مومي الصاع صاعين غاضبة بسؤالها له : « أو تحب أن يدهسك القطار ؟ » ولما أحس كارانجا بغضبها لم يجر جواباً .

« لرفعوا صليبي ، هذا ما قاله المسيح لقومه » تابع كيهيكا حديثه جذلاً . « من أراد أن يتبعني فليتنكر لذاته وليرفع صليبه ويتبعني . لأن كل من يحاول انتقاذ حياته سيفقدوها ، وكل من يفقد حياته من أجلي سوف يجدها . أتعلمون لماذا نجح غاندي ؟ لأنه جعل أفراد شعبه يتنكرون لأبائهم وأمهاتهم ويكرسون أنفسهم لخدمة أمهم الوحيدة — الهند . وأما بالنسبة لنا فان كينيا هي أمنا الوحيدة » .

تأثر غيكونيو بصوت كيهيكا وبالبريق الذي كان يومض في عينيه أكثر مما تأثر بالمحاكمة التي لم يكن يتابع تفاصيلها أبداً .

— « إن منظر الدم يسبب لي الدوار علققت » مومي .

— « إن مانريده في كينيا هو رجال ونساء لا يلوذون بالفرار أمام السيف » قال لها كيهيكا .

— « وما السبيل لتوحيد الشعب ؟ » سأل غيكونيو لمجرد المشاركة بالحديث .

اقتربت وانجيكو من الباب وأخبرتهم بأن الشاي أصبح جاهزاً .

قالوا بأنهم يريدون تناوله في العراء تحت أشعة الشمس . وسرعان
ما انضم إليهم فتاتان من ثاباي .

— « هل أصبحتم أوربيين ، تتناولون الشاي في مهب الريح في
العراء ؟ » سألتهم وامبوكو .

— « أجل ، أجل . إننا أوربيون حقيقيون لولا جلدتنا السوداء »
تشدق كارانجا مقلداً صوتاً أوربياً ، فقهقه الجميع ضاحكين .

— « إنك تجيد تقليده » قالت انجري .

كانت وامبوكو وانجري من صديقات مومبي وغالباً ماكانتا
تضايقانهما بخديثهما عن حب كارانجا لها .

أشرق وجه كيهيكا لرؤية وامبوكو . غالباً ماكان كيهيكا يرافق
وامبوكو في حفلات الرقص وكان ، على العموم ، يحب التحدث
إليها . شاركت الفتاتان في شرب الشاي . عينا كارانجا قلما تركتا
مومبي . راقب غيكونيو مومبي ليرى ماإذا كانت ستمنح كارانجا
ابتسامة كالابتسامة التي كانت قد منحتها لإياها . التفتت عينا انجري
إلى كيهيكا الذي كان وقتها يشارك وامبوكو نكتة ما . وحين شعرت
انجري بأنها موضع إهمالهم حاولت أن تروّج عن نفسها بمراقبة ذلك
التنافس القائم بين كارانجا وغيكونيو . كان النجار يحاول مشاغلتهما
بالحديث بيده أن قلبه كان في غنى عن الكلمات . تركتهم مومبي ،
وقد فرغت من تصفيف شعرها ، ودخلت الكوخ لتبديل ثيابها وارتداء

ثياب الأحد . سارت انجري الهوينى واعتلت هضبة صغيرة بالقرب من السياج وفجأة طفقت تصيح بأعلى صوتها : القطار ، القطار .
نزلت عدواً عن الهضبة قائلة : لقد تأخرنا عن القطار .

سمع الآخرون أيضاً ضجيج القطار الصاخب . وقفت وامبوكو وأمسكت بيمنى كيهيكا وشدته واقفاً على قدميه . أفلتت يده وبدأت تعدو على الممر عبر السياج باتجاه المحطة . تبعها كيهيكا . كان رجلاً صغيراً ترتسم على وجهه بعض أمارات الكآبة . « يامومي ، يامومي ، وصل القطار » صاحت انجري وهي تنقض على المندبل الذي كانت قد نسيت على الكرسي وركضت خلف الاثنين الآخرين . تردد كارانجا وغيكونيو قليلاً وكأن كلا منهما كان ينتظر من صاحبه أن يبدأ بالعدو . كان كل منهما قد انتصب واقفاً على قدميه لدى أول صيحة ندت عن انجري بخصوص القطار ، فتطلعا الآن بانسجام مضحك إلى الكوخ ومن ثم إلى الشعوص المتراكضة . خرجت مومي وهي تعدل حزاماً حول خصرها الرقيق . وصلها صوت وانجيكو : رويدك ، لقد نسيت مندبلك ، فغاصت داخل الكوخ . كان كارانجا وغيكونيو مايزالان ينتظران وهما يتظاهران بأنهما يركضان .

« هيا بنا » صاحت مومي وقد سبقتهما بعدة ياردات مخلقة كارانجا في المؤخرة . كان من الممكن سماع قطار كيسومو يحثهم : اركضوا واركضوا ، اركضوا واركضوا . الطريق بين كوخ مومي والمحطة

كان يمر عبر غابة صغيرة تقوم في نهايته البعيدة . كانت تجري تقرب
من الغابة في الوقت الذي كانت فيه وامبوكو وكيهيكافا قد اختفيا
عن الأنظار .

ولكن كارانجا سرعان ماسبق غيكونيو لأنه كان أطول قامة
بقليل . استحت النجار قوته في هذا التسابق على مومي . لحق كارانجا
بمومي وسبها خطوات عديدة وتراءت له أكاليل النصر تكلل هامته .
هبط قلب غيكونيو خشية العار حين وصل أخيراً إلى مومي . كان
يلهث بشدة موقناً بكل مرارة بأنه لن يلحق كارانجا الذي كان قد
اختفى في الغابة .

توقفت مومي عن العدو وصاحت لغيكونيو الذي تباطأ منتظراً
وصولها إليه .

— « إنني متعبة » قالت .

— ولماذا تتوقفين ؟ إننا لن نشاهد القطار .

— وهل ينطوي ذلك الأمر على أهمية كبيرة بالنسبة إليك ؟
هل ستموت إذا لم تره اليوم ؟ أصيب غيكونيو بالذهول : لماذا تُراها
حائقة عليه ؟

— « ليس في نيتي الذهاب إلى هناك هذا اليوم » تابعت حديثها
بشيء من اللين .

سارا جنباً إلى جنب . كان غيكونيو يشعر بامتعاظ عميق لفشله في السباق إلى المحطة . ولكن سرعان ما تبدد ذلك الشعور حال وصولهما إلى الغابة واكتشافه فجأة بأنه وحيد مع مومبي — وهي الهدف الحقيقي للسباق . أخذ ينتقب في فكره عن الكلمات المناسبة وثمة أمل يحده في الوقت نفسه ألا تسمع الفتاة خفقان قلبه . استندت مومبي إلى جذع شجرة من الأشجار ولاحظ غيكونيو أن البشر يتألاً في عينيها . كانت الغابة ملاذاً ظليلاً من الشمس ، فالخشيش والخضرة الكثيفة كانت تلتف بالورود التي نمت بشكل أطول ، كما كانت الأغصان وفضول الأشجار تبدو وقد زادت انثناء باتجاه الأرض . قالت مومبي :
لابد من أنك قد بذلت جهداً كبيراً لتثيت المقبض لذلك الساطور .
لقد كان مقبضاً خفيفاً وأملس ، وكان سرور أمني به بالغاً .

— إنه عمل لا يستحق الذكر .

— أفلا يستحق الذكر ؟

— أعني أنه كان عملاً بسيطاً كما أنني أحببت إنجازَه .

— « وتقول بأنه لا يستحق الذكر ؟ » وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة . كانت وجنتاها ريانيتين وكان صوتها يعمل طعناً في جسده على نحو بهيج .

« إنني متأكدة » تابعت حديثها « أن من الروعة بمكان أن يكون

المرء نجاراً وأن يمارس العمل بالخشب . فأنت من حطام قطع خشبية
صنعت شيئاً يستحق الذكر »

— « وأنت أيضاً تحوكين الكثرات الصوفية » .

— « إن الأمر مختلف جداً. لقد راقبتك مرة في مشغلك ومبياً لي
أنتك كنت تتحدث إلى أدواتك » .

— « هيا بنا نستكشف الغابة » اقترح غيكونيو بصوت مرتعش
تخفته الانفعالات المكبوتة . وصلا إلى ساحة عارية من الأشجار وسط
الغابة ، أعشاب الكيغومب الخضراء يرتفع إلى ركبهما . وقف قبالة
مومبي مستسلماً لقوة كان يدرك بأنها تشدهما الواحد إلى الآخر .
أمسك بيديها وأصابعه الربانة في ذروة حساسيتها .

« يامومبي — » حاول أن ينطق شيئاً وهو يجذبها نحوه . استرخت
على صدره . كانت نبضات قلبيهما في أتم تناغم . كل ماحولهما كان
ساكناً . سرت ارتعاشات مومبي في دمه على شكل ارتعاشات خوف
وبهجة . شدّها إلى الأرض رويداً رويداً حتى غطاها الحشيش الطويل .
كانت مومبي تلهث لهاثاً عميقاً ولكنها لم تقو على الكلام ولم تتجرأ
على النطق . جرّدها غيكونيو من ملابسها قطعة قطعة وكأنه يؤدي
أحد الطقوس السرية في الغابة . هاهو جسدها يلعب الآن تحت ضياء
الشمس . عيناها ناعستان ووحشيتان وفاترتان وجريثتان . مرّ غيكونيو

بيديه على شعرها وفوق نهديها محاولاً دغدغة وتلين اليبوسة في جسدها إلى أن استرخت بين يديه . وفجأة شعر غيكونيو بأنه معلق في الفراغ ، وما أن اقترب من اللحظة الحرجة حتى جنح بنشوة عارمة في التيه البهيم وتناهت إلى أسماعه آهة تنفلت من بين شفقي مومي المنفرجتين . هصرته فوق جسدها هصرأ . اتحد لهما الآن وأصبح لهماً واحداً . تزلزلت الأرض تحت جسدهما الواحد إلى أن وصلت إلى حالة الخدر . في المحطة وجد كارانجا الجمهور والقطار باهتين . كان متعباً ومعدته خاوية . تناثرت هباء مثوراً كل تلك الاحتمالات المثيرة التي شعر بها أثناء وجود مومي . عبثاً فتشت عيناه عن مومي ضمن الجمهور الدائب الحركة .

كانت النساء ، على مألوف عادتهن ، يتفتنن بألبستهن المزركشة أكثر من الرجال ، ويتزينن بأزياء تختلف من نجد إلى آخر . فالنساء اللواتي جنن من نجد انديا ومن النجود البعيدة عن رونجي كن يرتدين الخام الملون بالأزرق الفاتح أو الأخضر أو الأصفر ، تمر القطعة منه تحت آباطهن لتنتهي في عقدة معقدة على شكل الورود فوق الكنف الأيمن ، وتلبس زناير الصوف أو القطن الرفيع طائقة على صدورهن السمينية . وكانت اللواتي الطويلة للزناير تصطفق وترقرق خلفهن وهن يخطرن على الرصيف ويعرضن أنفسهن أمام الرجال . وأما معظم فتيات رونجي وكيهينجو أو انغيكا فقد كن يرتدين العباءات (الفراك) في أزياء مختلفة ستين أو ثلاث عن الزي الدارج في نيروبي .

لم يكن الرجال هكذا .

لقد جاء بعضهم ببطالات فضفاضة وسترات عتيقة مستعملة ابتاعوها من الحيوانات الهندية أو الأفريقية في روينجي . كانت ركبتهم ورؤوسهم الصغيرة السوداء تبرز من ثقوب البطالات وهم يسرون على الرصيف يطلقون سيقانهم باستهتار ولكن بقوة كي يدللوا ، بشكل مبتذل ، على رجولتهم بخطواتهم تلك .

كارانجا انتحى جانباً مبتعداً عن هذا الحشد المتلاطم . تسالت الغيرة إلى نفسه على شكل شعور بالدهشة لأنه كان دائماً يرفض اعتبار غيكونيو ندّاً جدياً له ؛ إذ كيف بوسع نجار ، دونما فطنة أو أية دماثة ، حتى أن يتجرأ مجرد جرأة ؟ ولكنه كان يعرف الآن أن غيكونيو ومومي معاً ، وحيدين ، في مكان ما . فاستشاط غضباً لمعرفة تلك . إذ كيف بمقدور مومي أن تدعه يلهث ويتصبب عرقاً تحت الشمس بلا مقابل ؟ كيف بمقدورها أن تجعله يهرول كالطفل ويسبقها لكي تبقى خلفه مع غيكونيو ؟ فكر أن يندفع عائداً ويبحث عنها إلى أن يعثر عليها ، يجلها بالعار ، يجبرها على الركوع على ركبتيهما على مرأى من الملائم ويبقى كذلك إلى أن تتوسل إليه طلباً للعفو . لقد كان الدافع لتنفيذ هذا الإجراء قوياً جداً حتى إنه باشر بالسير مبتعداً عن الرصيف حتى حينما كانت الفكرة لا تزال في طور التكوين . ثم توقف ووقف يتساءل فيما لو كان عليه أن يركض أم لا ، وكأن أسلوب عودته

من المحطة سيقدر مقدار النجاح في المهمة التي حددتها لنفسه . ماذا لو وجدها في أحضان غيكونيو ؟ فتصور يدي النجار الخشتين وتبعهما على جسد مومي بدءاً من النهدين ونزولاً إلى السرة ومن ثم إلى - لا ! لم يتجرأ على تصور ذلك ، لا ، يجب ألا يتصور ذلك ، فطفق يحدف معذباً ذهنه بتصورات أكثر خسة . لا ، ليس النجار ، ارتعش مستغيثاً بالله . لو حدث ذلك فالتسقط عندها السماء ولتترنزل الأرض ولينطرح الناس أرضاً ولتتمزق أردافهم وليتأوهوا (آه ، يالتلك الآهة المربعة) نزولاً إلى الفروج المفتوحة ، وليتأوهوا إلى حد المعاناة والموت . أذهله عنف ردود أفعاله وسحاول أن يسيطر على ارتعاشه من خلال إقناع نفسه بالحجة بأنه لم يكشف مومي بحبه لها بحال من الأحوال . ولربما لم يجر شيء ذو بال بين غيكونيو ومومي . فرّج هذا التصور كروبه فتشبت به ، حبكه وعزّزه بالعديد من الحجج . بل إنه جرب أن يضحك لكي يطرد ذاك الهاجس الذي بدأ يهوّم على تخوم الصمت الذي ران عليه من جديد .

تحرك كي ينضم إلى مجموعة من الرجال تبتعد عنه ياردات قليلة . عقد عزمه على الإسراع في التصرف وفتح مغاليق قلبه أمام مومي . كان الرجال يتحلقون حول كيهيكا يصغون إلى حديثه بوجوه مستبشرة . وفي مكان قصي من الرصيف كان ثمة نساء ورجال آخرون يسبرون الهوينى أو يقفون في تجمعات ذات أعداد مختلفة : إن مرأى الرجال والنساء يتصاحكون معاً جعل كارانجا يفتقد مومي إلى حد مرعب .

وفجأة دوت صفارة القطار وتحتل القطار مثاقلاً للخروج من المحطة ، وأما كارانجا الذي كان يمعن النظر فيه فقد بدأ يعاني شيئاً غريباً . أولاً صفارة القطار دوت في جسده وجلجلت العربات في جسده أيضاً . (لقد خالجه هذا الإحساس ، في الواقع ، بعد مضي القطار بزمان طويل) . ثم وجد نفسه واقفاً على حافة الرصيف محملاً في تيه أبيض فارغ . لقد رأى كل هذا بوضوح ومن ثم بدأ العرق يتصبب منه فيما بعد . القضبان الحديدية ، الناس على الرصيف ، حوائط رونجي ، والمنطقة كلها بدأت تدور وتدور وتسرع في دورانها أمام ناظريه وتوقفت فجأة . كيف الناس عن الحديث . لم يكن أي شيء يتحرك أو يثير نأمة ما . حل الذعر بكارانجا من جراء التوقف المطلق لأية حركة أو ضجة وتطلع حوله ليؤكد حقيقة ما تراءى له . لم يكن قد توقف أي شيء . كان كل إنسان يهرول مبتعداً وكأنه كان يخشى أن تמיד الأرض من تحت قدميه . كان الناس يتراكمون في كل الاتجاهات ، الرجال يدوسون على النساء ، والأمهات في شغل شاغل عن أطفالهن ، وتخلي الناس عن الضعفاء والمساكين وتركوهم على الرصيف . كان كل إنسان وحيداً بنفسه ، مع الله . إن ماهزّه كان وضوح هذه الرؤيا بأكملها . فشدد كارانجا من عزيمته وتهايا للصراع ، للكفاح من أجل أن يبقى على قيد الحياة . يجب أن أخلي هذا المكان ، قال لنفسه ، دون أن يتحرك . بدأت الأرض تدور مرة ثانية . يجب أن أركض ، فكر بذلك ، شيء لا مناص منه ، لماذا أخشى أن أطأ

بأقدامي الأطفال والضعفاء والمساكين في الوقت الذي يفعل فيه الآخرون ذلك ؟

رجل كان بالقرب من كارانجا أسرع بوضع ذراعيه حوله مخافة سقوطه على الأرض القاسية .

— ماخطبك يا هذا ؟ هل أنت ثمل ؟

— « أنا ، أنا لأعلم » قال كارانجا وفرك عينيه كرجل يستفيق لتوه من نومه . كان كل شيء على الرصيف عادياً . كان القطار يختفي الآن خلف الزاوية البعيدة . « إنه رأسي » أوضح الرجل الذي مدّ له يد المساعدة . « كان رأسي يدور ويدور » .

— « إنها الشمس . إنها تصيب الناس بالدوار . لم لاتقعد في الظل وتستريح ؟ »

— « إنني الآن على مايرام » . تصنّع كارانجا الابتسام وابتعد لينضم إلى المجموعة المتحلقة حول كيهيكا . فلة من الناس شاهدوا هذه المسرحية الطريفة ، كارانجا وجد كيهيكا يشرح شيئاً عن المسيح . « لا يكتب الظفر لصراع من أجل واياي بلا رجل كهذا . خلدوا حالة الهند . لقد كسب المهاتما غاندي الحرية للشعب ولكنه هو الذي دفع الثمن من دمائه » .

كارانجا ، الذي أصابته رعشة خفيفة من جراء رؤياه القريبة ، شعر فجأة بالغيط من كيهيكا .

— « أنت تقول الآن شيئاً ما وبعد » اعة تقول شيئاً آخر » قال مخاطباً كيهيكا . « لقد قلت هذا الصباح بأن المسيح قد أخفق ، وتقول الآن بأننا بحاجة لمسيح . فهل تحولت إلى بعثي ؟ » .

إن هذا التكنذيب الذي كان يتسم بالازدراء والابتسامة الساخرة قد سبب الضيق لكيهيكا . فتردد قليلاً وهو لا يعرف كيف يجب أن يرد على هذا التحدي العلني من قبل صديق له . اقرب الناس أكثر من ذي قبل وهزوا رؤوسهم بالموافقة كي يروا ما إذا كان كيهيكا قد أفحم فعلاً . كظم كيهيكا غيظه بصعوبة وتابع حديثه :

« نعم — قلت بأنه أخفق لأن موته لم يغير أي شيء . إن موته لم يجعل شعبه يجد له مركزاً في الصليب . يجب على كل الشعوب المضطهدة أن تحمل صليبها . لقد رفض اليهود حمله وتفرقوا أيادي سبا في كافة أرجاء المعمورة . فهل كان لموت المسيح أي معنى بالنسبة لبني إسرائيل ؟ نحن في كينيا بحاجة لميثة تغير الأشياء ، أي ، نحن بحاجة لتضحية حقيقية . ولكن يجب أولاً أن نكون على استعداد لحمل الصليب . أموت أنا من أجلكم ، تموتون من أجلي ، وهكذا يصبح واحدنا قربانا للآخر . وبذلك يمكنني أن أقول بأنك أنت يا كارانجا ، أنت مسيح ، وأنا مسيح ، وأي إنسان يقسم يمين الولاء للوحدة لتغيير الأشياء في كينيا ، إن هو إلا مسيح » .

انجري و وامبوكو جاءتا برفقة حفنة من الفتيات الأخريات وانضممن

إلى المجموعة . ولدى انتهاء الحديث السياسي تأثر معظم الشباب بفكر كيهيكا ، ولكن طابع الجدل الذي ارتسم على وجوههم تبدد حالما ابتسموا وتضاحكوا مع الفتيات .

بقي كل من كارانجا وكيهيكا شارد الذهن ولكن لأسباب مختلفة . وتجنب الواحد منهما الآخر ودياً ، على غير تخطيط مسبق من أي منهما ، وسارا صامتين طيلة الطريق إلى حفلة الرقص في الغابة .

كان جو من الهدوء والرطوبة يحتم على غابة كيني . ومرة ثانية اجتمع الرجال والنساء على شكل مجموعات ، يتضاحكون ويملاؤن الغابة صخباً وحيوية . شخص ما دفع بغيتار بين أيدي كارانجا . « اعزف » صرخت الفتيات . حينما كان كارانجا يعزف على غيتاره كان دائماً يحسّ بالاستجابة الفورية للأوتار لمجرد لمس أصابعه لها ، غير أنه اليوم ما جلب غيتاره معه ، ومع ذلك فقد شعر بالانفعال وهو يحاول التحكم بهذا الغيتار تحكمه بغيتاره . الانفعال ، وقد انتقل إلى الأوتار ، وصل إلى الناس الذين باشروا الرقص . كانت الرقصات القليلة الأولى رقصات حرة .

وامبوكو وكيهيكا رقصا معاً . هزتها الموسيقى طرباً والتصقت بكيهيكا على نحو أقرب . كان رأسها يميل إلى الخلف وتنظر إلى كيهيكا بعينين براقتين ، ونهداها النافران كانا يتراقصان إلى الخلف وإلى الأمام ويدخلدان كيهيكا مما جعله ينسى حادثة المحطة . ولما لاحظ كارانجا

بأنهما يرقصان على هذا النحو من التلاحم عادت مومي إلى ذاكرته .
لقد عزف لها مرة أو مرتين في بيتها ، وهاهو الآن يريد أن يعزف لها
أيضاً . هذه الرغبة أثارت في دماثة شحنات كهربائية انتقل اهتزازها
الرقراق إلى أصابعه . إن الأوتار سوف تشكل نيابة عن قلبه . إن ذلك
التضرع المنبثق عن الرغبة الجارحة سوف يمضي حتماً إلى مكان أبعد
من الغابة : إلى القرية . إلى مومي .

كان كارانجا يعزف بشكل مختلف عن غيكونيو الذي كان يذوب
في الآلة بنوع من الغضب الغامض والذي كانت تفتنه الآلة أحياناً
ويصبح لعزفه قوة فجأة . غبر أن كارانجا كان ينتصب كالطود فوق
الآلة . كان يتحكم بها كما يتحكم النجار بأدواته ، ولذلك فقد كان
عزفه يتسم بتقّة أكبر من عزف غيكونيو وبصقل أعمق .

مشى رجل إلى المكان الذي كانت تقف فيه انجري . فرفضت
أن تراقص رجلاً سافلاً مترنح الرأس . كانت عيناها تلاحقان كيهيكا
وامبوكو وهما يتمايلان ويشقان طريقهما حول الأشجار الصامتة
وأقدامهما تنجّر عبر الأوراق المتساقطة . حتى جذوع الأشجار
بدت كأنها ترنح أيضاً مع الراقصين . غنى كارانجا ببهجة كثيفة .
الآن أصبح الرجال والغابة طوع بنانه . ولكنه ماكان يريد أن يسمعه
أحد سوى مومي . لو أنها هناك لسمعت في صوته الشهوة الجارحة ،
لركضت إليه ، لامنّاص لها من السعي الخثيث خلفه . إذ كيف بمقدورها

أن تنهالك على النجار ؟ هذا ما أعاد الألم إلى نفسه فتوقف صوت كارانجا وغيتاره في منتصف اللحن ، ومن ثم نعيم الصمت المطبق المفاجيء .
التصفيق الحاد وصيحات الابتهاج مزقت سكون الصمت بعد ذلك .

وجد كيهيكا و وامبوكو فسحة مكشوفة تحت أشعة الشمس .
لقد خالفا وراءهما القسم الكثيف من الغابة والراقصين الآخرين والعينين
النهمتين لانجري . هنا كانت أشجار الطلح وشجيراتة تنحدر انحداراً
شديداً حتى تصل إلى بطن الوادي . كان الوادي يمتد منبسطة مسافة
ما لارتفاع بعدها على شكل نجد من التلال الصغيرة . لقد أصبح الآن
بمقدور كيهيكا أن يكتشف من خلفه وعن يمينه المعالم الرئيسية لمخفر
شرطة (ماهي) ، رمز تلك السلطة التي كانت تتحكم بكينيا وتمتد
إلى باب كل كوخ .

— « قوّض ذلك البناء وسيرحل الإنسان الأبيض » خطر على بال
كيهيكا . إنه ببندقيته يتحكم بحياة كل الناس السود في كينيا . «
تراقص بريق في عيني كيهيكا ، غاص قلبه في ثنايا هذه الرؤيا ،
انتشى بها ونسي الفتاة التي بصحبته هنيهة من الزمن . ولكنه كان
مدر كاً لنفسها وبلدت له كأنها جاءت معه إلى هنا كي يريها هذا الشيء .
أخذ يدها بيده وعيناه مازالتا منبتيين على (ماهي) وعلى وادي ريفت .

« وهذا الطريق أيضاً هو الطريق الذي سلكه الإنسان الأبيض إلى
قلب البلاد » ، قال ببطء متأملاً الخط الحديدي الذي كان من الممكن
رؤيته يسير بمحاذاة منحدرات الجرف وصولاً إلى الوادي .

— « ألا يمكنك أن تنسى السياسة لحظة يا كيهيكا ؟ » سألته وامبوكو وقد عيل صبرها وكان السؤال يقف بين التحذير الغاضب والشهوة .

لم تكن وامبوكو جميلة إلا حين كانت تبسم أو حين ترفضها العاطفة بالحوية . وقتها وقد اتسعت عيناها وانفجرت شفتاها ترقباً وتألق وجهها الأسود ، بدت امرأة جذابة بشكل لايقاوم . كانت امرأة موهوبة بطاقة هائلة للحياة ، كانت تعيش اللحظة ، تستكشف احتمالاتها المغرية وتنقض لافتراسها . كانت فعلاً تريد الحياة مع كيهيكا ولكنه كان دائماً يقف متردداً عند تخوم الإفصاح لها عن حبه . وحين كانا يتركان وحيدين كانت تنظر بترقب وقلبها يحقق خوفاً من المعرفة المستورة . لم يكن كيهيكا يقدم على ممارسة فعل طائش معها . كان رجلاً مؤمناً بمبدأ . رأت وامبوكو في ذلك المبدأ شيطاناً يبعده عنها . ليتها كانت تفهمه . ليتها تلاقى الشيطان وجهاً لوجه ، لعرفت حينئذ كيف تقاتله بقوة الأنثى الكامنة فيها . أفلم ينتحل الشيطان شخصية الأنثى المنافسة لها ؟ ولكن كيف لها أن تقاتل شيطاناً لا يكتسي بلحم امرأة ؟ كيف لها أن تحارب أشياء مجهولة في الظلمة ؟

— « هذه الأقوال ليست من السياسة في شيء يا وامبوكو » قال لها « إنها الحياة . هل هو رجل من يسمح لإنسان آخر أن يسلبه أرضه وحرته ؟ هل للعبد حياة ما ؟ »

تكلم الآن بصوت معذب وهو ينطق الكلمات بوضوح كأنه

يفتش عن أجوبة لأسئلة تدور في سريره . وامبوكو ، وقد نفذ صبرها ،
سحبت يدها من يده وكأنها لا تريد أن تربط مصيرها بمصيره .

— « إنك تملك أرضاً يا كيهيكا ، كما أن أرض مبولغا أرضك
أيضاً . وفي أسوأ الأحوال ألا تعود ملكية أرض وادي ريفت لقبيلتنا ؟ »

-- « أتعنين آكرات ، والذي العشرة ؟ ذلك ليس هو الشيء المهم .
كينيا تخص الناس السود . ألا ترين بأن فابيل كان على خطأ ؟ إنني
حارس أخي . وعلى أية حال فسواء أكانت الأرض مسروقة من الغيكويو
أو من الأوكاني أو من الناندي . فإنها لا تخص الإنسان الأبيض . وحتى
لو كانت تخصه أفلا يجب أن يكون هناك حصّة ما لكل إنسان في تلك
المزرعة الجماعية — في كينيا (نا) ؟ انظري إلى صاحبك الإنسان
الأبيض في أي مكان من المنطقة المأهولة . إنه يملك المئات والمئات
من آكرات الأرض . وماذا عن مصير أولئك الناس السود الذين
يقرفصون هناك والذين يتصببون عرقاً في المزارع كي يزرعوا القهوة
والشاي وليف السيزال والقمح ، ومع ذلك لا يحصل واحد منهم إلا على
عشرة شلنات شهرياً ؟ .

كان كيهيكا يتكلم مستخدماً إشارات يديه وكأنه يتحدث إلى
جمهور كبير أمامه . وفجأة شعرت وامبوكو أن عليها أن تصارع
الشیطان في تلك اللحظة . فأخذت يده وضغطتها برفق مما جعل كيهيكا
يتطلع إليها . ولكن الكلمات لم تكن تطاوع شفيتها للروح بما يكمنه قلبها .

« دعنا الآن من الحديث بهذه الأمور » قالت وقد شعرت بهزيمتها .
ضبط كيهيكا يدها بالمقابل ، متدوقاً تلك المتعة الهائلة لرجل وجد في
النهاية إنساناً يواسيه في مسيرة نشاطه المرسوم . أراد أن يعبر لها عن
امتنانه العميق : أليست هي وحدها من دون سائر الناس من كانت
تؤمن به وبأفكاره ؟ إذا كانت قد اقتضبت في كلاهها من قبل فقد
قالت الآن كل شيء ، لقد عبرت عن إيمانها بضغطة رقيقة من يدها .

— « ألن تباعد عني ؟ ألن تتركني وحيدة ؟ » قالت يائسة .

— « أبداً ! » صاح كيهيكا بصوت يفيض وجداً وقد تراءت له
وامبوكو واقفة إلى جانبه دوماً . حين تزف ساعة العمل سيكون له
وحده دون كل الرجال حبيبة تحارب إلى جانبه .

كان لكلمته اليتيمة تلك طعنة الخنجر في نفس وامبوكو فاهتزت
طرباً لطيف سعادة آنية وأبدية . فهل سيتخلى كيهيكا الآن عن الشيطان
ويقنع بالحياة في القرية كبقية الرجال الآخرين ؟

عادا إلى الراقصين في الغابة بأيدي متشابكة وبوجهين متألقين . كان
كلاهما سعيدين ، سعادة مؤقتة ، بوهمين متناقضين .

« انسي غيكو نيو أبداً ذلك المشهد في الغابة . وحينما كان في المعتقل
يتوق لأشياء وأمكنه خارج حلود الأمل . كان يعيش تفاصيل كل
لحظة من تلك التجربة — أسطورة طقسية عن أرض منسية من زمن
بعيد .

« بدا الأمر كأنه ولادة من جديد » تذكروا وهو في حضرة ميوغو ، متكلماً بصوت خفيض رزين ينقب عن الكلمة التي تناسب حقيقة تجربته . النار التي كانت تتأجج في الموقد المحصور بالأثافي الثلاثة خبت وتحولت إلى وهج كثيب ، نور السراج بدأ يرفرف . يراقص مع ظلال الزوايا ، دون أن ينير بوضوح وجهي ميوغو وغيكونيو .

« شعرت بالكمال ، بالتجدد ضاجعت الكثيرات منهن في حياتي ولكنني ماضت مثل ذلك الشعور من قبل » .
أمسك عن الكلمات ، مرتبكاً ومدهولاً ، كأن الكلمات قد خانتها على حين غرة . ببطء رفع يده اليمنى عن ركبته ، أصابعها منفرجة بعض الشيء ، ومن ثم تركها تستعيد مكانها السابق .

« لم أكن شيئاً يستحق الذكر قبل ذلك ، ولكنني حينها كنت رجلاً . وخلال حياتنا الزوجية القصيرة جعلتني أشعر مومي بأهمية كل متاعها واكتشفت فجأة . . . لا ، كنت كأني قد عقدت ميثاقاً مع الله ابتغاء سعادتي . كيف يجب أن أعبر لك عن ذلك ؟ كنت أحضن تلك المرأة بانراعي — أتعرف الموزة ؟ وأقشرها طبقة بعد طبقة وأهد يدي ، يدي المرتعشة كي تتلمس البرعم المتكور في الداخل .
« كنت كل يوم أجهد في مومي مومي جديدة . وكنا سوية نغوص في مجاهل الغابة . وما كنت لأخاف من الظلمة » .

أمه وانغري كانت سعيدة أيضاً . لقد وجدت في مومي كنة

تستطيع أن تشاطرها . دون أدنى حاجة للجوء للكلام ، الأفراح والأفراح . كانتا تذهبان معاً إلى المزرعة ، وكانتا تجلبان الماء من النهر بالتناوب ، وكانتا تطبخان في القدر نفسه . كان قلب الحماة يفيض حناناً على الزوجة الشابة وهي تجتاز تيهاً من الصمت لا يمكن لأية كلمات أن تعبر عنه ، جذلى بعبء هذا التعارف الجديد مع العجوز . كانتا تنظران معاً خلف الكوخ إلى المشغل ، إلى حيث كان الزوج يحمل منشاراً أو مسحجاً . وكانتا تصغيان لصوت النجار يغني مع أدواته بقلبين مفعمين بالخبور .

وسرعان ما لاحظت وانغري ومومي ، كبقية النسوة في ثاباي ، أن تغيراً بدأ يطرأ على الزوج . لقد أصبح غناؤه نوعاً من التحدي ، تحدياً عانياً لأولئك الناس خارج ثاباي ، للإنسان الأبيض في نيروبي وفي أية أمكنة أخرى كان يقطنها أجداد الغيكويو . كارانجا ، كيهيكا وآخرون كانوا ينضمون إلى غيكويو ويغنون أغاني الأمل الحزينة . كانوا يتضحكون ويروون الروايات ، غير أن ضحكهم لم يعد كما كان من ذي قبل ، بل كانت تشوبه السخرية والترقب في أشداقهم . قالت زياراتهم للقطار ، وتحولت حلقات الرقص في الغابة إلى اجتماعات لرسم الخطط ليوم الحساب . كانوا يجتمعون أيضاً في الأكواخ وفي الزوايا المظلمة في الهزيع الأخير من الليل ، ويتهايمسون وينفجرون بعد ذلك في قهقهات عدائيه وأناشيد حربية . سيطر الذعر على قلبي المرأتين حين اكتشفتا مسحة الحزن على تخوم الأناشيد وخافتا على أبنائهما .

كان الجور مثقلاً بالاحتمالات .

و ذات ليلة وقع ما كان بالحسبان . أوقف جومو كينيياتا وغيره من قادة البلاد وفرض الحاكم بارينغ حالة الطوارئ على كينيا .

بعد بضعة شهور من فرض حالة الطوارئ كانت مومبي تقف خارج كوخها تنظر بعينين حالمتين إلى الأرض . لم يكن غيركونيو في المشغل كما كانت وانغري قد ذهبت إلى النهر . شجيرات الأسبجية غير المقضبة التي كانت تحيط بالمنازل المتبعثرة كان من الممكن أن تجعل النجد يبدو وكأنه أجمة برية واحدة لانهاية لها لولا تلك الخيوط الدخانية المتعرجة والمنطلقة من الأكواخ العديدة ، التي جعلت المنطقة تبد ودية وآمنة . كانت الشمس على وشك الغروب . السياج الصغير الذي كان يحيط بمنزل مومبي الحديد كان يتمايل . بصمت مطلق شعرت بنشوة عارمة بهذا المشهد الذي أمامها .

شاهدت كاريوخى أخاها الأصغر يسير ضمن الحقول . كان الدفء يغمر مومبي ، انبسطت أساريرها لرؤية الصبي قادماً لزيارتها . لقد كانت تحب كاريوخى وكانت قبل زواجها دائماً تغسل له ملابسه وتكويها بكل عناية . كانت تنهض باكراً في الصباح لتحضر له الشاي قبل ذهابه إلى المدرسة . وعلى الرغم من حبها لكيهيكو ومن إعجابها به واتكائها عليه لأنه الأقوى ، بغض النظر عن عدم فهمها له ، فقد كان كاريوخى هو من تغمره برعايتها كأخت . وكثيراً ما كانت

تتمتزه مع كاريوخى فى البرية وتصغى إلى ثمرات الصبى عن أى شىء
باءاً بالمدرسة وانتهاء بالنساء . كانت تقرّعه ، دون قناعة كبيرة منها ،
كلما أطلق التعليقات على النساء والرجال الكبار . بعدما كان كاريوخى
يصطنع الملامح الهزلية وتنفجر ابتسامة مومبى الخفيه فى ضحك عالى .

كان كاريوخى مرتدياً ثيابه المدرسية ، وحينما اقترب من مومبى
أصيبت بالذعر لرؤيته مقطب الوجه . تلاشى البريق من عينها وتبددت
نشوتها الداخلية وتحولت إلى قلق وتحفزت للتصرف .

— ماخطبك ياكاريوخى ؟ هل طراً مايسوء فى البيت ؟

— هل غيكونيو فى الداخل ؟ سألها كاريوخى متحاشياً نظراتها وسؤالها .

— لا . ليس فى الداخل . ولكن ماالخطب ؟ لكم يرعبنى وجهك .

— لاشيء . ليس أكثر من أن والدى أرسلنى كى أطلب من
غيكونيو أن يرافقنى إلى البيت وأنت أيضاً .

كان الصبى مطرق الرأس . لقا خفت صوته لحد الهمس على الرغم
من محاولته الواضحة للحفاظ على صوته عالياً . الآن شخص كاريوخى
ببصره إلى مومبى والتمع فى عينيه شىء يشبه الدموع .

« الأمر يتعلق بأخيـنا ، كيهيكا . . . آه يا مومبى ، هرب كيهيكا
إلى الغابة كى يقاتل » ، أضاف قائلاً وألقى بنفسه بين ذراعى مومبى .
تشبثت الأخت بأخيها هنيهة من الزمن . دارت ثاباي ومادت تحت قدمي
مومبى . ثم توقفت الأرض عن الدوران وبدأت آمنة تقريباً .

« مالذي يجب علينا فعله ؟ » سألت مومبي .

حلت الظلمة في الخارج . غادرت وامبوكو وانجري كوخ مبوغوا واتجهتا إلى البيت . سارتا صامتتين لأن كلاهما كانتا مثقلة بهمومها الخاصة . تذكرت وامبوكو ذلك المشهد في الكوخ الذي فرّج لها همومها القابية لزمان قصير . لقد جاس مبوغوا مطرقاً مصغياً إلى رواية وامبوكو دون أن يقطعها ، وما تلفت إليها إلا بعد أن اختتمت روايتها .

— هل قال بأن الغابة مأواه ؟

— نعم .

— مالذي دخل في رأسه ؟ أليس عندي من الأرض مايكفيه ، وأحفاده ، طيالة حياته ؟ وترك إلى مومبي أن تضع هذا المصاب الأليم في منظور واضح .

« اختلفت الأمور باعتقال جومو . لقد تم اعتقال قادة البلاد كلهم ولا نعلم إلى أين اقتيدوا . فهل تتصور أن كيهيكا ، وقد كان قائد الحزب في هذه المنطقة ، كان بوسعه الهرب من الذراع القوي للإنسان الأبيض؟ كان عليه أن يختار ما بين السجن وبين الغابة ، فاختار الغابة » .
— « لتكون مشيئة الله . » قال مبوغوا . هزت وانجيكو رأسها بالموافقة والتعاطف مع زوجها .

أخفت وامبوكو دموعها بصعوبة ، ولكنها الآن ، في الظلمة ، بكّت بصمت وفاض حزنها كامات .
— إن لجوءه للغابة من فعل الشيطان .

— هل ستاتحقين به ؟ سألتها الأنجري .

— « لا » صاحبت بانفعال في ظلمة الليل . « لقد مضى بعيداً عني ، لقد هرب من بين ذراعي . يا أنجري لقد توسلت إليه أن يبقى ، وذرفت الدموع . كنا وحدنا خارج بيتنا . جاء كي يقول لي بأنه ماض إلى الغابة ، وسألني فيما إذا كنت سأنتظر عودته . فذكرته بالوعد الذي قطعه على نفسه ذات مرة أمامي في غابة كينيي ، حين قال بأنه لن يتخلى عني أبداً . ولكنه هاقد مضى الآن بعيداً — » .

— ألا تحبينه ؟ سألتها الأنجري بالهجة ثم عن الازدراء والفوقية .
— أحبه — لقد أحببته ، تعففت عن بنية الرجال كرمي له .
في عتمة الليالي ماكنت أفكر بأحد سواه . كنت بحاجة إليه . كان بمقدوري أن أنقذه . كان رجلاً ولكنه كان ضعيفاً ، ضعيفاً ضعيفاً طفلاً صغير .
— ماكنت تحبينه قط . كنت تريدن منه أن ينام معك فمحسب .
قالت الأنجري بسم غير منتظر فاجأ وامبوكو .

— ليس بوسعك أن تدليني على مافي داخل قاي .

— بعض الناس لا يعرفون مافي قلوبهم .

— ولكنني أنا أعرف . أنت غيور .

— أمئك ؟ أبداً .

انفصاتا دون إضافة كلمة أخرى . وعلى الرغم من أن الأنجري كانت فتاة قصيرة فان نحول جسمها جعلها تبدو طويلة القامة . ولكن الحشوة كانت تكمن خلف ذلك النحول . كانت تحتقر ضعيف النساء ،

كذرف الدموع مثلاً ، وكانت حينما ينشب العراك في كيني تشارك فيه دائماً حتى ضد الرجال . هرة كان الرجال يلقبونها لأن من استطاعوا التغلب عليها جسدياً كانوا يعدّون على الأصابع . والآن بدأ يخالجها إحساسها بالتفوق وبأنها أقوى من وامبوكو ، فما كان لها مناص من احتشار وامبوكو . وقفت وحيدة في الظلمة خارج بيتها تحديق باتجاه غابة كيني .

« لأنه هناك » همست لنفسها . ثم خاطبته مباشرة بتبتّل عاطفي . « أنت فارسي » صاحت بأعلى صوتها وتركت العنان لغيتها الذي أطالت كظمه . « إنها لاتحبك يا كيهيكا ، إنها غير آبهة بك » . سارت بضع خطوات أخرى ثم استدارت إلى الخلف وهي تتمنى أن تحمل أمواج العتمة لكيهيكا بوحها بالتبتّل الأبدي له .

« أنا قادمة إليك ، يافارسي الوسيم ، قادمة إليك » ، صاحت وركضت إلى كوخ أمها ترتعد فرقاً لإدراكها بأنها قطعت وعداً على نفسها لكيهيكا ، وعداً لارجوع عنه .

* * *

كان غيكونيو دائماً يعود في المساء إلى سرّ لايشاطره أحد فيه سوى مومي . كان يصون هذا السرّ بمنتهى الحرص عليه . ثابر على العمل في مشغله حيث كان يجتمع هناك كارانجا وآخرون غيره في العشيات ليطوّحوا بالشتائم والتحديات جزافاً وليعيدوا النظر — بكل اعتزاز — بالسير الشخصية لأحدث الرجال الذين التحقوا بكيهيكا .

لاحظت وانغري ومومي أن يد النجار ، وهو يدفع مسحجه بها فوق سطح الخشب ، لم تعد ثابتة كما كانت من قبل . وهذا أمر كانت وانغري تدركه وتحشاه كما حسبت . ولكن أنى لها أن تفسر الشر المتطاير من عينيه والحيوية المصاحبة لصوته ، وكأن إطلاق الأعيرة النارية في الهواء والبوق الذي يأمر الناس بأقفال أبوابهم في السادسة لا يمكن أن يمسا رجولته ؟ مومي وحدها هي التي شعرت بأنها تدرك ذلك لأنها كانت قد اختبرت يدي الرجل وأصابعه على جسدها ، كما عرفت قوة الرجل في طرفيه السفليين اللذين كانا يتركانها مسمرة على الأرض خائرة القوى . كان جسدها حينها يعيش حالة الترقب وجناحها يصطفقان تأهباً . تلك اللحظات كانت هي اللحظات التي يختبر المرء الرعب والرقعة فيها ، حينما كانت تشتهيها أيضاً وهي جلدى بسطوة الأنثى فيها مدركة أن رقتها ومعرفتها ، حينما كان الرجل يتخذّر لذة فيها ، هما ماتسعفانه وتعيدان الحياة إليه .

ماكانت تريد له الابتعاد عنها وكانت تكره نفسها من جراء هذا الجبن .

زاد عدد الرجال الموقوفين ونقلوا إلى مراكز التجمع - المعروفة باسم معسكرات الاعتقال للعالم الخارجي بعيداً عن كينيا . كاد رصيف المحطة يقفر من الناس . برّح الشوق الفتيات لعشاقهن خلف أكواخهن الباردة وابتهلن لعودتهم بسرعة من الغابة أو من المعتقلات .

وفي أحد الأيام امتدت ذراع الإنسان الأبيض إلى باب كوخ مومي . لقد كانت تتوقع هذا اليوم بهلع شديد وكانت قد سلّحت نفسها ، في الواقع ، حيال قدومه المميت . ولكن ما أن أذفت الساعة حتى وجدت نفسها خائفة القوى عاجزة عن إنقاذ زوجها . استجمعت كل لإرادتها وكل قوتها وأفرغتهما في صرخة مدوية قطعت نياط قلوب العديد من الحاضرين : « عد إلي ياغيكونيو » . كانت الصرخة أشبه بزعقة الرعب . سيطر هذا الرعب المحموم على ثاباي كلها حين علم أهلها في الهزيع الأخير من الليل أن غيتوغو ، الصبي الأبكم الأصم ، ابن المرأة العجوز ، قد أُردي قتيلاً برصاص رسل سلام الإنسان الأبيض .

ربما لم يعرفوا أن من المناسب لمثل تلك الحملة الهامة أن تنفتح بالدم على تربة ثاباي الخاصة .

سار غيكونيو إلى المعتقل بخطى ثابتة نتيجة يقين هو وليد معرفته بالحب والحياة . سرعان ما ينتهي هذا الشيء بوجه من الوجوه . سيربح جومو المعركة ، هاقد وصل محاموه بعد أن قطعوا كل تلك المسافة من بلاد الإنسان الأبيض ومن هند غاندي . إن يوم الخلاص قاب قوسين أو أدنى . ولسوف يعود غيكونيو ويتمسك بأهداب الحياة — ولكن في بلد المجد والعطاء هذه المرة . هذا ما كان يريد الإفضاء به لأمه ولمومي حينما كان العساكر يقتادونه إلى الشاحنة العسكرية . وليفعل

الإنسان الأبيض وقتها ما يريد . لابد من مجيء ذلك اليوم — يبعد قيد
أثملة ليس إلا — الذى يعود فيه إلى ثاباى كي يزلزل الأرض ، بصحبة
من اختفوا فى الغابة ، بأغنية جديدة احتفاء بولد الحرية .

بعد مرور ست سنوات على اعتقال غيكونيو كانت صورة ذلك
الأمّل الواهي تدغدغ خيال غيكونيو وهو يسير على درب ترابي عائداً
إلى ثاباى . نكّس قبعته (وقد كان تلقفها من على قارعة الطريق) إلى
الأسفل كي يخفي بها مااستجدّ على رأسه من ذوائب الزغب التي
لولاها لبدا رأسه رأس عقائدي أصلع ، ولكنها كانت وسيلة عقيمة
باعتبار أن القبعة ذاتها كانت مهترئة جداً . وسترته المرقّعة برقاع كثيرة
— وقد كانت بيضاء فيما مضى غير أن الاستعمال اليومي قد أحالها إلى
لون أصفر ولون بني — كانت تتهدّل فضفاضة من كتفيه الهزيلتين .
ووجهه الذي كان يتفجر نضارة قبل ست سنوات ظهرت فيه الآن
تحاعيد صغيرة — حول الفم أثناء إغلاقه — تخلّق انطباعاً بديمومة تقطيعه
وكان غيكونيو سيستشيط غيظاً لدى أدنى إثارة .

كانت الأرض الوعرة المقصوفة بالقنابل تنزلق على الجانبين .
ثمّة محاصيل مهزولة تنتعش محمداً الآن بعد جفاف حديث العهد وهو
مصبية جديدة أخرى حلت بالبلاد في هذه الآونة وتركت وجوه
الأمهات القلقة يابسة متصدعة وتظهر متبعثرة هنا وهناك على مزق
من المزارع المنتشرة على كلا جانبي الطريق . ولكن غيكونيو لم يعر

اهتماماً للبؤس الذي كان حوله وهو ينفذ الخطأ على الطريق تحته صورة الزوجة - مومي - التي خلفها وراءه . كانت هذه الصورة توميء إليه بحركة فيه عواطف كادت تتصدع بفعل المشقات الجسدية وكروب الانتظار . غيكونيو وقد شعر بالوحدة والتحرر من وهم استقلال وشيك ، تشبث بمومي ووانغري باعتبارهما الحقيقة الثابتة الوحيدة .

لسوف يقابلهما عما قريب . هذه الفكرة كانت تمدد بالقوة ساقيه المتعبتين ، وكان من الواضح أنه كان يحاول الاسراع في خطواته ، وكانت خطواته المتسارعة تلك تترك وراءه زوبعة من الغبار الخفيف . كان غيكونيو يتحرق شوقاً لهذه اللحظة بيأس متزايد كلما جاء عليه يوم ومضى . كان هذا الشوق شيئاً محمولاً خلال الأشهر القليلة الأولى من الاعتقال . وقتها كان من عادة المعتقلين أن ينشدوا أناشيد التحدي ليلاً نهاراً كما كانوا يضحكون باستهتار في وجه الإنسان الأبيض . ضرب بعض المعتقلين واستجوبوا كلهم بلا رأفة من قبل عملاء الحكومة الذين كانت سطوتهم تكمن في مجرد غموض لقبهم - الفرع الخاص . اتفق المعتقلون على عدم الحث بإيمانهم أو الإدلاء بأية تفاصيل عن الماو ماو : إذ ليس من المعقول أن يفصح أي فرد سر منعة العهد الوثيق في دعوة الآغيكويو للحرية الافريقية . لقد تحملوا كل شئ من الإنسان الأبيض معتقدين - بناء على أسس ما - بأن من يصمد حتى النهاية سوف تكلل هامته أكاليل الغار .

ومن سيجمل لإكليل الغار هذا إلى غيكونيو إن لم تكن مومي ؟
لقد تصورها بمنتهى الوضوح تحمل إليه ذلك الإكليل الأخضر بيدين
مرتعتين . إن إعادة جمع الشمل بينه وبين مومي ستشهد مولد كينيا
الجديدة .

وعلى الرغم من هذا التفاؤل ، أو ربما بسبه ، فإن أول نكسة حلت
بغيكونيو هزت أعماقه هزاً عنيفاً . ذهب إلى زنرائته الخاصة وحاول
أن يحل لغز مجريات الأمور كما تمت . ولما فشل في ذلك عاد وانضم
إلى المعتقلين الآخرين سعيّاً وراء محاولة جماعية لفهم بواطن هذه
الحديعة الشيطانية . لقد خسر جومو المعركة في كابن غوريا . إذأ سيعمد
الإنسان الأبيض لإخراص الأب وترك أيتامه بلا راع .

طبعاً لم يصدقوا ذلك في البداية . مدير المعتقل ، وقد كان رجلاً
سميناً تصطبغ بشرته باللون الأرجواني من أشعة الشمس ، استدعاهم
جميعهم من غرفهم الصغيرة إلى الباحة وناولهم مذياعاً — أول اتصال
لهم بالعالم الخارجي . المدير ، وقد دسّ يديه في جيوبه لأنه كان مغرمّاً
بارتداء البدة الخاكية القصيرة ، وقف على بعد مسافة عنهم وبابتسامة
راضية درس آثار الصدمة على وجوههم .

« سأقول لكم شيئاً . صدقوه أو لاتصدقوه : يريد الإنسان الأبيض
تخطيطنا بالأكاذيب » قال لهم غاتو وهو معتقل من نايري ، كان يزرع
فيهم دائماً الصلابة والأمل . كان لغاتو طريقته الخاصة برواية النواذر

والحكاياء ، طريقة تنتزع الإصغاء إليه انتزاعاً من أي إنسان . ارتسمت على شذقيه ابتسامة ساخرة نقلت عدداً من المعتقلين من الكآبة إلى الضحك والحماسة . حتى طريقته العادية في المشي كانت تثير الضحك حين كان يقلد مشية وتصرفات الضباط والسجّانين البيض . كانت نوادره وحكاياته تنطوي على حكم أخلاقية . وجهه الباسم وعينه الضاحكتان دليل على نوع من الحكمة المؤكدة . ولكن صوته في ذلك اليوم كان واهناً ومسحة الإقناع فيه واهية . ومع ذلك فإن معتقلي (يالا) تشبثوا بكلماته وواجهوا الاستهزاءات الصامتة للإنسان الأبيض بتكذيب صريح وأسأوا تفسيرها بابتسامتهم الفاترة أو قهقهاتهم الصاخبة .

اندس كل معتقل في فراشه على الأرض . صاروا نهاراً يتحاشون الحديث عن جومو أو نسج التصورات عن نتيجة القضية في كابن غوريا . كفت واحداهم عن النظر في عيون الآخرين كيلا يقرأوا أفكار بعضهم بعضاً . منذ عهد بعيد اعتقل هاري الشاب أيضاً وصدر عليه الحكم بالنفي إلى جزيرة في المحيط الهندي مدة سبع سنوات . عاد بعد ذلك إنساناً محطماً وقد وعد بالتعاون الأبدي مع جلاديه مندداً بالحزب الذي ساهم في بنائه . إن ما حدث بالأمس قد يحدث اليوم . الشيء نفسه يعود دائماً وأبداً عبر مسيرة التاريخ .

وفجأة ذات ليلة صدقوا الأنباء ، المعتقلون كلهم عن بكرة أبيهم . لم يبيع واحداهم للآخر بتصديقه ، بل صادف أن اجتمع بعضهم ببعض في باحاتهم وطفقوا ينشدون .

أصبحى يوم الخلاص سراباً . حاء مدير المعتقل يحمل بوقاً ويحيط به حراس مسلحون وأمرهم بالعودة إلى زناناتهم ، فتنفروا دونما نأمة (اللهم إلا حميف أقدامهم) ودونما صحاك .

لمد تُخلدوا في صحراء لا يصل إليهم فيها حتى صوت شارد من الدنيا . وهذا ما أدخل الرعب على قلب غيكونيو — فمن سيأتي إذًا لإنقاذهم ؟ إن الشمس ستحرقهم وتميتهم ولسوف يدفنون في الرمضاء وتندرس فيها آثار قبورهم إلى الأبد . إن فكرة طمس الهوية من على سطح الأرض حتى بعد الممات بدأت تعمق اليأس لدى غيكونيو وهو يتذكر مومبي ووانغري ، وأخذت تراوده من حين إلى آخر مما كان يجعله ينصب عرقاً بارداً في الليالي القارسة . وفي أمثال تلك الأوقات كان يعجز حتى عن النطق بكلمات الصلوات .

وعلى الرغم من هذا فقد أخلص المعتقلون في (يالا) لأيمانهم ولم يخونوا عهودهم . وبقي غاتو منارتهم الطيبة . انضم إلى الحزب في بواكر حياته وكان عنصراً نشيطاً في ذلك السعي المحموم ابتغاء المدارس المستفلة في نايري . كان إيمانه بالحزب عميقاً ولم يكن يرى أي أفق للاستقلال وإعادة الأراضي المسلوبة إلا من خلال الحزب ، كما كان مسؤولاً حزبياً كبيراً في نايري ، وكان ينتقل من قرية لأخرى سيراً على قدميه . كان غاتو يعرف الكثير عن الأحزاب السياسية وعن حركات

التحرر في البلدان الأخرى . ولطالما كان يدخل البهجة على قلوب
المعتقلين الآخرين برواياته عن الهند وعن محاكمات نهرو وغاندي .
لقد حدثهم أيضاً عن حرب الاستقلال الأمريكية وعن كيفية إصدار
الحكم بالإعدام على ابراهام لينكولن من قبل البريطانيين وذلك لقيادته
ثورة جماهير السود . كان نابليون محارباً بل ومن أعظم المحاربين
في التاريخ . كان مجرد صوته يجعل الانكليز يتبولون ويتغوطون
على سيقانهم حتى وهم داخل بيوتهم . هذه الروايات كانت تدخل
البهجة على قلوبهم . لقد شعروا بأن غاندي ونابليون وليسكوان كانوا
يتطلعون إلى جماهير السود في كينيا في صراعهم من أجل التحرر .
حتى حراس السجن الأفارقة كانت قصص غاتو تؤثر فيهم ، وهم
يصغون إليه بمتعة يخالطها الخوف . منصفين نظرة اللاهوتية على
وجوههم . كانوا يتهكمون على غاتو وعلى لسانه السليط في الوقت
الذي كانت فيه قلوبهم راضية عنه ولذلك لم يحاولوا منعه من الكلام .
كان الرجال يدبرون الخطط للعمل بعد الاعتقال . لقد بحثوا
التربية والزراعة وشؤون الحكم وكانت في جعبة غاتو روايات مجبوكية
عن كل هذه الموضوعات . حكى لهم مثلاً قصة رائعة عما حدث ذات
مرة في روسيا حيث كان المواطن العادي ، حتى دون معرفته بالقراءة
ومع جهله بقراءة أو كتابة كلمة إنكليزية واحدة ، هو الذي يدير
شؤون الحكم . والآن أصبحت أمم الأرض قاطبة تخشى روسيا . لم يكن
يسكت غاتو حتى لو تعرض لأي نوع من أنواع الضرب . كان يعود

إلى الآخرين ويعيد تمثيل المسرحية التي عاشها في المكتب . ففلاً الأصوات الانكليزية مصطنعاً ملامح الانكليز بكل هزء . وفي النهاية احتجزوه وحيداً في زنزانه منفردة . ومرت الأيام دون السماح له برؤية الشمس أو التحدث إلى أي إنسان آخر . كانوا لا يقدمون له في اليوم إلا وجبة واحدة من الطعام يأكلها في العنمة . أخيراً أخرجوه وانضم إلى المعتقلين في المهجع .

« ما الذي حدث ؟ » سأله المعتقلون بشوق . وهذا اعتراف منهم بأنهم قد افتقدوه .

« تناسوا هؤلاء الناس . إنهم بلداء بلادة الليل البهيم . سأسرد عليكم بدلاً من ذلك . سيرة حياتي بأكملها . ولدت في واد من الوديان . كان الحشيش في ذلك الوادي — يا صاحبي — كثيفاً ووافر الخضرة . كانت الشمس تشرق عليه يومياً كما كان المطر ينهمر أيضاً والأشجار المثمرة تطل بأعناقها من الأرض . لطالما كنت أستلقي على الحشيش تحت أشعة الشمس وحبّة من الفواكة في يدي مصغيّاً لحرير مياه الجدول وأصوات الحيوانات البرية . لم يكن إنسان يعرف شيئاً عن هذا الوادي ، كما كنت وقتها لأعرف المخاوف . وفي أحد الأيام أصابني الذهول لحضور زائر على عبر انتظار . هل تخمنون من هو ؟ يمكنكم ، على أية حال . أن تتخيلوا دهشتي حين رأيت الملكة الشهيرة — ملكة انكلترا . فقالت لي (مقلداً صوتها) : « لماذا تحبش في هذا المكان المظلم ؟ إنه يشبه زنزانه بارده مظلمة في السجن » . كنت وقتها مستلقياً هناك على

الحشيش ورأيت الدهول الكبير الذي أصيب به .. وهذا أمر طبيعي جداً - لأنني لم أسقط صريع شفتيها القرمزيتين . « أحب المكان الذي أنا فيه » . قلت لها وبقيت مستلقياً على الأرض . فقالت (وفلده صوتها مرة أخرى) : « إذا أنت بعني واديك هذا فإني أسمح لك ... » .
لمرة واحدة فقط » . النساء نساء كما تعلمون . « نحن في بلادنا » قلت لها « لانشترى ذلك الفعل من نساتنا . نحصل عليه مجاناً » . ولكن قضيتي طنق يورقني بإصاحبي ، إذ كانت قد مرت على أعوام وأعوام لم أنسها فيها امرأة . ولكنها ، وقبل أن أتمكن من إضافة كلمة أخرى ، استدعت عساكرها الذين قيدوا يدي وقدمي وقلدوا بي خارج الوادي . وها قد حثتكم للتو من هناك . وذاك هو سبب عودتي إليكم بإسادة إذا كنتم تستغربون » .

« بإصاحبي » قال بعد انتهاء الضحك « كم تمنيت لو أنني قبلت معها بتلك الصنفقة لكنك أشبع إذا قضيتي الذي يورقني حتى هذا اليوم » .

واصلوا ضحكهم . « أرنا كيف مشت » صاح أحد الرجال . فوقف غاتو وفلده المسرحية بكاملها وسط تلمات وتعليقات الاستحسان . لاحظ غيكونيو أن تخيلات غاتو تزداد جموحاً على مر الشهور وأن هناك ما يشبه نظرة المحبول في عينيه . وبدأ يطمح ببصره خلف الأسلاك الشائكة نحو أرض بعيدة جداً .

ذهبوا لتكسير الحجارة في مقلع يبعد خمسة أميال عن (يالا) لجلب الأحجار وبناء المساكن للضباط والسجنائين الجدد . بدأ معتقل يالا يتوسع بازدياد عدد المعتقلين الوافدين إليه والذين كانوا بمثابة وسيلة الاتصال الوحيدة مع العالم الخارجي . مشى غيكونيو والآخرون فوق الرمضاء على أرض مبهتلة متسعة بشجيرات الصبار وغيره من الشجيرات الشائكة . رفع غيكونيو المطرقة الضخمة وأنزله مراراً حتى صار يمارس ذلك ميكانيكياً . كان الطقس حاراً . فتسبب العرق منه حتى لرق قميصه بجسده الدبق . كانت الأرض المنبسطة البور تمتد على مساحة عريضة من الهضبة وتنحدر باتجاه الشاطئ حتى تخلص إلى وميض باهت . وفجأة وجد غيكونيو نفسه يدوس شيئاً ثقل له عقله وقلبه إلى عالم مختلف عن عالم المقلع ومنطقة يالا . بعد رواجه من مومي بوقت قصير أراد أن يقدم لها هدية من صنع يديه وإبداعه . وفكر في صنع أشياء عديدة لها ولكنه لم يتوصل إلى قرار . وفي أحد الأيام تنهى إلى سمعه حديث مومي ووانغري عن كراسي الغيكيو التقليدية . « في هذه الأيام لا يوجد حفرار وخشب » كانت تقول وانغري « ولذلك ليس بوسع المرء إلا ابتياع الكراسي والمقاعد التي وصل بعضها ببعض بالمسامير » . وسرعان ما تلهم غيكونيو لنحت كرسي لمومي يكون متميزاً عن غيره من الكراسي . وبقيت هذه الفكرة تستحوذ عليه لمدة عام كامل وتراوده في أزمته وأمكنة مختلفة . كان يصبح في غاية الانفعال ويهم بتنفيذ الفكرة بيد أن النموذج كان يخونه . والآن وجد نفسه وهو

في المقلع يفكر بذلك الكرسي ويقلب في ذهنه مختلف أنواع النماذج .
كان لا يزال في هذا الوضع حين أُرقت الدقائق القليلة لاستراحاتهم
وجلس غيكونيو قرب غاتو . كان وجه غاتو مكدوداً وبدت عيناه
الدامعتان كأنهما الشيء الوحيد الذي ينبض بالحياة فيه .

— ماخطبك يا صاح ؟ سأله غيكونيو .

— لا شيء .

— « يبدو إنك تفكر بشيء ما » تابع غيكونيو . وفاء وقع على
نموذج حطر له للتو .

— وما الذي يستحق التفكير به الآن ؟

— « الحرية » قال غيكونيو بلهجة المنتصر .

— « الحرية ! ماهي الحرية ؟ » سأل غاتو على مهلته بصوت مكبوت
كأنه صهيحه مخنوقة . هذا السؤال هدم النموذج لدى غيكونيو وحولّه
إلى إنسان كثيب في سريره . وفجأة التفت غاتو بعينه الدامعتين إلى
غيكونيو فأحس غيكونيو بالوثاق الرهيب الذي توثق بينهما . حاول
جاهداً أن يقاوم ذلك الوثاق ولكنه استسلم في النهاية . ولذلك كان
البادى بفتح مغاليق قلبه أمام غاتو . فحدثه عن ثاباي وعن وانغري
وعن مومبي . (كان الحديث عن العائلة والبيت موضوعاً محظوراً
باتفاق ضمني بين المعتقلين) . ولكن غيكونيو الآن حدث غاتو عن
رغبته الوحيدة المتمثلة برؤيه مومبي ولو لمرة واحدة ليس إلا .

« لماذا لم يخطر على بالي أن أقول لها حتى كلمة وداع حين اقتادني
العساكر بعيداً . لميها من الزمن بلدا غيكونيو وكأن عبثاً ثقيلاً قد
انزاح عن قلبه ولكنه سرعان ما شعر ببعض الحجل لانسياقه مع نفسه .
إن صمب غاتو الذي أعقب المدافع كلماته وشاعره كان أشبه بالتوبيخ .
وبعد ذلك أشاح غاتو ببصره بعيداً عن غيكونيو وبينما كان يحدف في
الأفق المتألىء تكلم بصوت واضح ناهب لا يكاد يتجاوز حدّ الخمس .

« كان فيها مضي رجل . وحيد لأبويه . أراد الزواج من امرأة
كانت بدورها ترغب بالزواج منه وإنجاب الأطفال . ولكن الرجل
دأب على تأجيل الزواج لأنه كان يريد بناء كوخ جديد كي يولد
الأطفال في كوخ مختلف « يمكننا بناؤه معاً » طالما قالت له . ولما
أعيها الانتظار في النهاية واكتشافها أن الحياة بدأت تنوي فيها تزوجت
إنساناً غيره ، بينما كان الرجل الأول ينابر في ماولته بناء الكوخ .
لم ينته من بنائه قط . شعبنا يقول بأن بناء البيت يستغرق العمر بطوله .
وبالنتيجة لم يتزوج ذلك الرجل بتاتاً ولم ينجب أطفالاً يحافظون على
نسل عائلته » .

وحالما اختتم غاتو قصته وقف وابتعد عن غيكونيو . « ضعيف ،
ضعيف كأني فرد منا » تتم غيكونيو بينه وبين نفسه وقد أخذته الرافة
بغاتو . كان غاتو يبدو دائماً في غاية الثقة وفي حرز حريز . وبمنتهى
القدرة على السخرية من نفسه ومن الآخرين : تحولت بعد ذلك رافة

غيكونيو إلى بغض عميق جداً بحيث أنه لم يدرك له سبباً . تحاشى الإثنين كل منهما الآخر طيلة بقية ذلك اليوم . وكأتهما قد ارتكبا إثمًا مشتركاً بل وأدركا بأنهما قد أقلما على ذلك .

غيكونيو مارأى غاتو مرة نانية قط . لأن ذلك المسؤول الحزبي الشهير ومسارة المعتقل وجد في اليوم التالي مشنوقاً على أحد جدران زنزانيته . خيتم الكآزة على يالا وما يحنوا أمره قط . اسم ذلك الرجل الذي نلقف الربوبة بكلتا يديه وأجهز على نفسه ، ماور ذكره على شفة بتاتاً في معتقل يالا . أصاب هذا الحدث غيكونيو بصدمة عنيقة . « كان يجب علي أن أدرك أن هذا الحدث سوف يحدث » قال لنفسه والذعر يحيم عليه من جراء جبنه .

ومرت الأيام تلوها الليالي بوقيرة مضنية . وطفق غيكونيو يسير . متلما فعلى غاتو من قبله . طائفاً بالباحة في الأمسيات فيبل مغيب الشمس . كانت كل باحة تتوزع فيها مهاجع المعتقل مسورة بالأسلاك الشائكة ، كما كان السور الخارجي للمعتقل برمته مطوقاً بالأسلاك الشائكة أيضاً . كان المعتقلون في الصباح يبتعدون عن الأسلاك الشائكة إلى الطرقات والمقالع ليعودوا في المساء إلى الأسلاك الشائكة . أسلاك شائكة فوق أسلاك شائكة تنتشر في كل مكان . هكذا هي الحالة اليوم وهكذا ستكون غداً أيضاً . أصبحت الأسلاك الشائكة تعشي بصر غيكونيو ، ليس ثمة شيء خلفها . لقد كتبت الأصوات البشرية عن اللغو وأصبح

العالم خارج المعتقل ميتاً . لا ، لربما أصيبت أذناه بالطرش وعيناه بالعمى ، تصور ذلك وهو في طريقه نحو سور الأسلاك الشائكة . أمضى عدة أيام بلا طعام . عاش على الماء . ولم يكن ليُشعر بأنه جائع أو واهن .

في إحدى الأمسيات ألقى نظرة بلهاء على الأسلاك ، وبانفعال طارئ ، شعر برغبة في البكاء أو الضحك ، ولكنه لم يفعل لا هذا ولا ذاك . على نحو بطيء ومتعمد (انسل خارج إطار نفسه وراقب أفعاله وكأنه ينظر إليها من مسافة بعيدة) دفع يده اليمنى داخل الأسلاك وغرز لحمه في الأشواك المعدنية الحادة . شعر غيكونيو بالوخز في لحمه ولكنه لم يشعر بأي ألم . سحب يده وشاهد الدم ينبجس منها ، ارتعدت فرائصه واستمتع بنشوة غريبة .

صوب الحارس البندقية باتجاه غيكونيو ظناً منه بأنه سيحاول الفرار ، ولما لاحظ بأنه لم يقدم على ذلك ناداه . سمع غيكونيو الصوت مثل الصدى القادم إليه من بعيد ، فسار باتجاهه مختلاً بتجربته الجديدة . رفجأة وقف أمام الحارس وحدق إلى وجهه بوقاحة ثم رفع يده كي يوى الحارس الدم ، وربما لكي يغبطه على فعله . الحارس ، وقد كان رقيقاً مثل حفنة قليلة من الحراس ، رأى تلك النظرة الحيرة في عيني غيكونيو . « ادخل واسترح » قال له واستدار فجأة وولى الأدبار هارباً تقريباً من قهقهة غيكونيو المشؤومة . في الزنازة اكتشف غيكونيو

أن كل شيء — الأسلاك الشائكة ، معتقل يالا ، وثاباي — قد تفسخ واستحال إلى ضباب لالون له . حاول جاهداً أن يتذكر ملامح وجه مومبي غير أن محاولته باءت بالفشل ، ولم يجد في ذهنه إلا سلسلة من الصور المتلاحقة التي سرعان ما تطرد واحدها الأخرى مباشرة . هل هو ميت ؟ وضع يده على صدره فأحس بخفقان قلبه وعرف بأنه مازال على قيد الحياة . فلماذا لا يتمكن إذاً من تثبيت الملامح الأساسية لمومبي في فكره على نحو مستديم ؟ ربما هي أيضاً قد انحلت وتلاشت في قلب الضباب . حاول أن يحيا ثانية ذلك المشهد في الغابة مع مومبي ، ولكنه أصيب بالذهول لأنه لم يعد يتذكر شيئاً . استغلق عليه كل شيء : الشهوة ، الرجولة المطلقة ، الصوت الحلاب لمومبي ، الهيجان المتفجر ، وحتى الإحساسات خبيت فأله في العودة إليه كأشياء من الماضي . وطيلة هذه الفترة كان غيكونيو يراقب نفسه ، يراقب تصرفاته — يراقب كل نائمة صدرت عنه ويراقب تراحم أفكاره عليه . لقد كان داخل نفسه وخارج نفسه في آن واحد — في نشوة كان يتأمل كل شيء بهدوء ، ولم يرتبك لإخفاق ذاكرته إلا على نحو طفيف . ربما أنا ضحية الإرهاق ، خطرت له هذه الفكرة . ربما إن وقفت على قدمي عاد كل ما يطبع شخصيتي الحقيقية لسابق عهده من النشاط . وهكذا هب واقفاً وفعلاً عادت الأمور لسابق عهدها من النشاط . فالغرفة مثلاً دارت به ودارت — حاول أن يمشي بيد أن الهلع هيمن عليه ، ترنح

مستنداً على الجدار ، وانطلق نغير من فمه وهو يسقط إلى الخلف على الأرض في ظلمة دامسة .

تدريجياً بدأ يسمع حفيفاً واهياً لأقدام تخشخش بين الأوراق اليابسة في غابة من الغابات . أرهف سمعه لعله يفهم تلك الجلبة التي سرعان ماتحوّلت إلى صوت مومي . رفع رأسه ولمح ابتسامتها الملائكية ويديها اللتين كانتا تحملان مشعلاً متأججاً لتبديد الظلمة من أمامها . مدت مومي يدها لترفعه عن الأرض ، مومي التي بدت في غاية الطهر ، حقيقة ممتنعة على الإفساد في عالم الأشباح المتغيرة . طهرها سحقه ، طرحه أرضاً . روّعه . إنني أعلم أن يسوعي حي ، صاح لها راکعاً أمامها ، وعلى حين غرة اكتسحته نشوة جديدة واشتهى أن يموت بمومي كما حدث له ذلك اليوم في الغابة ، ولئن مات بتلك الطريقة فلعله يحيا . إنها سوف تستقبله دونما ريب ، خطر له وهو مايزال أسير تلك النشوة حين غط في سبات عميق .

استيقظ صباحاً ووجد أنه يتضور جوعاً . كانت تؤلمه يميناه المتورّمة عند المعصم . لم يستطع أن يتذكر ماجرى له في الليلة السابقة ، بل كل ما عرفه هو أنه استفاق من حلم وهمي كان يسير فيه ويسير منذ تلك اللحظة التي شق غاتو نفسه فيها . رغبته برؤية مومي كانت لاتزال معه . ذهنه كان صافياً فعرف مايجب عليه أن يتصرف دونما إحساس بالإثم . سرت الاشاعة . تكوّم كل المعتقلين في يالا بجانب

جدران ساحات مهاجمهم يحدجونه بنظرات عدائية سافرة . ثبت غيكونيو كل ذهنه على مومي مخافة أن تخور قواه وتخونه ساقاه تحت وطأة الحملة الحرساء لكل المعتقلين الآخرين . تابع مسيره وتبدى له وقع أقدامه — على ذلك الرصيف الذي يفضى إلى المكتب الذي تجري فيه عمليات التنخيل والاستجوابات والاعترافات — بغياب أي ضجيج آخر ، صخباً لضرورة له . انغلق الباب خلفه . وعاد المعتقلون الآخرون إلى غرفهم بانتظار نزهة أخرى لهم إلى المقلع

: * :

حينما ترك غيكونيو الطريق ليسلك درباً بين الحقول ، كان لايزال بمقلوره أن يسمع وقع قدميه تتردد أصداءه على الرصيف الإسمنتي منذ أربع سنوات . لقد تبعته تلك الأصداء إلى كل سلسلة مكاتب الاستجواب التي اقتيد إليها لأنهم — على الرغم من الاعترافات التي أدلى بها — لم يعجلوا باطلاق سراحه . وحينما خضع لعملية التنخيل رفض الكشف عن اسم أي فرد متورط في قيادات التنظيم السري . ولكن هل ستبقى هذه الأصداء تطارده ، تساءل ، وقد سيطر عليه فجأة إحساس بالخوف مغتبة مقابلة فرد ما كان قد تعرف عليه في الأيام الخوالي . ماخالجه أي إحساس بالانتصار كما تقزّم عنده إحساسه بالبطولة . ليست أكاليل الغار الخضراء من نصيبه . ولكن غيكونيو وقتها لم يكن يريد تلك الأكاليل ، بل كل ما كان يريده كان مجرد رؤية مومي والتمسك بأهداب الحياة من حيث كان قد تركها .

كان الصبية في الشوارع ، عراة وأنصاف عراة ، يلعبون بالتراشق بالتراب الذي دخل بعض ذراته في عيني غيكونيو وفي حلقه . فرك عينيه بقفا يده (انهمر الدمع من عينيه) وسعل حائفاً . أوقف نسوة مجهولة وجوههن بالنسبة إليه وسألن عن كوخ وانغري . حلدجه بعضهن بنظرات العداء وأخريات هززن رؤوسهن بلا مبالاة ، مما دفعه في حماة القلق والغضب . وأخيراً أشار صبي صغير بيده إلى الطريق المؤدية إلى الكوخ . وشرع غيكونيو يسائل نفسه وهو سائر باتجاه الكوخ عما سيفعله حينما يقف أمام مومي وجهاً لوجه . الشك أعقب الشوق : ماذا لو كانت مومي في النهر أو في الحوانيت حين يصل إلى الكوخ ؟ أبوسعه الانتظار ساعة أخرى أو ساعتين حتى تتسنى له رؤيتها ؟ .

كاد عملياً يصطدم بها عند الباب . نظرت إليه مدة ثانية أو ثانيتين ، شهقت شهقة لاإرادية ، شبيهة بصوت أجش ، وتراجعت خطوة إلى الخلف فاغرة الفم وكأنها تفسح له طريق الدخول . شاهد غيكونيو طفلاً محزماً على ظهرها بشكل أمين . ذراعاه المرفوعتان تجمدا في الهواء ، ثم هبطا ببطء إلى جانبيه ، وكتلة سدت له حلقه .

— أهذا أنت حقاً ؟ كانت مومي أول من بادر بالكلام .

— نعم . من توقعت أن أكون ؟ قال همساً . اندفع الدخان الكثيف من الكوخ على وجهه مما اضطره للعودة خطوة عن الباب موسعاً بذلك

الفسحة القائمة بينه وبين مومي . بدأ الطفل يبكي ، رمقته مومي بنظرة
أم عجل قبل أن تتلفت مجدداً إلى زوجها .

— أنت ؟ سألته ثانية . « كنت أعلم أنك عائد ولكن ليس على
هذه السرعة .

— بهذه السرعة ؟ لفظ غيكونيو كلماتها وعينه الباطنية تمعن النظر
بمدى ست سنوات . لاشيء بدا له حقيقياً ، ولم يستطع أن يدرك كنه
ما قالت .

وانغري ، وقد أيقظتها الأصوات ، خرجت من الكوخ واندفعت
إلى غيكونيو .

« أي بني ! » صاحت وذراعاها تطوفان خصره والدموع تنهمر
على وجهها المهزول .

شعر غيكونيو بأن جسده ينشد من جراء عناق أمه . عرف دون
أن يخبره أحد بأن الطفل المحزّم على ظهر مومي كان بلرة رجل آخر .
هاقد ضاجعت مومي رجلاً غيرَه في غيابه . سنوات الانتظار ، الآمال
الزائفة ، الخطوات على الرصيف ، كلها اندفعت إلى قلبه كي تسخر
منه . اقتلها والطفل وضع حذاء لكل هذا الشقاء ، فكّر
فيما بينه وبين نفسه . وخلّص نفسه من عناق وانغري عملياً كي
ينفذ هذا القصد لإبان لحظة الحماسة ، بيد أنه بقي متسماً على الأرض .

نظرت وانغري باتجاه مومي التي كانت قد دخلت الكوخ من حيث تنهى إلى سمعها صوتها وهي تحاول هدهلة الطفل الباكي .

« ادخل الكوخ » دعتة وانغري . سمح غيكونيو لنفسه بالانقياد إلى داخل الكوخ المليء بالدخان وكأنه مشلول الإرادة . كانت مومي تحتضن الطفل بلراعيها وترضعه من ثديها . فجلس غيكونيو على كرسي من الكراسي . كانت تحتلس النظر إليه من حين إلى آخر . إنها تستهزئ بي ، قال لنفسه .

جالت عيناه من وانغري إلى مومي وبعدها حول الكوخ محاولاً أن يرى شيئاً يمكن أن يستقطب تركيزه . إن الصلابة المرة المفاجئة التي عاناها منذ بضع دقائق تلاشت الآن وحلت محلها كآبة ثقيلة . ليس للحياة طعم ولا لون . إنها صفيحة واحدة بيضاء لانهائية لها ، مسطحة غاية التسطح . لأودية فيها ولا جبال ولا جداول ولا أشجار — خالية من أي شيء . ومن ذا الذي حسب الحياة خيلاً يمكن أن يدأب الإنسان على حيائه حتى يعطيه نموذجاً من اختياره هو ؟ كان يدرك من أعماق فكره بأنه مكدود . وفي زاوية دفينية في أعماق فكره ذاك كانت الكلمات تتخذ لها شكلاً . فحرك غيكونيو شفثيه ميكانيكياً وتدفقت الكلمات بوضوح خالية من العواطف إلا الفضول المحض :

« ابن من ؟ »

لم تحر مومي جواباً وكل ما فعلته لم يكن أكثر من التفاته إلى غيكونيو

ومن ثم إلى الجدار الذي قبالتها . شعرت وانغري بالآلام الابن وبشقاء الكنتة . فبحشت في حنايا صدرها عن الكلمة المناسبة التي تروي غليله . لقد كانت تعرف دائماً أن عبء الحقيقة ثقيل على سامعها ، فانتزعت من نفسها كل قوة الأم وحنانها وأرسلتهما إليه وهي تفضي له بالحقيقة . « إنه ابن كارانجا » قالت صراحة . وانتظرت بشكل رزين وقوع مالا بدت منه . لقد توقعت منه أنة ، زعقة ، أو محاولة لقتل مومي . ولكنها لم تتوقع منه بتاتاً هذا الاستعجام الحيواني . « كارانجا ، صديقي ؟ » سأل بنفس تلك اللهجة المتجردة وهو يعاني من الخبرة أكثر مما يعاني من الألم .

— « نعم . أمور كهذه تحدث » قالت ثانية وانتظرت .

كان الطفل الآن نائماً على فخذي مومي ، زمومبي متكئة إلى الأمام تسند ييدها اليسرى رأس الطفل وظهره بكل رفق وبكل قوة . ذراعها الأيمن كان ملتويّاً عند المرفق ومستنداً إلى ركبته وإصبعها الصغيرة تضغط بلين على الشفة السفلى وتكشف عن أسنان بيضاء بياض الحليب . لم يتحرك غيكونيو . كان جالساً مستنداً إلى الخلف على عمود ، عيناه -جامدتان تارة حائمتان تارة أخرى لاتعبران عن شيء . حتى فكرة زيارات مومي لمخادع رجال غيره ليالياً على مدى السنوات الست الأخيرة بدت فكرة لاتزعجه . غيكونيو كالخلد لم يشعر بالجرح وما أدرك سبباً لجذله المرعب .

« لأنني متعب يأأماه . لقد سرت مسافة طويلة وأريد أن أنام »
قال . لم تفهم وانغري . وبلدأت مومي بالنحيب الآن .

مازار الكرى جفني غيكونيو . استلقى على قفاه وحملت في الظلمة وهو يدرك في كل لحظة تلك الأنفاس الثقيلة الصادرة عن المرأتين . لقد انتظر هذا اليوم بعارغ صبر طيلة ست سنوات ، ست سنوات في سبع معتقلات وهو يتوق لهذا اليوم ، يخالجه شعور ، هذا الزمن بطوله ، أن معنى الحياة يتجلى بعودته النهائية لمومي . ماكان يعير اهتماماً لأي شيء آخر : المعتقلات ، الجبال ، الأودية ، كان بمقدوره أن يشاهد بأمر عينه كل شيء ينظم من على ظهر الوجود دون أن يرف له جفن لو علم بأنه سيعود في خاتمة المطاف إلى المرأة التي خلفها ورائه . وقتها ماكان يخطر بباله إلا قليلاً ، بل وما خطر قط ، بأن عودته ستكون عودة إلى الصمت . هل من الممكن الآن عبور وادي الصمت القائم بينه وبين هذه المرأة ؟ وما الغاية من ذلك العبور لأنه ماان يصل إلى الجانب الآخر حتى يجد أن تلك المرأة التي كانت تنتظر بفارغ الصبر مجرد ابتعاده عنها قيد أنملة كي تندفع على عجل إلى مخدع رجل آخر ؟ لا ، إن هذا الصمت أبدي . لقد كان في مشغاه يعقد سموراً بلا كلمات مع وانغري . كانت مجرد نظرة منه في عينيها كافية لإدراك مخاوفها وهواجسها ومطامحها بالنسبة إليه . كانت تخطر في الكوخ العتيق بكل كهرياء الأم وثقتها . ويحضنها بقلته . كان يعرف متى تذهب إلى النهر وإلى الحوانيت أو إلى المزرعة . وجاءت

بعدئذٍ مومي كي تحتل . وقعها الصحيح ضمن سياق الأمور وتصفي
دفعاً جديداً على الحوار وعلى حياة البيت . لقد كانت مومي في مخدعه ،
حير تلقي برأسها على صدره أو تتنفس بالقرب منه ، هي من علمته :
هي من جعلته يدرك أن ملمس المرأة شيء ليس كمثله شيء في الوجود .
فماذا كان خلف هذا الملمس . هذا الالتحام ، الذي بالنسبة إليه أعطى
الحياة معنى ما ، وضوحاً ما ؟ حينها لم تكن الثروة ولا السلطة تنطويان
على أية أهمية مالم تغنيا ذلك الالتحام الصامت الذي تضطرم فيه الأشياء
الحية وتخرج كي تواجه النور . ولكن الصمت الذي عاد إليه الآن كان
صمتاً ميتاً . بقي مستلقياً هكذا في سرير يراقب سلسلة لانهاية لها من
الصور تندفع من ذهنه المحموم . لعل نور الصباح يجد له مخرجاً .

ولكن الشمس لم تجلب له السلوى . إذ باكراً في الصباح زعق
الطفل مذكراً باحتياجاته فأوقدت مومي النار وأمسكت الطفل إلى
إلى ثديها مرة أخرى . استمر الطفل في عويله يعمل تمزيقاً بأعصاب
غيكونيو . «اطرح الطفل أرضاً ، ادفع بهذا الشيء القذر إلى مهاوي
الصمت» ، خطر لغيكونيو دون أن يحاول النهوض من السرير . لم يكن
يريد رؤية عيني مومي ولا أنفها ولا فمها — ومع ذلك فيا للألم العذب
الذي سببه له ذلك الوجه في المعتقل ؟ انكفاً الآن على نفسه لورود فكرة
خاطفة حول ملمس يدي مومي على جسده . كف الطفل عن البكاء
والعويل حين شرع يرضع ثدي أمه . ربما لم يكن قتل الطفل هو

التصرف الصحيح ، ولكن الموقف الذي أدى لخلق الطفل سيبقى
ينبغ على ذهنه : لقد مضت مومي إلى مخدع رجل آخر ، وسمحت بل
أولجت عملياً المتاع المتطاوح لرجل آخر بين فخذيه ، وهلل جسدها
بكل انتشاء لدفق بذور ذلك الإنسان فيها . أمر ماوقع مرة واحدة
وحسب بل كل ليلة على مدى السنوات الست الأخيرة . لقد خانت
العهد ، السر ، الذي بينهما : أو ربما لم يكن بينهما أية وشائج حميمة
قط ، لاشيء من ذلك الذي يمكن أن يترعرع بين إنسانين ، واحد
منهما عاش وحيداً ومضى إلى قبره ، مثل غاتو ، وحيداً . كان غيكو نيو
يتحلب بكل نهم البهجة المرة من هذا التصور الذي كان يرى فيه
كشفاً مرعباً . إن معاش المرء وحيداً وموته وحيداً هو الحقيقة المطلقة .

خرج من الكوخ — كم كان يعبق بالدخان الكثيف — وتجول
في قرية ثاباي الجديدة حيث كان هذا الشارع يفضي إلى ذاك وكانت
سحب الغبار تتجرر خلف كعبيه . حتى الهواء كان يسبب له الاختناق .
لم تعد ثاباي أكثر من معتقل آخر له ، فهل يستطيع الإفلات منها قط ؟
ولكن أين يمضي ؟ سار على الطريق الاسفلتي الذي قاده إلى رونجي .
ها إن حوانيت الهنود قد انتقلت إلى مركز جديد ، والأبنية الطويلة
مبنية من الحجارة ، والأضواء الكهربائية والشوارع الإسفلتية جعلت
المنطقة تبدو على شكل حارة من مدينة ضخمة . كانت الروائح نفوح
من البالوعات التي لم ينظفها أحد منذ عام . تابع مسيره حتى وصل إلى

الحوانيت الافريقية في رونجي : كانت كلها مغلقة ، وكانت الحشائش الطويلة والشجيرات البرية قد اعترشت على جدران الأبنية الصدفية وغطت الأرض التي كانت ذات مرة هي السوق . كانت جدران معظم الأبنية مقصوفة بالقنابل مما أحدث فيها فجوات كبيرة مفتوحة الأشداق ، وأبواب مهشمة ممزقة كانت تحرق إليه — مجرد خرائب ليست أكثر من تلميحات عن حضارة أقدم . عند باب أحد الأبنية التقط غيكونيو لوحاً مكسوراً ، حروفه الكبيرة الباهتة فقدت أطرافها السفلية والعلوية . ولكنه بعد تمعن دقيق تمكن أن يستنبط منها كلمة « فندق » . في الداخل كانت كومة من التراب وحطام أوان فخارية متكسرة وصحون وكؤوس مبعثرة على الأرض . نقر ثم قرع ثم خبط على الجدار بالنهاية المستدقة للوح المكسور ، وفجأة انهال الاسمنت والتراب بكميات متزايدة جوفاء ، وبدا أن الجدار على وشك التداعي والانهيار . اندفع غيكونيو إلى الخارج خائفاً من البناء ، من رونجي المبتلاة بالأشباح ، وما توقف عن عدوه إلى أن دخل الحقول . الحوانيت الافريقية ، كما علم فيما بعد ، أجبرت على إغلاق أبوابها كعقاب جماعي للنجود كافة . سار غيكونيو على الدروب بين الحقول المسيجة بشكل أنيق — كنتيجة لتجميل الأراضي — وحاول أن يغمض عينيه كي لا يشاهد أية تغيرات أخرى . كان كلما لمسه شيء ، حشيشاً كان أو فصول الشجيرات ، يحفل ويرتعش . وفي النجد توقف ونظر ثانية إلى القرية الجديدة — كانت الأكواخ والحشائش تعيش متعاقبة بعضها

ببعض . الدخان الأزرق المنبعث من بضعة أكواخ تبتد في شمس الظهيرة الساطعة . في الليلة السابقة كان الأمر مختلفاً جداً ، إذ وقتها كان الدخان المتعرج من سقوف الأكواخ المختلفة متجمعاً فوق القرية على شكل مظلة ساكنة هادئة . وخلف المظلة كانت خيوط الشمس القانية المنبعثة من الشمس الغاربة تنتشر من المركز وتحلل إلى ظلال متنوعة الألوان منها البني ومنها الأصفر عند التخوم ، لكي تنحل بعد مسافة بعيدة إلى لون قاتم داكن . ولكن لاشيء الآن في هذه القرية الجديدة يشده إليها ، حتى أكواخها لم ترقص قلبه طرباً كما فعلت في الليلة السابقة . هل ثمة مكان آخر يستطيع الذهاب إليه ، هل بمقدوره الذهاب إلى منطقة أخرى ؟ إن أصداء الخطوات على الرصيف ، الطفل الباكي ، وصورة الأم ترضع وليدها ، ستحتوذ عليه دائماً في حله وترحاله .

وفجأة تذكر غيكونيو أن عليه أن يبلغ الرئيس عن وصوله إلى القرية . لم يكن قانون الطوارئ قد ألغي بعد : كان الإنسان الأبيض لا يزال يسعل وكان الناس أينما كانوا يرقصون على هذا اللحن مهما كان مقيتاً . لم يجد أية صعوبة في العثور على بيت الرئيس . كان بيته يقوم وسط مجمع مركز الحرس الوطني في ثاباي . وعلى الجانب الآخر للمركز ، وتحتة ، كان يمتد الطريق الاسفلتي من ناكورو إلى المدينة الكبيرة .

وقف على باب بيت الرئيس وطفقت الأرض تميد تحت قدميه .

حملق غيكونيو في وجه الرئيس الصارم الملامح . كان القدر يسخر منه .
هذا أمر غير معقول .

« ادخل » قال كارانجا . استغلاق الأمور على مداركه هز غيكونيو
بشكل عنيف

— كارانجا ، رئيس ؟ كان كارانجا يجلس منتصب القامة خلف
الطاولة . الآن وقد قطب حاجبيه أضاف عبوسه قسوة جديدة إلى
تجهّم وجهه .

« قلت ادخل » كرّر كارانجا بصوت عال لامبرر له .

دخل غيكونيو باحتراس شديد وأفكار متضاربة تختلط في ذهنه .
جلس على كرسي وعضّ على شفته السفلى كي يخنق مرارة قريبة من
البكاء في الوقت الذي كانت الهمسات فيه تنسل ، كلها بوقت واحد ،
إلى داخل عقله وقلبه : لقد كان الإله قاسياً عليه وإلا ، فلماذا لم يجنبه
هذا الإذلال ؟ ورأى كارانجا ، صديقه العتيد ، يراقب ردود أفعاله
كلها ، كارانجا الذي شرع الآن يتحدث إلى غيكونيو وكأنه لا يعرفه ،
وكان غيكونيو أحد المجرمين .

« حسناً » كان يقول كارانجا وهو ينتزع صفحة مطبوعة من الورق
كانت معلقة على الجدار . « أنت — أنت غيكونيو ، ابن — ابن واروهيو »
أكمل حديثه وهو يخطّ إشارة على الورقة . راقب غيكونيو كل هذا

ورأسه مطرق كرأس لإنسان كهل ، وغرز أسنانه في شفته السفلى على نحو أعمق .

« اصغ جيداً ، هاقد عدت الآن إلى حياة طبيعية في القرية . الناس هنا يطيعون القانون ، أسمع ؟ لاجتماعات ليلية ، لاقصص عن غاندي وعن الوحدة وعن كل هذه الهرطقات . الإنسان الأبيض جاء إلى هنا لكي يبقى » .

وقف غيكونيو فجأة ، ودون أن يشعر بماذا كان يتصرف ، ذهب باتجاه الباب . تركه كارانجا إلى أن وصل الباب ثم صاح به : « توقف » ، فتوقف غيكونيو كأن الصوت قد أصابه بالشلل ، ثم استدار ووقف منتظراً .

— إلى أين أنت ذاهب ؟

« إليك » فتح مجيباً على سؤاله مندفعاً نحو الطاولة ويده ممدودتان كي تصلا إلى رقبة كارانجا . توقف قبل أن يصل إلى الطاولة وأطلق شهقة رعب : لقد كان كارانجا يصبو مسدساً إلى قلب غيكونيو .

« اجلس ، ياغيكونيو » .

جلس غيكونيو على الكرسي . كان جسده يرتعش بشكل ظاهر للعيان ، كان كل شيء أمامه ينتحل طبيعة الحلم ، ولكنه بصق على الأرض وشحن بصاقه بمقدار ما استطاع من الاشمزاز .

« بإمكانك أن تبصق على الأرض » قال كارانجا بزهو واضح ،
متكئاً على كرسيه واضعاً المسدس على الطاولة . ولكن دعني أقول
لك هذا الشيء كصديق .

—« عليك أن تحفظ درسك جيداً . أترى برج المراقبة في الخارج ؟
كلمة واحدة مني عما حاولت فعله الآن ، وسيكون البرج مأواك
لأسبوع أو اسبوعين » .

« لقد حدث كل شيء بلمح البصر حتى إن غيكونيو أخفق في
فرز المشاعر والأفكار التي هومت في فكره : كل ما عرفه هو أن ذلك
الإنسان الذي أقسم معه على محاربة الإنسان الأبيض ، ذلك الإنسان
الذي كان يعزف معه الغيتار ، الإنسان الذي كان دائماً يأتي إلى المشغل
من أجل النسيمة ، ذلك الإنسان هو من يصرخ في وجهه الآن .

وما خرج من بيت الرئيس ومكتبه حتى تذكر أن كارانجا كان
الرجل الذي ضاجع مومبي والذي حملت له طفلاً في رحمها لشعة
أشهر . ولسبب ما لم يترسخ اسم كارانجا في ذهن غيكونيو المحموم :
طيلة الليلة السابقة والنهار بطوله ما كان يفكر إلا بمضاجعة مومبي لرجال
آخرين . ولا مرة واحدة ، ولا حتى في المكتب . أدخل كارانجا في
إطار عذابه الآخر الذي كان يقبع ، إذا جاز التعبير ، في حيز متميز
من ذهنه . ولكن الآن صورة مومبي وهي تتأوه لذة حين كان جسدها
العاري يتلوى تحت جسد كارانجا الثقيل ، لازمته أينما حل . أعاد
خلق ذلك المشهد بكل تفاصيله الدنيئة : صريف السرير : أصابع
كارانجا تتلمس مومبي في كل أنحاء جسدها ، لهاثها العميق يتحد في

لهات واحد - و ، آه ، يا الله ، التنهيدات ، تلك التنهيدات ؟ سرت شي
أوصاله رعدة طويلة مستديمة ، ثم ترنح نحو شجرة صغيرة بمحاذاة
الطريق وتشبث بها . بيد أن الصور ما كفت عن الورد على ذهنه .
كارانجا يعتلي مومي . وجد نفسه يتطرق لتفاصيل بعيدة عن الموضوع ،
يزعج بها نفسه ، مثلاً ، تساءل ما إذا كانت مومي قد أثبت من المتعة
لبان هزة الحماع وقبل أن ينتهي من تفاصيل ذلك المشهد
أعول وأطلق صرخة حادة . ترك الشجرة . ركض على الشارع باتجاه
كوخ أمه . إن المرأة التي تنهدت تحت جسد كارانجا العرقان يجب ألا
تبقى على قيد الحياة . كان المارة لا يتطلعون إليه أكثر من مرة واحدة
ليتعدوا من طريقه على عجل . ثابر غيكونيو على ركضه . لسوف
يقتلها . لسوف يحنل مومي . المسافة كانت طويلة جداً . جمع به
خياله : ها إن مومي تتوسل إليه طلباً للرحمة ، الاعاب يتصبب من
فمها ، عيناها جاحظتان . بيد أن القدر كان له بالمرصاد . لقد كان
الكوخ مقفلاً . لربما احتجزتا نفسيهما في الداخل . ألقى بكل ثقله
على الباب صائحاً : « افتحوا الباب . افتحوا الباب أذن يامن تبعن
أجسادكن بالمزاد العلني في السوق » . بقي الباب موصداً . استجمع
قواه وضربه مرات عديدة . فجأة هوى الباب الخثبي . وقع غيكونيو
على الأرض وخبط رأسه باحدى أثافي الموقد . سال الزبد من شذقيه .
بقي النجار مدة من الزمن يطلق جلبة غير مترابطة من خلال الزبد ،
وانتهت الجلبة بتوجع واحد طويل : « يارب ، آه ، آه ، يارب ، يارب » .

الفصل الثامن

لم يستطع غيكونيو أن يتذكر بالتفصيل ماجريات الأيام القلائل الأولى لعودته إلى البيت كان كل شيء مجرد حلم ضبابي ولذلك وجد من العسير عليه أن يسرد تقريراً متماسكاً عما حدث بالضبط إلى ميوغو . وبدأ ينقب مرة أخرى عن الكلمات المناسبة وكان يلتقي من حين إلى آخر بذراعيه في الهواء بشكل ينم عن اليأس .

« على كل حال لابد من أنني قد بلغت مرحلة الجنون . أعتقد بأنه ليس هنالك أمر أشد إيلاماً من اكتشافك أن صديقاً لك ، أو إنساناً كنت تمحضه ثقته دائماً ، قد أقدم على خيانتك . وعلى أية حال ، حينما استيقظت فيما بعد وجدت نفسي متأثراً بالدثار . كان السراج ، تماماً كهذا السراج الذي هنا ، يشتعل بشكل هزيل ، كشيء معتلّ الصحة ، أتعرف ما أقصد ؟ إن مجرد رائحة أي شيء تذكرك بمشهد في المشفى . كانت والدتي جالسة حذاء السرير ومومي واقفة على بعد أقدام قليلة . لم أستطع أن أتبين وجهها بوضوح ولكنني ظننت بأنها كانت تلدرف الدموع . لهيئة ، بل قل للحظة ، شيء ما دغدغ

فؤادي . مومي ، تلك المرأة التي عرفتها ، لا يمكن أن تكون قد سمحت لكارانجا بزيارة مخدعها . لقد كانت هي نفسها تماماً كما كنت قد تتركها خلفي . ثم رأيت الطفل وأدركت أن ماضنته مستحيلاً قد وقع فعلاً . فاصطكت أسناني وسرت رعدة في كل مفاصلي ، كنت كمن أصيب بالرشح والحمى ، بالملاريا . ومع ذلك فقد تبددت لدي وقتئذٍ كل رغبة في قتلها . كانت تلك اللحظة هي اللحظة التي اتخذت فيها القرار التالي : لن أتحدث مطلقاً عن الطفل . ولسوف أتابع حياتي وكأن شيئاً لم يكن . ولكنني لن أدخل مخدع مومي بناتاً . فماذا بقي عليّ أن أفعل سوى أن أغرق نفسي في العمل . في العمل المضني ؟ » تفرّس غيكونيو وجه ميوغو . لم يستطع أن يتبين فيه شيئاً . جعله الصمت لإنساناً مزعجاً . بدا الأمر برمته له وكأنه تكرار لمشهد مألوف .

« نعم كرسيت نفسي قلباً وقالباً للعمل » أعاد عليه ثانية . بيد أن ميوغو بقي صامتاً ولم ينبس ببنت شفة . شعر غيكونيو بالمرارة على نحو غامض . لقد أزاح العبء عن كاهله ، ولكن ذنباً من نوع آخر بدأ يتسلل إلى نفسه . هاهو يقف الآن مكشوفاً ، عارياً ، أمام ميوغو . لابد من أن يكون ميوغو يقيمه الآن . شعر غيكونيو بقلق كذاك القلق الذي يساور إنساناً يقف أمام قس متزمت . وفجأة أحس بالرغبة في الانصراف ، في الابتعاد عن ميوغو ، ليشكو أمر عاره في العراء .

« عليّ أن أذهب » قال وانتصب واقفاً على قدميه . خرج تحت جناح الظلام . أفرعه وجيب قلبه . كان يشعر بالذعر من مواجهة مومي . من أرقه الناجم عن أصداء خطوات الرصيف . كان الظلام يلفّه من كل جانب وهو يهرع باتجاه البيت الذي لم يعد بيتاً . إن نقاء ميوغو « وخيانة مومي » وكل شيء قد تأمر عليه بغية لغم رجولته ، إيمانه بنفسه ، وتعميق إحساسه بالعار لأنه كان أول من حنث بقسمه وخان العهد في معتقل يالا .

وحالما انصرف غيكونيو ، هرع ميوغو إلى الباب ، فتحه على مصراعيه وصاح بأعلى صوته : عد . انتظر جواب صيحتته ولما لم يصله أي جواب عاد وجلس مستغرقاً بالتفكير . كان فكره يقفز من حدث إلى حدث . لقد أراد منه غيكونيو أن يقول له أي شيء . شعر بأنه كان عليه أن يقول شيئاً ما . مرتين بلّل شفّتيه بريقه وتنحنح استعداداً للكلام . ولكن فمه بقي جافاً واستغلت عليه الأفكار والكلمات . ماذا كان بوسعه أن يقول له ؟ إن انفجار غيكونيو ضد خيانة كارانجا واحتدام غضبه على مومي جعلاً ميوغو يتوقع على نفسه . كل مرة كان يتحدث فيها غيكونيو عن مومي و كارانجا كان ميوغو يلتهب غضباً ويشعر وكأن الأسد ينهش القرحة في معدته . ارتعد الآن من هذا التذكر . ساوره القلق . وقف ومشى في الغرفة . لتفترض بأنني قلت له لتفترض أنني أخبرته . فجأة لكان انتهى كل شيء انتهى المعرفة العبء المخاوف

الآمال كان بإمكانني إخباره ولربما لعل
أن ذلك هو السبب الذي حدا به لحكاية قصته لي ؟ لدى ورود هذه
الفكرة توقف على حين غرة عن الخطو واتكأ على السرير . إن الرجل
لا يذهب إلى إنسان غريب كي يفضي له بمكنونات قلبه لأنني
أرى كل شيء كل شيء تظاهر بعدم الالتفات إلي
ومع ذلك فقد دأب على اختلاس النظر إلي ليرى فيما إذا كنت
خائفاً ليرى ما إذا لا تذكر الكرب الذي
كان يرين على وجهه غيكونيو . كان لصوته طابع الجلد والثقة .

خرج ميوغو . لعل الهواء البارد والظلمة البهيمية تعيدان الهدوء
لأعصابه . فنجان من الشأى في حانوت (كابوي) بدا له أفضل الحلول .
حينما كان يسير في الظلمة عدة مشاهد من حياته خطرت على باله
بلمح البرق . كانت تتنابه مشاعر الهمع والانفعال والنفور وغيرها
على التوالي وفقاً لكل مشهد من المشاهد . ومن غرائب الأمور أن
كل هذه المشاعر قد انتهت في الليلة الماضية في قول الإنجيل : سوف
ينصف فقراء الناس . سوف يعين أطفال المحتاجين ، وسوف يمزق
الظالم إرباً . وغدت هذه الكلمات شيئاً في سريرة نفسه وأيقظت إحدى
الذكريات .

كانت هذه الذكرى تعود ليوم من أيام مايس ١٩٥٥ . كانت
كينيا تعيش تحت ظل حالة الطوارئ منذ مايقارب الستين . ذهب

ميوغو إلى مزرعته التي كانت عبارة عن قطعة أرض صغيرة قرب محطة القطار في رونجي . وقتها لم تكن تدابير حالة الطوارئ ومضايقاتها قد مسسته بسوء بعد . خلف المحطة كان يمر الطريق الإسفلتي ويحتاز الجند (المستوطنة) إلى نيروبي ، إلى مومباسا وإلى البحر . لم يكن ميوغو قد سافر قط أبعد من رونجي ، إلى الجند مثلاً أو إلى المدينة الكبيرة . مرة أو مرتين حين كان صبيّاً شاهد زمرة من الناس البيض يدخنون ويتحدثون ويتضحكون في الوقت الذي كان فيه الناس السود يحملون أكياس الذرة وحشيشة الحمى من شاحنات الخدمة إلى عربات النقل في القطار . وبعد أن تم إفراغ كل الشاحنات انطلق قطار الشحن صائخاً . لقد رأى ميوغو هذا المشهد من على بعد مسافة مضمونة . ولذلك كان في السنوات التالية كلما تصور إنساناً أبيض (حتى جون ثومبسون) كان دائماً يتخيل رجلاً يدخن سيكارة وقطاراً واقفاً ينفث الدخان . في هذا اليوم ربط قميصه — بلا أزرار — حول خصره مما جعل قبة القميص وكمّيه تحتك ببطّتي ساقيه وقفنا فخذيه كلما انحنى فوق مزروعاته . كانت الشمس تحرق جذعه الأسود العاري بشكل بهيج . والضياء المنسكب على الجسد العرقان جعل بشرته ^١تلمع بلون بني . تفتحت المزروعات — شتلات الذرة والبطاطا والبقول والبازلاء — ومدّت أوراقها نحو الشمس . كان ميوغو يستعمل منكاشاً يقلّب به تربة المناطق الجرداء ويتنزع العشب من المناطق المعشبة بين المزروعات ، كما كان يستعمل أصابعه لقطف الثمار . كان كلما هز سوق النباتات

تساقطت قطرات الندى عن الأوراق وذابت . كان الهواء نقياً ومنعشاً ولاذعاً . المزارع التي حول مزرعته ، وقد كانت كلها مغمورة بالخضرة — أوراق طويلة وعريضة تحجب التربة السوداء — كانت تبدو جميلة لعين ناظرها . ازدادت حرارة الشمس واشتد القيظ ، تبخرت الرطوبة من الأوراق ، انخست الأوراق مما جعل الخضرة تندوي عند وقت الظهيرة . وتتحول إلى لون رمادي خفيف ، كما جعل الحقول تبدو مجهدة . استلقى ميوغو على ظهره تحت ظل شجرة (مواريكى) ونعيمَ بذلك الرضى الفياض الذي يشعر به المرء خلال قيلولة الظهيرة ليستريح من كدّه . ثمة صوت — وكان دائماً يسمع أصواتاً كلما اضطجع على ظهره يستريح قال له : سيحدث لك أمر ما . مغمضاً جفنيه تمكن أن يشعر بذلك الأمر ، كاد يلحسه ، شكله كان غامضاً ولكنه ، آه ، في غاية الجمال . ترك الصوت الرخيم يغريه ويتأى به إلى بلاد بعيدة في الزمن الماضي . موسى أيضاً كان وحيداً يولي اهتمامه لقوم (جثرو) والد زوجته . وقاد أولئك القوم إلى الطرف البعيد من الصحراء ، وجاء إلى جيل الله ، بل ووصل الطّور . وتبدى له ملاك من ملائكة الله على شكل لهب من نار من قلب إحدى الشجيرات . ودعاه الله بصوت خافت : ياموسى ، ياموسى . فصاح ميوغو : لبيك يارب .

كلما فكر في ذلك اليوم رآه يمثل منعطفاً في حياته . إذ بعد أسبوع تُصرع بالرصاص مدير المنطقة روبسون ودخل كيهيكا في مسيرة حياة ميوغو .

كان ميوغو تحت وطأة انفعال محمود حين هرع إلى داخل المقهى
فب (كابوي) الذي كان سابقاً يدعى « مامبوليو » ، بيد أن صاحبه
أطلق عليه منذ بدايه الحكم الدائى اسماً جديداً : فندق الاستقلال ،
ولسماً فرعياً : بار ومطعم . زمرة من الرجال كانوا يصخبون ويغنون
عند الطاولة . زمرة أخرى كانت متناثرة حول الطاولات العتيقة ذات
الصريف . ذهب ميوغو إلى إحدى الزوايا وجلس فيها . كان رأسه
يدور ويدور : إنه في حلم من أحلام اليقظة . فالأرض التي مشى عليها
ورواد البار ، وكل شيء زيف على زيف . بعد دقيقة واحدة سيتلاشى
كل شيء . وفجأة دوى صوت وعلا على ضجيج السكارى . ران
صمت عميق من هول المفاجأة . غيثوا متوكئاً على عكازيه انفصل عن
الزمرة التي كانت في الزاوية وطفق يحجل باتجاه ميوغو . وقف أمام
ميوغو باستعداد وحيّاه ثم خلع قبعته وصاح :

« أحبيك يازعيم ! » وفاحت رائحة الخمر من بين أسنانه التي
فقدت لونها الحقيقي . بعد ذلك انمسخت وقفته إلى وقفة عبد ذليل .

« تذكرنا يازعيم ، تذكرنا . هل ترى هذه الأسماك البالية ؟
هل ترى القمل الذي يحبو على كتفي ؟ ماكنت دائماً على هذه الحال .
أقسم لك بالفرج اليا بس لأمي ، أو بفرج تلك المرأة العجوز . أسأل
أي إنسان هنا » .

رفع إصبعه كمن يريد أن يقسم وجال ببصره حول المكان وكأنما

يريد أن يشهد الناس على قسمه . كان الناس وقتها قد تركوا أماكنهم وتسللوا قرب الرجلين . أصاب الهلع ميوغو ولكنه شعر ، في الوقت نفسه ، بالابتهاج بسبب وهم المشهد برمته .

« كنت سائقاً — يعرفني الناس من كيسومو إلى مومباسا — أنا » .
وعاد ثانية ذلك الإنسان المتكبر يضرب على صدره تحدياً وتباهياً .
« لم تكن النقود تعني شيئاً بالنسبة لي . كنت أتفاوض لشراء مزرعة في كيرارابون بالقرب من انغونغ .

هنا في بيتي كنت أقتني الدجاج — عددًا وفيرًا — آه ، ليتك رأيت البيض . يانادل فاولنا شراباً إلى هنا — اجلب شراباً للزعيم . قبل حالة الطوارئ كان بمقدوري شراء هذا البار بأكمله » .

وعلى الرغم من أن الناس كانوا قد اعتادوا على ثروة غيثوا فان أحداً منهم لم يضحك . أصغوا إليه بشكل جاد وهم يهزون رؤوسهم بالموافقة أحياناً وبالأسى أحياناً أخرى رافة بالدموع التي كانت تخالط صوته المتهدج . قال ميوغو بأنه لا يرغب بالشراب . بدأ الناس يتحدثون عن كينيا ، بلد النزاعات . « لقد جلدتنا حالة الطوارئ جلدًا مبرحاً » كان بعضهم يقول .

« أنا ! حين نشبت حرب التحرير عرفت بأن عليّ أن أحارب .
إياك والشك بهذا القول . أيها الجنرال ، يا جنرال . أين الجنرال ؟ »

كل العيون التفتت تبحث عن الجنرال ر . كان يحتسي الحمرة بهدوء عند الطاولة ويتفرج على هذا المشهد بذهول . كان غيثوا لا يزال يتكلم . روى عن مآثره إبان حالة الطوارئ : كيف كان يمون كيهيكا وثوار التحرير بالطلقات . كان الناس يحبون القصص الجيدة . ولذلك فحتى أولئك الناس السكارى نسوا البيرة التي كانوا يحتسونها وأسلموا أنفسهم لإغراء المواقف البطولية في حكايات غيثوا .

« ثم في أحد الأيام ضرب الإنسان الأبيض . ويلتاه ! لقد اخترقني الرصاصة هنا » . !

أشار إلى ساقه المبتورة ، وميوغو ارتد إلى الخلف اشمئزاً من جدعة ساقه الهدلاء . ومع ذلك فقد شعر ، كأني إنسان آخر ، بأن عواطفه مشدودة نحو هذا الرجل الذي كان أجدر بالثناء منه هو .
« لقد نسينا الحكومة . حاربنا من أجل الحرية . ولكن أين نحن الآن ؟ »

وتهدج صوته وخنقته العبرات مرة أخرى قبل أن يتحول إلى صوت إنسان متسول .

« لذلك تذكّرني أيها الزعيم . تذكر الفقراء . تذكر غيثوا — أيها النادل ، أيها النادل هات إلى هنا كوباً من البيرة . الزعيم سيدفع ثمنه — لن ييخل الزعيم بكوب من الشراب على غيثوا — غيثوا المسكين » .

فتس ميوغو في جيوبه وأخرج شلنين . طيلة الوقت كان يدرك بأن عيني الجنرال لم تفارقه . وفجأة هب واقفاً على قدميه ، شق طريقه بين الجمهور ومضى . وصله صوت غيثوا إلى الشارع صائحاً : « شكراً لك يا زعيم ! شكراً - » .

قبل أن يقطع ميوغو الطريق في القرية سمع وقع أقدام تعدو خلفه . وبعد قليل وصل إليه رجل ومشى بازائه . كان الرجل هو الجنرال ر .

— « إنه إنسان مضحك ! أليس كذلك ؟ »

-- من ؟

-- غيثوا .

كان ميوغو يرتعد فرقاً . تراحمت عليه الأفكار في رأسه .

« لست الآن قادماً معك إلى الكوخ » كان يقول الجنرال « سأراك غداً » واختفى بعدئذٍ بالسرعة التي جاء فيها . كان ميوغو الآن وحيداً في الظلمة . شعر أنه يستطيع أن يعانق الليل برمته ، وأن يضم العالم بأسره بين راحتيه ، لأنه كان قيد أنملة من الكشف : غيكونيو وغيثوا أخذاه إلى هناك . وتذكر الكلمات : سوف ينقذ أطفال المحتاجين : لا بد من أن يكون هو . لقد كان ميوغو هو من استثنى لإنقاذ أناس من أمثال غيثوا ، والمرأة العجوز ، وأي إنسان ممن ذاقوا طعم المرارة . فلماذا لا يتصدى لتلك المهمة ؟ نعم . لسوف يتحدث في احتفالات

الاستقلال . لسوف يقود الشعب ويدفن ماضيه في عرفانهم بجميله .
ليست ثمة دواعي لإنسان أن يعرف عن كيهيكا بتاتاً . فبالنسبة لعدد
قليل من الناس — أصفياء الله — تُغفر لهم ماضيهم ، صار نقياً من خلال
الأعمال المجيدة التي أدت لإنقاذ العدد الغفير . هكذا كان واقع الحال
في زمن يعقوب وعيسى ، وهكذا كان في زمن موسى أيضاً .

في سريره تلك الليلة حلم بأنه عاد إلى ريرا . مجموعة من المعتقلين
كانوا قد اصطفوا مقابل الجدار ، عراة حتى خصورهم . كان من
بينهم غيثوا وغيكونيو . ومن زاوية أخرى ظهر جون ثومبسون يصوب
رشاشاً على الرجال المساكين الواقفين مقابل الجدار . كان على وشك
قتلهم — إن لم يقولوا مايعرفون عن كيهيكا . وفيجأة صاح غيثوا
بملء صوته : أنقذنا ياميوغو . ردد الآخرون هذه الصرخة : أنقذنا
ياميوغو . حتى جون ثومبسون نفسه انضم إلى الرجال المتهمين وكان
صوته يعلو على صوت الجميع منادياً : أنقذنا ياميوغو . فكيف كان
بوسعه أن يهمل تلك الاستغاثة المكروبة . لبّيك اللهم لبّيك . هأنذا
قادم ، قادم ، قادم ممتطياً صهوة غيمة راعدة . فبكى الرجال وصرخوا
بصوت واحد : آمين .

وقال الرب : بأم عيني شاهدت
أحزان شعبي الذي يعيش في مصر ،
وسمعت عويلهم من خلال ظلامهم ،
وأنا عالم بآلامهم .

سفر الخروج : ٣ ٧
(آية ١٠ ، وسومة بخط أحمر بيد كهيكاء في إنجيله)

الفصل التاسع

إن رجالات العلم سوف يتقبون ، دونما ريب ، في تلك الظروف العصبية التي عشنا تحت وطأتها في كينيا . وربما سيوجزون العبرة التاريخية منها في عبارة واحدة . تعالوا نسألهم عن الحدث الذي وقع في ريرا : لماذا استأثر باهتمام العالم وخياله ؟ مع العلم أن عدداً كبيراً من المعتقلات ، أكبر من هذا المعتقل . قد انتشرت في كل أنحاء كينيا بدءاً بجزر ماند في المحيط الهندي وانتهاءً بجزر ماغاتا في بحيرة فيكتوريا .

لدى اعتقال ميوغو اقتيد إلى مخفر شرطة تيغوني ومن ثم إلى معتقل ثيكا الذي كان يحتجز خلف أسواره ثوار الغابة . كان أكثر الثوار من إمبو وميرو ومواريجا . احتجز هنا لمدة ستة أشهر وفي إحدى المراحل ظن بأن هذا المعتقل هو مكان استقراره الأبدي . وفي صباح أحد الأيام الباردة نُحشر المعتقلون كلهم في شاحنات حكومية ، دون سابق انذار ، واقتيدوا إلى محطة القطار . نوافذ العربات التي نقلتهم إلى مانياي كانت مغطاة بالأسلاك الشائكة تحسباً لأية محاولة هرب . كان العساكر في انتظارهم في مانياي ، وحالما خرجوا من القطار

طلب إليهم أن يقعدوا القرفصاء على شكل صفوف طويلة وأيديهم فوق رؤوسهم . طفق العساكر يضربونهم بالهراوات وهم يشجعون بعضهم بعضاً بشكل سافر : اضربوهم على نحو أقوى لأن الإنسان الأبيض هو الذي أتى بهم إلى هنا لأنحن . كان معتقل مانياي مقسماً إلى ثلاثة معسكرات ضخمة : أ ، ب ، ج . المجتمع ج الذي حشر فيه ميوغو كان وقفاً على ذوي الرؤوس اليابسة . كان كل مجتمع يتوزع إلى أجنحة يضم الجناح الواحد عشرة عتابر . أحد العتابر الكبيرة كان يؤوي حوالي ستمائة رجل .

بعد سلسلة من اجراءات التنخيل نقل ميوغو وبعض المعتقلين الآخرين ، والأصفاد في أيديهم وأرجلهم ، إلى ريرا .

كان معتقل ريرا يقع في مكان قصي من كينيا بالقرب من الساحل حيث لم يكن المطر يهطل هناك ولا ينبت في تلك المنطقة إلا الرمال - الرمال والصخور . المعتقلون الذي أخذوا إلى هناك كانوا زمرة من الرجال الذين أقسموا على عدم التعاون مع الحكومة مادام كينيا في السجن . كانوا يرفضون الإجابة على الأسئلة وكثيراً ما كانوا يرفضون الذهاب إلى العمل .

وجد ميوغو أن الأحوال هنا أسوأ مما كانت عليه في مانياي . جرايات الطعام كانت قليلة .

اللحم : ٢٤٠ غراماً في الاسبوع .

الطحين : ٢١٠ غراماً في اليوم .

هنا نُقدّر على ميوغو أن يقابل جون ثومبسون للمرة الثانية .

إن النجاح المفاجيء الذي أصابه ثومبسون في يالا كان باهراً جداً مما أدى إلى نقله إلى ريرا على جناح السرعة . أدخل ثومبسون روحاً جديدة إلى ريرا . تسلية شائعة في ريرا كانت دفن أحد الرجال ، عارياً ، في الرمضاء ، وتركه هناك الليل بطوله في بعض الأحيان . وضع ثومبسون حداً لوسيلة انتزاع الاعترافات هذه . بدلاً من ذلك كان يلقي محاضرات على مجموعات من المعتقلين ، عن مباحج البيت ، وعن إمكانية عودة المعتقلين إلى بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم حال اعترافهم بالحقيقة . هذه الطريقة أضعفت المقاومة في معتقلات أخرى مما جعل الأمل يدغدغ أحلام ثومبسون في أن تفضي إلى ذلك السحر نفسه . في الأشهر الأولى لسلطته تحسّنت ظروف الصحة العامة في ريرا . فيما سبق كان يُترك المعتقلون المصابون بالتيفوئيد إلى أن يموتوا . الآن صاروا ينقلون إلى المستشفى مباشرة .

وحين اعتبر ثومبسون أن الفرصة أصبحت سانحة شرع يستدعيهم إلى مكتبه فرادى . نظريته التي فضحت عنده وبلغت مستوى القناعة على مر السنين من خلال تعامله مع الافريقيين وإدارة شؤونهم كانت : إفعل دائماً الشيء غير المرتقب . ولكنه وجد هنا أناساً مختلفين ، رجالاً

لايفتحون حتى أفواهم ، رجالاً يحملون فيه وحسب . وبعد أسبوعين
عيل صبره بعنادهم وأوصلوه إلى حافة الجنون . ذهب إلى بيته وصاح
أمام مارغري : هؤلاء الرجال مرضى .

كان يأمل أن يأتيه الأسبوع الثالث بشيء مغاير . اتكأ في كرسيه
ينتظر أن يدفع الحراس الأفريقيون إلى مكتبه بالرجل الأول .
كان ضابطان آخران يجلسان على جانبي ثومبسون .

— ما اسمك ؟

— ميوغو .

— من اين أنت ؟

— من تاباي

شعر ثومبسون بالانفراج لعثوره على رجل وافق على الأقل
على إجابة الأسئلة . إنها بداية طيبة . إذ ما اعترف لإنسان واحد
بالحقيقة فان الآخرين سوف يقتفون أثره . كان يعرف تاباي .
لقد كان مدير منطقة مرتين في مقاطعة رونجي ، كانت آخرهما
حينما ذهب ليحل محل روبسون المغدور . وهكذا بقي لعدة ثوان
يتحدث بشكل ودي عن تاباي : بالخضرة مناظرها : باللفظ سكانها
ودمائتهم . ثم استأنف استجوابه .

— كم قسماً حلفت ؟

— ولا قسمًا واحداً .

جواب جعل ثومبسون يهب واقفاً على قدميه . زرع الغرفة جيئة وذهاباً ، وفجأة وقف قبالة ميوغو . لقد بدا وجه هذا الرجل مألوفاً لديه على نحو غامض . ولكن كان وقتها من الصعب على المرء أن يميز وجهاً أسود عن وجه أسود آخر : إن وجوههم تبدو متشابهة جداً . كالأقنعة .

— كم قسمًا خلقت ؟

— ولا قسمًا واحداً .

— « أنت كاذب » صاح وتفصّد عرقاً .

أما ميوغو فقد كان يشعر حيال مصيره باللامبالاة . كان في حالة من اليأس كذلك الحالة التي يصبح فيها الفرد حين يكتشف أن أي نضال عقيم وبلا جدوى . إذا حكم عليك بالاعدام فيا مرحبا بسرعة التنفيذ .

همس أحد الضابطين بشيء ما في أذن ثومبسون . فتفرّس وجه الرجل هنيهة . أشرقت أسارير وجهه : أمر ميوغو بالخروج من الغرفة وانكبّ على سجل هذا الرجل .

سارت الأمور بعد ذلك من سيء إلى أسوأ . كثير من المعتقلين لم ينسوا ببنت شفة قط . كان ميوغو في الواقع هو الإنسان الوحيد

الذي وافق على الإجابة على الأسئلة . ولكنه ما كان يفتح فمه إلا ليعيد ماسبق أن قاله في بقية المعتقلات الأخرى . لزع ثومبسون ، كالقرادة ، بميوغو . كان يستجوبه يوميا ، ربما لأنه كان يبدو أكثر المعتقلين قرباً من الانهيار . زاد في تعذيبه . كان أحياناً يأمر الحراس بأن يجلدوا ميوغو على مرأى من المعتقلين الآخرين . وأحياناً كان يخطف السوط من الحراس ، وهو في ذروة سورة غضبه ، ويجلده بنفسه . ولو أن ميوغو بكى أو توسل طلباً للرفقة لربما لان ثومبسون . ولكن تراءى الآن لثومبسون أن جميع الموقوفين يسخرون منه ويحتقرونه لفشله في انتزاع صيحة من ميوغو .

ونتيجة لذلك الموقف حظي ميوغو بمقام رفيع بين بقية المعتقلين . ما وجد القنوط إلى نفسه سبيلاً وما صمدت عنه أنفة ، ولعل لإحساسه بأنه يستحق كل ذلك العقاب كان عامل تحذير ضد إحساسه بالألم . بيد أن المعتقلين الآخرين كانوا ينظرون إلى مقاومته للألم من منظور مختلف . لقد بثت فيهم الشجاعة فجاؤوا على شكل جماعة وكتبوا رسالة جماعية يعددون فيها ظلاماتهم ومطالبهم ومن بينها : أرادوا أن تطبق عليهم معاملة السجناء السياسيين وليس معاملة المجرمين ، يجب زيادة جراتيات الطعام . وإن لم تتنفذ هذه المطالب فسوف يضربون عن الطعام . وفعلاً اقتعد في اليوم الثالث كل المعتقلين الأرض مضربين . وصل ثومبسون إلى شفير الجنون . « يجب استئصال الحشرات

الضارة » كان يقول لنفسه في الليل متوعداً . أفلت الضباط البيض والحراس السود على الرجال . « نعم — يجب استئصال شأفة الحشرات الضارة » .

ولكن الشيء الذي أشعل شرارة الميئات التي أصبحت مشهورة فيما بعد . كان عملاً شبيهاً باثارة الشغب ، وقد وقع في اليوم الثالث من الإضراب . إذ بينما كان بعض الحراس يجلبون الطعام للمعتقلين تُقذف حجر عليهم وشج رأس واحد منهم . فتركوا الطعام وولوا الأدبار وهم يصرخون : جريمة قتل ! شغب ! فضحك الموقوفون وأمطروهم بوابل من الحجارة .

إن ما وقع بعد هذا الحدث مشهور في كل أرجاء المعمورة . حشر الرجال واحتجزوا في عنابرهم . الضرب المبرح الذي صار مشهوراً الآن دام ليلاً نهراً . مات أحد عشر رجلاً .

* * *

كان هذا الحدث سباقاً إلى فكر ميوغو عندما كان يسير — في اليوم التالي للحلم الذي رآه — باتجاه بيت غيكونيو . في معجزة نجاته من الموت بدأ يرى الآن يد القدر الحكيمة . لابد من أنه قد استثنى من الموت بالتأكيد لكي ينقذ أناساً مثل غيثوا من الفقر والبؤس . لقد ولد وحيداً لأبويه بغية إنقاذ الآخرين . الاحتمالات المثيرة لمنصبه الحديد الذي سيتسبب هزته وأغرته من أعماقه . لسوف يبلغ قراره إلى غيكونيو

بأنه سيقود أهالي ثاباي في احتفالات يوم الاستقلال . وبعد ذلك سيقود شعبه كزعيم ، عبر الصحراء إلى القدس الجديدة .

ثمة أغنية كانت تنساب من الراديو وتتناهى إلى سمع ميوغو . صوت عذب دافىء لامرأة كاد يطغى على اللحن الموسيقي في الراديو . كانت الأغنية تنساب على شكل محزن بطيء - نقيض عجيب لهذا الصباح الفياض بالنور . وقف مدة من الزمن ، متردداً ، قرب السياج الذي أحسن تشديده والذي كان يحيط بالبيت . البيت الذي اتخذ شكل زاوية قائمة كان مسقوفاً بصفائح من الحديد المموج الحديد اللامع كما كانت جدرانه الخارجية من ألواح خشب الأرز السميك . وقف هناك متيحاً لصوت مومبي أن يزعمه بشكل بهيج ، وهو يرفض أن يصدق بأن النزاع يمكن أن يندس خلف هذا السياج الأنيق . وانغري غادرت البيت حاملة قصعة بيدها وسارت باتجاه بيت أصغر ، حديث البناء أيضاً ، يقع في الزاوية البعيدة من المجتمع . صبي صغير ، عرف فيه ميوغو أنه أصل النزاع ، كان يتراقص أمام وانغري . هذا المشهد سبب له الألم دونما سبب واضح .

رحبت به مومبي بابتسامة وانفرجت أسارير وجهها كأنها كانت على موعد محدد معه . استعاد في ذهنه سنوات عديدة مضت وتخيل فيها تلك الفتاة الصبية التي قابلته ذات مرة وعزته بوفاة عمته . الآن بدا وجهها مكلدوداً وأعجف . عيناها السوداوان العميقتان إلى اللانهاية ، ابتلعتاه ، أقلقتاه ، فخاف منها .

— « كنت أريد مقابلة غيكونيو » قال وقد امتنع عن الجلوس على المقعد الذي قدمته له . « هل هو في البيت ؟ » .

— « لأنه يمضي إلى عمله باكراً جداً » كان صوتها واضحاً ومحكماً ، ولكن ميوغو تمكن من اكتشاف مسحة طفيفة من التفجع تكمن خلف ظاهر كلماتها .

— « ألن تجلس ؟ » تابعت حديثها . « يجب أن تجلس وسأخضر لك فنجاناً من الشاي على جناح السرعة ، لن يستغرق تحضيره أكثر من دقيقة » . أصبح صوتها حيويًا يتفجر عنوبة فجلس باستجابة غريزية لحضرتها الطاغية . تفرّس في وجهها فخطر له أنه كثيراً ما أخطأ في عدم اعتبارها هي وكيهيكاً أختاً وأخاً . حاجباها كان لهما نفس انحناءة حاجبي كيهيكاً . وأنفها كان له الشكل نفسه أيضاً على الرغم من أنه أصغر بقليل .

— « كيف حال أخيك ؟ أقصد — أعني الأخ الأصغر ، إن لك أخاً أليس كذلك ؟ » وحرك الشاي في الفنجان كي يخفي ارتباكته .

— « أتعني كاريو كي ؟ » وجلست قبالة على كرسي .

— « نعم ، ذلك هو الاسم ، أليس كذلك ؟ »

— « لقد أنهى دراسته الثانوية منذ عامين ، ثم اشتغل في نيروبي في أحد البنوك قبل التحاقه بكلية ماكيرييري . »

— أتتلك في أوغندا . مملكة أوبوتو ؟

— « نعم إنه يسافر بالقطار إلى هناك . يقول بأن وصوله إلى هناك يستغرق منه يوماً وليلة . كم أشعر بالحسد . . . السفر بالقطار طيلة الليل والنهار ماسافرت أنا قط في رحلة طويلة كهذه » . ضحككت ضحكة خفيفة ، أشرفت عيناها وكأنهما أشرفت لفكرة السفر ، جسدها كله بدا يعبر عن عودة رغبة بالحياة لديها على الرغم من المعاناة . « ولكنه لم يعد هذه المرة لقضاء العطلة في البيت ، وهذا أمر سيء ، لأنه لن يشهد احتفالات يوم الخميس برمتها » .

لم يشارك ميوغو في الحديث عن الاحتفالات ، وانتهت المحادثة على نحو مفاجيء . فتش في ذهنه عن موضوع آخر ، وحين أخفق قال بأنه يود الانصراف ، وقام واقفاً .

بيد أن مومبي بقيت جالسة ، وجهها جامد ، كأنها لم تسمعه . « لقد أردت أن أراك ، وكنت أنا من سيأتي لزيارتك » قالت ومع أن كلماتها لم تكن تعلق على الهمس ، وصلت إليه كأوامر . فجلس منتظراً .

« ألا تلجأ أبداً إلى الأحلام ؟ » سأله فجأة ، وتراقصت ابتسامة حزينة على شفثيها . هذا السؤال أدخل الرعب على قاب ميوغو ، وأثار فيه الفزع المرعب الذي دام بضع ثوان قبل أن يخبو .

— « نعم ، أحياناً ، أعني أن أي إنسان يركن للأحلام » .

— لا أعني تلك الأحلام العادية التي تزورك في الليل حين تكون نائماً . وإنما أحلام الصبا حين تكون شاباً وتمعن النظر في المستقبل وترى فيه أشياء عظيمة . قلبك يخفق بين جنبيك لأنك تريد الأيام أن تأتي سراعاً ، وتعتقد حينها أن أحزان الحياة لا يمكن أن تقترب منك قيد أنملة » .

صوتها زاد من ارتعاشات ميوغو . إنها تحيي له حلمه ، تلبسه كلمات جديدة تضج بالحياة ، وتنفخ فيه روحاً جديدة .

— أراودك حلم بهذا الشكل ؟

— « ربما أحياناً » وأجفل في سريرته ، ولكنها سرعان ما التقطت جوابه .

— « وصدق الحلم . إنك حلمت — نعم ، كنت أعلم بأن الأحلام تصدق مع بعض الناس . أما أنا فقد كان يراودني الكثير من تلك الأحلام ، وكلها مغرقة بالواقعية » قالت وهي تنقب في الماضي من خلال صوتها وعينيها ووجهها .

« إن هذا الأمر يحدث يحدث للناس حين يكونون شباباً . » قال مغامراً بهذا التعليق العام .

« كان الحلم هناك » تابعت « حينما كان أخي يتحدث . قلبي

ارتحل مع كلماته . كنت أحلم بالتضحية ابتغاء إنقاذ العديد من الناس . وعلى الرغم من أن الخوف كان يتتاني أحياناً كنت أتمنى سرعة حلول تلك الأيام . حتى بعدما تزوجت لم يتبدد الحلم . كنت أصبو لإسعاد زوجي ، نعم ، ولكني كنت أيضاً أعد نفسي للوقوف إلى جانبه حين تسنح الفرصة المواتية . كان يمكن لي أن أحمل جعبة سهامه وأزوده بالسهم بالسرعة نفسها التي تقذف فيها سهامه على الأعداء . حتى إذا حمّ القضاء وتهاوى كان سيسقط بين ذراعي لأحمله بكل اطمئنان إلى البيت ، إلى نفسي . »

لاحظ أن البريق الذي كان يضطرم في أعماق أغوارها طفق يتراقص في عينيها . شعر بسطوتها المشؤومة عليه .
« نعم ، حين اقتادوه بعيداً لم أفعل شيئاً ، وحين عاد مجهداً إلى البيت في خاتمة المطاف ، لم يعد بمقدوري أن أجعله سعيداً » .
كانت لا تزال شابة . عرضة للغواية ، ولكن ميوغو كان هو من بهرع على يديه وقدميه نحو ذلك الغور الصامت . هذا الصراع كان قاسياً عليه : فما أحب أن يغرق .

— « أتساءل أحياناً » تابعت بعد برهة صمت ، « ما إذا كانت الأحلام قد راودت وامبوكو . ومع ذلك فإنها هي — هي — هل تتذكرها ؟ »

— وامبوكو ؟

— نعم .

— لا ، لأعتقد ذلك .

— لكن يجب أن تتذكرها . أفلا تتذكر تلك المرأة التي حاولت إنقاذها ، المرأة التي تعرضت للضرب في الخندق ؟ .

— « نعم ، نعم » . لم يتمكن من تذكر وجهها ولكنه تذكر ثوبها المعزق من ضرب السياط وصورة الألم المرسوم على وجهها .

— لقد ماتت ؟

— ماتت ؟

« نعم . ماتت فيما بعد. يقول الناس بأنها كانت حبلى في الشهر الثالث أو الرابع . كانت خليعة كيهيكا قبل أن يهرب إلى الغابة . إنها لم تغفر له ذلك قط . ولكنها كانت تأمل أن يعود إليها ولذلك فقلما عاشرت إنساناً آخر . ولكنها حين اعتقل كيهيكا وشنق على الشجرة ، سيطر عليها شيء غريب . بقيت بضعة أيام لاتبارح البيت ، ولكن حين بدأت تعاشر رجالاً آخرين لم تتوصل بالنتيجة إلا إلى تهديم سمعتها مع العساكر والحرس الوطني ومع أي عابر سبيل . ولكنها كانت ترفض ، كما قيل ، عروض ذلك الحارس الوطني الذي سنحت له فرصة الانتقام منها في حادثة الخندق . إنها لم تبرأ قط من ذلك الضرب المبرح وماتت بعد ثلاثة أشهر ، وهي حبلى . »

أخرجت منديلاً لتمسح به شيئاً في عينيها . في تلك اللحظة دخل ابنها الغرفة راكضاً . رمق الرجل بنظرة خاطفة وركض بعد ذلك إلى ركبتي أمه .

« لماذا تتحيين ؟ » عاجل أمه بالسؤال وحذج ميوغو بنظرة عداة سافر . شدت مومبي الصبي إليها وكأنها تحميه من كل الأذى ومن المعرفة الهدامة . حاولت الابتسام وهمست له ببعض كلمات .

« عد إلى جدتك بسرعة . إنك لن تتركها وحيدة . أليس كذلك ؟ قد يسرقها أحد أفراد قبيلة (إيريمو) وعندها ماذا ستقول ؟ » .

تطلع الصبي إلى ميوغو ثم إلى أمه وركض خارجاً من الكوخ .
« يمكنك أن تقول بأنها ماتت من أجل أخي » تابعت مومبي ، وكأن لم يكن ثمة انقطاع ، بيد أن صوتها الآن كان أقل انفعالاً ، وكان أكثر تردداً . « ضحية من الضحايا وكانت هنالك أيضاً انجري » .

— ومن هي هذه ؟

— « كانت صديقة أيضاً ، صديقتي . وامبوكو وانجري وأنا غالباً ما كنا نذهب معاً إلى القطار . ولكن كيف نقول بأن قلب انجري كان في الواقع يتزف دماً على أخي . لقد كانت دائماً تتناحر وتتصادم مع غيرها من الرجال والفتيات . ولكن لم يكن أحد منا يعلم بأنها كانت تحلم أحلاماً سرية . وما عرفنا ذلك إلا بعد أن هربت إلى الغابة

لتحارب إلى جانب كيهيكا . لقد صرعت في إحدى المعارك ، حالاً
بعد موت كيهيكا » .

اسود وجه ميوغو بعض الشيء ، وتهدلت شفته السفلى قليلاً .
ماكان يريد سماع أمثال تلك الأشياء . كاد يصل إلى الباب حين
ناداه صوت مومبي الجفول ، وجره جراً إلى الحاضر . وقف عند الباب
وما تذكر نفسه إلا بصعوبة . وحينما استدار ببطء شعر بالحجل لكونه
لا يزال واقفاً خائر القوى أمام نزواته . مومبي وقفت أيضاً وبالكاد
استطاعت أن تخفي دهشتها وتشوشها .

« مأفضيت بهذه الأشياء إلى أي إنسان آخر » قالت وجلست
ثانية . « إنك تجعلني أشعر أن بمقدوري التحدث بهذه الأشياء والنظر
إليها عجيب ، الآن أتذكر أعلم أن أخي قال ذات
مرة ، لا ، قالها مراراً حين كان يفضب من أصدقائه ، إنك تجعلني
أتذكرها بشكل جيد جداً ، قال بأنه لو كان عنده شيء سري هام
وخطير ، فانه لن يثق أن ييوح به إلا لإنسان مثلك . »

وقف ميوغو جامداً يحملق فيها بعينين خاليتين من أي تعبير .
اتركبني وشأني ، أراد أن يقول لها ، ولكن الكلام الذي صدر عنه
على شكل همس مسموع كان :

« هذه الأشياء مؤلة » .

جلس ميوغو مترنحاً أمام طغيان اغرائها ، ضعيفاً أمام عينيها وصوتها . انتظر بينما كانت هي تجاهد لإخراج الكلمات .

« أردت أن أتحدث إليك عن زوجي » قالت صراحة وهي تحديق إلى وجهه مباشرة . وتدريباً ذابت نظرة التحدي في عينيها واستحالت إلى نظرة تضرع ذليل صامت . كانت شفتاها المنفرجتان قليلاً ترتعشان .

« أريده لأنني ، لأنني أريده قبل أي شيء آخر » قالت . بعد برهة صمت بدت عليها أمارات الانفراج . فسألت : « أتعلم عن أمر الطفل شيئاً ؟ »

فجأة أراد ميوغو أن يطعنها في الصميم . انتشى بهذه الرغبة الجائعة لكي يهينها لكي يجعلها تتمرغ في الوحل : لماذا حاولت هي أن تجره إلى حياتها ، إلى حياة أي إنسان آخر ؟ .

— زوجك أخبرني .

— هل أخبرك ؟

— نعم .

— متى ؟

— الليلة الماضية .

— وهل أخبرك بكل شيء ؟

— « كل شيء الطفل كارانجا » . حثها صراحة وهو يضحك من الألم في سره حين رآها تجفل مرة أو مرتين . كان البيت صامتاً . عينا ميوغو كانتا عدائيتين . حتى لو أجهشت بالبكاء علناً فلن يغادر البيت ، لن يتحلل ، ولن يخفف عنها ولو بكلمة واحدة . ولكن في الدقيقة التالية اقتحمت مومي ذلك الجو المشحون ، وهي في ذروة الانفعال ، وكأنها قد تذكرت للتو شيئاً كبيراً وهاماً .

— هل أخبرك عن البيت ، عن كوخينا أقصد ؟ هل أخبرك ؟

— بيت — أي بيت ؟ سأل مرتبكاً بشكل حقيقي .

— البيت الذي كنا نعيش فيه قبل اعتقاله — آه ، أرى أنه لم يخبرك عنه . « تابعت حديثها بانتصار حزين . « من كان يمكن أن يخبره سواي ؟ ولكنه لا يريد أن يعرف »

تذكر ميوغو أن الناس الذين لم ينتقلوا إلى القرية الجديدة في الوقت المناسب طردوا من بيوتهم العتيقة وحرقت أكواخهم حتى أصبحت قاعاً صنفصفاً .

« حتى الآن وأنا في السرير ليلاً » بدأت « أتذكر السنة اللهب الحمراء . كان عندنا كوخان واحد لحماتي والثاني لي أنا . قالوا لنا أن ننقل فرشنا وثيابنا وأوانينا المنزلية . رشوا بعض البنزين على سقيفة القش في كوخ حماتي . وقتها فكرت ببلادة أن ذلك ليس ضرورياً لأن القش يابس أصلاً . علي كل حال ، صبو البنزين على سقيفة القش اليابس .

كانت الشمس تسعّر أوارها. جلست حماتي على كرسي إزاء كومة الأشياء من كوخينا ووقفت أنا قربها . كنت أضع غطاء على رأسي . قائد الحرس الوطني أشعل عوداً من أعواد الثقاب ورماه على السقف . لم يشتعل وسخر منه الآخرون . صاحوا وحمّسوه . حاول أحدهم أن يأخذ منه أعواد الثقاب ليبين كيف يمكن أن تم الأمور . أضجى الأمر لعبة فيما بينهم . بعد المحاولة الرابعة أو الخامسة علقت النار بالسقف . أعمدة الدخان الداكنة والفاحة خرجت متعرجة من السقف وانطلقت ألسنة اللهب تطاول عنان السماء . ذهبوا إلى كوكبي . ماكان بوسعي أن أتحمّل إعادة اللعبة ولذلك أغلقت عيني . أردت أن أصرخ ولكنني كنت قد فقدت صوتي ولأن الصوت لم يخرج من حلقتي . فجأة تذكرت حماتي بجانبني وأردت إبعادها عن هذا المشهد كي أجنبها رؤية الأمر حتى نهايته . لأن ذينك الكوخين كانا يعنيان الكثير بالنسبة لها لأنها كانت قد بنتهما بيديها بعد أن طلقها واروهيو ، زوجها في وادي ريفت ، وطردها من بيته . ولكنها على كل حال دفعت يديّ بعيداً وهزت رأسها قليلاً واستمرت تحلق في ألسنة اللهب . بدأ السطحان يفرقان . أتذكر الألم كلما عادت ذكرى الفرقة إلى قلبي . وسرعان ماهاوى السطحان ، واحد بعد الآخر ، ورافقهما دوي هائل . ولكنها لم تبعد عينيها عن ذلك المشهد - شيء في قلبي تداعى أيضاً ، شيء في سريرتي فرقع حين رأيت بيتنا يتداعى . « إن تقويض ثاباي القديمة حدث بعد سقوط مخفر (ماهي) على

يد كيهيكا وزمرته من الثوار . إن الضربة التي حلت (بماهي) قد أثارت ثائرة الحكومة . يقال بأن الإنسان الأسود في نايري ، وموانغي وماتيمو الذي سمع ، في غفلة لحظة الحماس ، أخبار الاحتلال من الراديو ، قد نقل توتاً إلى مانياني ، أشهر المعتقلات وأكبرها في البلاد . فرض الحظر على انتشار هذا النبأ ، ولكن الراديو أكد ما كان يعرفه كل الناس في منطقة الغيكويو . ردت الحكومة الحجر من حيث أتى . كل المراكز التجارية الإفريقية من أمثال رونجي كان سيتم إقفالها « حرصاً على الأمن والهدوء » . كان على الناس أن ينتقلوا إلى قرى أقل عدداً وأقل تباعداً . في البداية ظن الناس أن هذا الأمر ليس أكثر من إشاعة بعيدة الاحتمال ، ولذلك هزوا أكتافهم تكديباً لها واستمروا يندبون أقدار أولئك الناس الذين مصوا إلى المعتقلات أو إلى الغابة : ترى هل يعودون ؟^٩ ثوماس روبسون . كان وقتها مدير المنطقة ، عقد الاجتماعات في كل نجد ممهلاً الناس شهرين لتقويض البيوت القديمة وبناء البيوت الجديدة .

سيطر الغم على مومبي لعدم وجود رجل في البيت . وفي النهاية ربطت حزاماً حول خصرها واشتغلت كما يشتغل الرجل . فأزالت الانقراض من الموقع بالتعاون مع وانغري . جاء كارانجا وساعدهما في رسم مخطط الكوخ على الأرض . كان صامتاً ومتحفظاً ولكن مومبي كانت في شغل شاغل عن ملاحظة تحفظ رجل يعاني أزمة ما . أصبح الموقع جاهزاً في غضون أيام قلائل . تمثلت الخطوة التالية في ذهاب

مومبي إلى حرجة أبيها الصغيرة واحتطاب أشجار الطلح السوداء لتجعل منها الدعائم والأعمدة . كانت هذه الأيام هي الأيام التي لم ينبعث فيها الدخان من أي كوخ من الأكواخ في ثاباي لأن الرجال والنساء ما كانوا يعودون إلى بيوتهم إلا مع حلول الظلام ، لكي يعاودوا العمل في الموقع في صبيحة اليوم التالي : وبين عشية وضحاها كبر الأطفال وصاروا رجالاً ، وارتدت النساء البنطلات ، ولكن الأطفال المحزومين على ظهور أمهاتهم ماكنوا عن العويل طناً للغذاء والرعاية . كان كاربوكي يترك المدرسة في الرابعة يومياً ويهرول عائداً إلى البيت لمساعدة أخته في البناء .

كان الرجال ، حين يشاهدون نسوة من أمثال مومبي يعتلين السطوح ويطرqn المسامير ، يتوقفون ويقولون لمكايدتهن : أنتن تكابدن كل هذا لأن امرأة — في انكاترا — ارتقت العرش : هل نجم خير في الدنيا من حكم امرأة ؟

« آه ، ليس هذا القول صحيحاً » كان النسوة يجبن في بعض الأحيان وهنّ مسرورات لمقاطعتهن . « أليس للحاكم بارينغ ، الذي يحكم كينيا ، قضيب ؟ »

« آه ، انظرن كيف أنتن معشر النساء قد أرسلتن كل الذكور إلى المعتقل حتى تتعفن قضبانهم هناك ، كأزواج بالإكراه للملكة أليزابيت ؟ »

« وللغابات أيضاً » كان النسوة ينفجرن قائلات ، وقد انقلب مزاحهن إلى حسرة . وبدون إضافة كلمة أخرى كان يهرع الرجال إلى مواقع عملهم كي يواصلوا ضجيج المعادن بتطريق المسامير بالمطارق . إن المساعدة المتقطعة التي قدمها كارانجا . ناهيك عن مساعدة كاريوكي ، لم تكن كافية . وكان كوخ مومبي بحاجة إلى التسييع حين أنهى الشهران الرسميان . فحكّت مومبي ووانغري في كوخيهما العتيقين ، وهما تستعدان لتسييع جدران كوخيهما الجديد خلال يوم أو يومين . ولكن في اليوم التالي وصل أفراد الحرس الوطني . فتحت مومبي الباب . رأت وجوههم الخائفة . وهرعت عائدة إلى الداخل كي تعدّ وانغري للحقيقة .

« كنت أعلم بأنهم آتون ياطفئني » قالت وانغري بكآبة وبدأت نازلة الأواني المنزلية وأشياء أخرى من المكان الذي أصبح في حكم الأتقاض .

انصرف أفراد الحرس الوطني بكل هدوء كأنهم قد أدوا أحد الطقوس ، عيونهم كانت تستجدي بباركة فعالهم من وجه روبسون . ساق روبسون سيارته . كان هناك العديد من الأكواخ بحاجة للحرق والنهار قصير .

قبل حلول الظلام كان آخر جدار من جدران قرية ثاباي العتيقة قد أصبح ركائماً : كان الوحل والسخام والرماد دلائل تشير إلى الأمكنة التي كانت فيها الأكواخ من قبل .

« في تلك الليلة بت وأنخي في كوخنا الذي لم يكن قد اكتمل بعد .
حرق والذي أمر حظر التجول وجاء في عتمة الليل ليأخذنا إلى بيته .
بيد أن حماتي رفضت الانتقال وما كان بوسعي تركها وحيدة كان السطح مسقوفاً
بالخشيش ولكن الحذر ان كانت بلا تسبيح . طيلة الليل كانت الرياح الباردة تحترق
ثقوب الجدران وتلسعنا من كل جانب . ومع أنني كنت قد تغطيت
بدثار عتيق وبكيس من ليف السيزال فاني بقيت أرتجف من شدة
البرد . لأعتقد بأنني أغمضت عيني لحظة واحدة . كنت أعلم أن
حماتي لم تكن غافية أيضاً ، ولكننا لم نتبادل الحديث . لقد كانت
تلك الليلة في الواقع ليلة ليلاء .

« منذ ذلك اليوم تكررت زيارات كارانجا إلى محلنا ليستفسر عن
صحتنا وليجلب لنا الطعام في بعض الأحيان . وعلى الرغم من أنه
كان هادئاً فقد كان يبدو أن القلق يساوره لأمر ما . في البداية لم ألاحظ
هذا ، كما أنني لم ألاحظ بتاتاً تزايد زيارته لنا لأنني كنت منهمكة
في تمرير حماتي التي أصبحت ، بعد حرق بيتنا وتقويضه . دأمة
الشكوى من آلام في المعدة وفي الرأس وفي المفاصل . أحد الأيام وبتدني
أكسر الحطب خارج الكوخ . وقف هناك ونظر إلي دون أن ينبس
ببنت شفه . لأنني أمقت أن يراقبني الآخرون وأنا في غمرة عملي لأنني
سرعان ما أشعر بالقلق وأفشل في التحكم بيدي على نحو صحيح . لذلك
قلت له : « هيا ساعد امرأة في تكسير الحطب » . أخذ الفأس مني
وقام بالعمل بدلاً مني . كان لا يزال صامتاً . « ادخل لتناول فنجان من

الشيء كما يتناوله أي عامل » قلت له . وعندما انشيت لتناول قطع الحطب مدّ يده وربّت على رأسي وقال هامساً : مومي . تطلعت إليه بسرعة ولاحظت بأنه كان ينوي أن يقول لي شيئاً ما . أصابني الذعر . كان كارانجا قد تقدم لخطوبي مرة بعد أسبوع أو مايقاربه من قبولي الزواج بغيكونيو . وقتها سخرت من عواطفه وذكرته بأن غيكونيو صديق حميم له . بعدها ماتقدم لخطوبي مرة أخرى . وثابر على زيارته لزوجي . لا بد من أنه الآن قد لاحظ الذعر في عيني لأنه سرعان ماانصرف دون أن يقول شيئاً ، وحتى دون أن ينظر خلفه . وإنني أتصور بأنه لو نظر خلفه لدعوته للرجوع لأنني أصبحت مثقلة بأفكار الندم : لا بدّ من أن شيئاً ثقیلاً كان يحمّ على صدره . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان رقيقاً بي وبحماتي كما يجب أن يكون الصديق .

« لم يعد ثانية . سرعان ماألقي القبض ، بعد ذلك ، على كيهيكا عند طرف غابة كيني وشنق بعدئذ على شجرة من الأشجار . أتعلم أن أبي وقتها ، وقد كان محارباً في الماضي وذائع الصيت من نايري إلى كاييت ، قد تبوّل على ساقيه ؟ لقد بكى كالطفل الليل بطوله ، في الوقت الذي كانت فيه وانجيكو ، أمي الفعلية ، تواسيه . منذ ذلك اليوم أصبح الاثنان أبوين محطّمين . وأعتقد بأنهما لولا إيمانهما وأملهما بكاريوكي لماتا . وأنا مرضت أيضاً وبقيت طيلة ليلتين أتقيأ كل مايدخل جوفي من طعام أو شراب . وجاء بعدئذ ، كما تعلم ، العقاب . كان

على ثاباي أن تدفع ثمن أفعال أخي . أنت تعرف حادثة الخندق ، بدايتها على الأقل . إذ وقتها فقط ، بعد اعتقالك مباشرة وأنت تحاول إنقاذ وامبوكو ، علمت لأول مرة أن كارانجا قد انضم إلى الحرس الوطني . ماكنت لأصدق ذلك . لقد كان صديقاً لكيهيكاً وغيكونيو ، وأقسموا ثلاثتهم يمين الولاء فكيف كان بوسعه خيانتها ؟

» هذه الأفكار سرعان ما تبددت أمام العمل الآتي المفروض . فالخندق كان يجب أن يطوق القرية برمتها . وبعد أن اقتادوك لم يكن الضرب يتناول فرداً هنا وفرداً هناك ، بل دخل العساكر والحرس الوطني إلى الخندق وضربوا أي إنسان حاول أن يرفع ظهره أو حاول أن يتقاعس في عمله بصورة من الصور . لقد حشرونا في الخندق حشراً لأن زمن لإنجازه كان محدداً . لقد سُمح للنساء بإجازة ساعتين فقط قبل مغيب الشمس بغية الذهاب والتفتيش عن الطعام . لم يُسمح للإنسان آخر بالخروج : حتى تلامذة المدارس كان عليهم البقاء في القرية . وبعد أيام قلائل تقلصت ساعتنا الإجازة إلى ساعة واحدة . وحينما كاد يقترب الموعد المحدد لإنجاز الخندق سُحبت حتى هذه الساعة الواحدة . كنا سجناء في القرية وكان العساكر قد طوقوها كلها . بمعسكراتهم كي يمنعوا أي هروب منها . وهكذا بقينا على هذه الحال دون طعام . كان سماع صراخ الأطفال أمراً مرعباً . ومدير المنطقة الجديد لم يكن يعير اهتماماً لصراخهم ولكنه كان يسمح للعساكر باختيار

بعض النساء وحملهن إلى خيامهم . يا إلهي ! لأعرف كيف تجنبت ذلك العار . كنت أصلي كل ليلة كيلا يلطخني ذلك العار . ماتت وامبوكو في الخندق . أخذوا جثتها ودفنوها في قبر حفروه على بعد ياردات قليلة من الخندق .

هل تعلم بأننا جميعنا حسبنا أن نهاية العالم قد دنت ؟

« ثم في أحد الأيام بدأنا الغناء . زيد عدد العساكر والحرس الوطني في الخندق . جاءوا بالسياط والعصي ولكنها ، لأمر ما ، لم تخرس أصواتنا . كان يبدأ الغناء رجل أو امرأة من أحد أطراف الخندق ثم نشارك جميعنا بالغناء مبتكرين كلمات من العدم .

بنو اسرائيل

حينما كانوا في مصر

أجبروا على القيام بعمل

أشق من العمل الذي تقوم به الأبقار والحمير .

ولكن أهم أغنية أثارت أشجاننا كانت تلك الأغنية التي غنيناها على وامبوكو وهي راقدة في قبرها .

حين أتذكر وامبوكو

وقد كانت امرأة آية في الجمال

كيف كانت تشخص ببصرها إلى السماء

وتنهل الدموع من قلبها بسخاء .

صلوا للاله بصدق

سبحوه بصدق

لأنه أبداً الإله الواحد نفسه .

من الذي سينسى شمس وغبار هذا اليوم .

والخندق الذي حفرته بالدم !

حين رموا بي في الخندق

انهلت الدموع من قلبي بسخاء .

توقفت مومي عن سرد روايتها لكي تدندن ألحان الأغنية إلى
ميوغو ، وتحاول إضافة كلمتين مناسبتين بدلاً من الكلمتين اللتين
نسيتهما . كانت الألحان بطيئة ، استفزازية ولكنها مفجعة ، وترقرت
الدموع في مآقيها على شكل واضح . كان نهداها يتراقصان مع الأغنية
وكان ميوغو متمسراً في مقعده ، يحاول أن يخفف عن نفسه آلام مشهد
لم يشهده قط لأنه كان قيد الاعتقال في ذلك الوقت .

« المعلولون والشيوخ ، كوالدي ، والأولاد لم يفرض عليهم
العمل . ولكن كان عليهم أن يجلسوا حول الخندق لكي يشاهدوا
زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم أو أمهاتهم يشتغلون ويتحملون السباط » .

« كل يوم كان يأتي مدير المنطقة ببوقه ليدكرنا مراراً وتكراراً بسبب عقوبتنا . كانت ثاباي تحذيراً لبقية القرى كيلا تقدم الطعام أو أي نوع من أنواع المساعدة لأولئك الثوار » .

« امرأتان أخريتان ماتتا . حفرة أخرى حفرت قرب الخندق » .

« طيلة هذه الفترة مارأيت كارانجا . قال الناس بأنهم لمحوه هنا أو هناك حول الخندق ، ولكنه مظهر بتاتاً في المكان الذي كنت أشتغل به . في هذه الأثناء نفذ مخزون طعامنا . ماكان بمقدوري أن أطلب المساعدة من البحيران لأن العديدين منهم كانوا في حالة مماثلة لحالتنا . كان المرء في ذلك الوقت يكره أي ضيف يزوره أثناء تناواه وجبة من الطعام ، لا ، لم يكن أي منا يزور الآخر . وجاء يوم شعرت فيه بأنني لأستطيع أن أتحمل وطأة ذلك . وعلي أن أعترف لك بأن حماتي ووالدي قد تحملوه أكثر مني . وأما أنا فقد شعرت بأنني لن أبقى يوماً آخر على قيد الحياة . وفي تلك الليلة زار كارانجا محلنا . مارضي بالدخول فخرجت أنا إليه . كان قد جلب لنا بعض الخبز تحت جنح الظلام . تحلب اللعاب في فمي . (أرأيت قط فم كلب يتضور جوعاً لدى رؤية الطعام ؟) . ولكن لرؤية البندقية التي كان يحملها ، خانتني شجاعتي وشهيتي وما كان بمقدوري أن أستلم منه الطعام الذي قدمه . عدت أدراجي داخل الكوخ . (وقتها راجت الإشاعات بأن كارانجا هو الإنسان الذي وشى بأخي) . لم أخبر وانغري بما جرى ولم توجهه لي

أية أسئلة ، ولكن لدى رؤيتي جسدها المهزول شعرت بالإثم لرفض
الطعام . تصورت أنها ستموت ، كلنا ستموت ، فانتحبت بصمت .
وعرفت كذلك أن والديّ وكاريوكي كانوا أيضاً يتضورون جوعاً .
.. مات رجلان .

توقف غناؤنا فجأة . ولم تعد نسمع جرس أي صوت بشري وبدا
حتى الأطفال الصغار قد كفوا عن البكاء من الجوع . استمرت أصوات
المجارف والرفوش والمعاول والسياط . ياله من يوم عجيب : فهدت
فيه الإحساس بأي شيء . وجاء كارانجا تلك الليلة مرة أخرى . لم
أستطع أن أتبين ملامحه بوضوح في الظلمة . ولكنني استجمعت كل
ماتبقى لدي من قوة وحركة شفتيّ وتركت كلمة « يهوذا » تفلت
من فمي . وحين تكلم معي كان صوته يبدو لي بعيداً أميلاً عديداً
عن المكان الذي كنت أقف فيه . « خذي طحين الليرة هذا وهذا الخبز
ولاً فسوف تموتين من الجوع . لست من وتني بكيهيكا ، لست أنا .
وأما بالنسبة لتكبتي هذه البندقية لصالح الإنسان الأبيض ، لا بأس .
سيأتي وقت تدركين فيه أنت أيضاً أن أي إنسان في هذه الدنيا قد خلق
وحيداً ، وعليه أن يصارع وحيداً لكي يعيش » . ومضى . صدقته
بعض الشيء ، عما قاله بصدق أخي . ولكنني على الرغم من عدم تصديق
كلماته كان في نيتي استلام الطعام الذي جلبه . إنني متأكدة من نيتي
تلك . — مع العلم أن كلماته قد هونت ذلك الأمر علي . حين دخلت
الكوخ شعرت بالحجل حتى وأنا في غمرة جوعي ولذلك فلم أتمكن
من أن أكشف لوانغري عن كيفية حصولي على الطعام . لم توجه إليّ

أي استفسار ، ولا أبويّ ولا أخي الأصغر ، حين أعطيتهم الطعام في اليوم التالي بقيت عدة أيام أسير مطرقة الرأس . في ذلك الوقت كان عدد من النساء يقدمن أجسادهن للعساكر مقابل حصولهن على النزر اليسير من الطعام ، وشعرت بأنني بقبولي الطعام من كارانجا لم أكن أختلف عنهن . حتى هذا اليوم لم أبج لإنسان قط عن مصدر الطعام الذي أنقذ حياتنا ، لأنني مازلت . والحق أقول ، أشعر بالخجل .

» مات واحد وعشرون رجلاً وامرأة دفعة واحدة . دفنوا قرب الخندق . الغريب في الأمر أنه لم يمّ حتى طفل واحد خلال تلك الفترة .

» بعد الخندق بدأت أشغل في المستوطنة . وأولئك الناس الذين اشتغلوا للبيض في مزارعهم أو في بيوتهم ، استلموا بطاقات تعفيهم من العمل الإجباري الذي بقي وفقاً على من بقي في القرية ، وكان حصولهم على بطاقات المرور أمراً أيسر . كان يجب أن تكون بطاقة مرورك ممهورة بخاتم مدير المنطقة كي تستطيع الانتقال من منطقة الاحتياط إلى المزارع الأوروبية أو من موقع إلى آخر . لقد كنت طيبة الحظ على العموم لأنني كنت أتقاضى تسعة شلنات اسبوعياً مقابل ستة أو أربعة شلنات فقط يتقاضاها غيري في مختلف المزارع . كنا نشغل في مزارع الشاي الكبيرة أحياناً نعزق الأعشاب وأحياناً نقطف أوراق الشاي . وبالنقود التي كنت أكسبها كنت أشتري الطحين الذي بفضلله بقينا خمستنا على قيد الحياة . عقدت العزم على رفض أية مساعدة أخرى من

كارانجا الذي كان الآن قد بدأ بشق طريقه نحو الأعلى وأضحى قائداً للحرس الوطني . كان كاريوكي يتقدم جيداً في المدرسة — دفعت عنه أقساطه المدرسية . رأينا فيه أمل المستقبل . لاشيء يفضل الثقافة .

« طيلة هذا الزمن ما انقطعت عن التفكير بزوجي . وبدأ لي أنه لو كان معنا لسار كل شيء في مساره الصحيح . وكرّرت الشهور والسنون . ماسمعنا شيئاً قط عن أولئك الذين اقتيدوا إلى المعتقل . قالت الاذاعة بأنهم لن يعودوا بتاتاً . لم نصدق ذلك ، ولكن جهازاً كان واحداً يقول للآخر بأن رجالنا لن يعودوا . وإذا صادف وعبرت إحدى النساء عن فكرة مغادرة كنا نحدجها بنظرات الغضب — ونطلب منها أن تغلق فمها : « من أين لها أن تعرف ؟ » ولكننا في أعماقنا كنا نلوك كلمات الأمل بنهم كبير وكنا بأمس الحاجة لأي إنسان يشدّ من أزرنا باصراره على القول بأن المعتقلين لا بدّ عائلون في يوم من الأيام .

« في هذه الفترة حدث أمر للقائد موروثيا جعلنا كلنا نتوجس خيفة من نخندق آخر . كان القائد موروثيا ، وقد كان المسؤول عن هذه المنطقة ، ذائع الصيت أينما كان لقسوته . لقد كان بمنتهى القسوة لاسيما مع أولئك الأفراد من قبيلة الغيكويو الطامعين بالأراضي الاحتمائية للقبيلة والقادمين من وادي ريفت ومن أوغندا ومن تانجانيقا . سمعنا في أحد الأيام بأن الرصاص قد أطلق عليه وهو في طريقه إلى إندي يا ، في وضوح النهار . وأما الرجل الذي أطلق عليه الرصاص

فقد كان يرتدي سترة عسكرية ويعتمر قبعة عسكرية على رأسه ، وكان يتبع القائد وحرسه من على بعد مسافة مأمونة . فكان إذا وقف القائد وقف هذا الرجل أيضاً وانحنى متذرعاً بربط حذائه أو متظاهراً بالتبول . ثم دخل الغابة ، ركض وسبقهم . وأطلق النار على القائد . لقد قالوا بأنه قهقه ضاحكاً علناً حين ترا كض حرس القائد ، من حرس وطني وشرطة . بغية الاختباء . وتمكن من الاختفاء في الغابة قبل أن يتمكنوا من إطلاق الرصاص عليه . لم يمت القائد فوراً بل نقل إلى مستشفى تيمورو . وبعد اسبوعين ذهب رجلان يحملان سلة مليئة بالأطعمة لعيادة القائد المريض . وبما أنهما كانا يؤديان مهمة رسمية فقد سمح لهما بالاقتراب من سريره . فصرعا هناك وقفزا من النافذة وعادا إلى الغابة .

في تلك الفترة أصبح كارانجا قائداً . وبالسرعة التي برهن بها عن نفسه على أنه إنسان مرعب أكثر من سلفه . لقد بدأ يقود الحرس الوطني إلى الغابة لاصطياد الثوار . وخلال مرحلة سلطته هذه اقتيدت من القرية إلى المعتقلات حتى البقية الباقية من الرجال المناسيين . وبلغ ذروة الصرامة في تطبيق أحكام حظر التجول وفرض العمل الاجباري . صادفته ذات يوم وأنا عائدة من العمل . توقف و ناداني . تابعت سيرتي . اثنان من الحرس الوطني ركضا إلي وهدداني بالضرب . ولكن كارانجا أمرهما أن يتركانني وشأني وطلب منهما أن يسبقاه قليلاً ، قائلاً بأنه سوف يتبعهما عما قليل .

— لماذا لم تتركهما يقتلاني ؟ انفجرت صائحة في وجهه .

— رجاء يامومي .

— إياك أن تنادينني باسمي مومي ، مومي .

كنت غاضبة وماكنت أريده أن يذكرني بأعطية الطعام . كنت أتوق إلى أي شيء يحل لي عقدة الذنب تلك التي ربطتني به .

— لماذا يامومي تكنين لي مثل هذا البغض ؟ تابع حدينه وأغدق علي كلماته العاطفية . لقد أحبني ، كما قال ، وما كان يريد سواي ، وأنه جنّب نفسه الاعتقال والغابات كرمي لي .

أليس من الغريب أننا نصطنع اللذات العديدة لأفعالنا كي تلائم المناسبة ؟ على كل حال ، لم أعد حانقة عليه ، صرت أحترقه الآن . لقد بدا بأنه جدير بالازدراء فعلاً وهو في بزة الخاكي الرسمية متنكباً بندقية ضخمة متحدثاً عن الحب على قارعة الطريق . حتى إنني ابتسمت ابتسامة طفيفة ، ضايقته كما بدا لي ، ولكنه لم يتوقف عن سيل الكلمات التي كان يتفوه بها . لم تؤثر بي كلماته . أردت أن أجرح مشاعره ، أن أضربه ضربة في الصميم انتقاماً لكيهيكاً وغيكونيو وأي إنسان آخر .

« لماذا لا ترلدي تنورة أمك وقميصها الجليلي ؟ ففي الوقت الذي نهد فيه الآخرون للحرب تخلقت أنت كي تعلق أقدام أزواجك البيض » . قلت هذا بمنتهى الوضوح حتى إنني خلته سوف يصفعني . هذا الكلام طعنه في الصميم فعلاً ، فارتعشت شفتاه وجاهد كي يقول شيئاً ما . امتقع وجهه واكمل وبعده ذلكلم على نحو بطيء وواضح أيضاً .

— « إنك لاتفقهين . أتريدين منا جميعاً أن نموت في الغابة أو في المعتقلات لكي يتمكن الإنسان الأبيض من أن يعيش بمفرده هنا على هذه الأرض ؟ الإنسان الأبيض قوي . إياك أن تنسي هذا أبداً . أنا أعرف ذلك لأنني تذوقت قوته . إياك أن تخدعي نفسك أبداً وتظني بأن جومو كينياتا سيطلق سراحه أبداً الدهر من لودوار . ولسوف يقصف البريطانيون الغابة بالقنابل كما فعلوا في اليابان وفي مالايا . وأولئك الناس الموجودون في المعتقلات لن يروا أبداً هذه الأرض مرة أخرى . لا ، يامومبي . لقد بقي الجبان حياً لكي يعتني بأمه وأما الشجاع فقد نحرّ صريعاً في ساحة الوغى . وليس من الجبن في شيء أن يتحاشى المرء الضربة » .

أفزعتني هذه الكلمات .

— اتركني وشأني . ومابالك لاتركني وشأني ! صرخت في وجهه وقد شعرت بالضعف . فأنصرف . خيمت الكتابة على نفسي واسودّ قلبي . كان قوله بأن غيكونيون لن يعود البتة قسوة بالغة منه .

ومع ذلك فقد ذهبت حوالي نهاية العام أبحث عن كارانجا في بيته في مركز الحرس الوطني . كان برفتي كاريوكي لأنه كان قد اجتاز إمتحان الكفاءة وكان الصبي الوحيد في هذه النجود الذي له مكان في مدرسة سيريانا الثانوية . هذا ماأغضب العديد من الناس الذين كانوا يتساءلون : لماذا يسمح لصبي أخوه في العادة أن يلتحق بمدرسة حكومية

بينما لا يسمح لأبناء الموالين ؟ ولكنهم لم يستطيعوا منعه من ذلك إلا بعد أن برهنوا على أنه أقسم اليمين . وهذا هو السبب الذي دفعني لزيارة بيت القائد . لم يثر كارانجا أية أسئلة . أعطانا رسالة ضمنها توكيده بأن كاريوخى ، بعد إجراء التحريات المناسبة ، لم يقسم اليمين . وقتها شعرت بالخجل من كلماتي اللاذعة التي كنت قد وجهتها لكارانجا .

« لم تعد الحياة إلى والديّ إلا بعد أن التحق كاريوخى بمدرسة سيريانا . حتى إن ميوغوا طفق يتحدث عن المستقبل وأنهت دموع الفرح من عيني وانجيكو . وأنا أيضاً غمرني البهجة ولكنني لم أستطع أن أنسى ، ولو للحظة واحدة ، كلمات كارانجا حين قال بأن الناس المعتقلين لن يعودوا بتاتاً . بدأت أتصور أن غيكونيو والآخرين قد لاقوا مصرعهم من زمن بعيد — فكرة كانت تؤرقني ليلاً وتصيبني بالارتجاف مما كان يمنعني من الصلاة أو النوم . لاحظت وانغري نظرات القلق في عيني وأضحت هي الآن عزائي وسلوتي . في سنوات الانتظار تلك ، اقتربنا من بعضنا أكثر من ذي قبل ، ليس كحماة وكنة ، بل كشيء آخر لأستطيع له وصفاً . »

« كان كارانجا دائماً يبين لي أن وفائي موقف عقيم . كانت القوات الحكومية وقتها تضرب الثوار ، وما كانت تصلنا من المعتقلين رسالة أو كلمة ، والاذاعة لم تعد تأتي على ذكرهم . وعلى مر السنين أصبح كارانجا صليفاً نحوي . لم يعد يتواضع أمامي كما كان يفعل من قبل ،

وبدلاً من ذلك كان يضحك أمامي ليخرج مشاعري . وأما أنا فقد تشبّثت بغيكونيو من أعماق قلبي . كان بودي انتظاره ، لأنه زوجي ، حتى لو قُدّر لي أن لا أجتمع به ثانية إلا في القبر . فقدت الأمل نهائياً من مقابلته على وجه هذه الأرض وعشت على ذكريات الأيام الهنسة التي عشناها قبل حالة الطوارئ .

« لن أثقل عليك بسرّ قصة طويلة علماً بأن سردي لها ، صراحة ، يخفف الكثير من الأعباء ويجعلني أشعر براحة أكبر لكوني أفضيت لك بمكنونات فؤادي . في أحد الأيام أرسل كارانجا في طلبي إلى بيته . كان يوم خميس . كما أذكر . وكنت قد برمت بهذه المعيشة الضنك . إذ ماعنى الحياة إن لم تحي لشخص تحبه . لرجل يتنفس قربك ويمكنك أن تراه وتلمسه ؟ غيكونيو كان ميتاً ، وليس ثمة بصيص أمل لانتفاء حالة الطوارئ . على كل حال ، ذهبت إلى هناك وأقسمت بأنه إن حاول شيئاً معي ، حتى لو كلمة ، لآخذن قطعة من الخشب وأوسعه بها ضرباً على رأسه أو رقبته . وجدته بمفرده . وقفت عند الباب برهة من الزمن . لم ينظر إلي مباشرة . كان يبدو بأنه قد تغير . ظهر عليه القلق والتقدم بالسن قليلاً . وهذا ما أذهلني — ظننت بأنه مريض أو شيء من هذا القبيل . وهكذا دخلت وسألته عما يريد مني . لم يجبني إلا بعد هنيهة ، حيث قال :

— إن زوجك عائد .

— ماذا تقول ؟

— زوجك عائد — أعاد القول وحاول أن يبتسم .

« شيء مؤلم بدأ يدغدغني وكأنني كنت ضحية شلل عام وكان الدم والحياة يسريان في عروقي مرة أخرى » .

« أرحوك يا كارانجا لا تلعب بأعصابي » تلعثت . صوتي كان محطماً . قلبي كان يطفح بالخوف والأمل ، كنت على استعداد لفعل أي شيء في سبيل معرفة الحقيقة .

« جاء إلى المكان الذي كنت أقف فيه وأراني صفحة طويلة من الورق موهورة بأختام الحكومة . كان فيها لائحة بأسماء أولئك المعتقلين العائدين إلى قراهم . كان بينهم اسم غيكونيو » .

« ماذا تريد أن أقول لك أكثر من ذلك ؟ أقول لك بأنني أتذكر الآن بأنني كنت وقتها مغمورة بالامتنان المهيض ؟ وأنني ضحكت — بل إنني رحبت بشفتي كارانجا الباردتين على وجهي ؟ شعرت بأنني في عالم غريب كالمجنونة . هل علي أن أقول أكثر من ذلك ؟ » .

« سمحت لكارانجا بمضاجعتي » .

توقفت هنيئة عن الكلام . كان لا يزال ذلك البريق يراقص في عينيها السوداوين الشهوانيتين . كانت في ميعة الصبا . كانت جميلة . كتلة ضخمة سدت حلق ميوغو . هاهو الآن يتزلزل ، يرتجف ، كان

في قعر التيه ، ولكن هناك على سطح التيه ، فوقه ، كانت الأرض تدور . الحياة ، الصراع ، حتى ضمن الألم والدماء والفقر ، بدأ شيئاً جميلاً ، للحظة واحدة فقط ، ويحه كيف تجرأ أن يحلم ذلك الحلم ، بل ذلك الوهم ؟

« عندما عدت إلى نفسي وتيقنت مما حدث لي ، سرت البرودة إلى نفسي ، إلى جسدي كله . حاول كارانجا أن يقول أشياء لطيفة لي ، ولكنني أدركت بأنه يسخر مني بزهو . تناولت حذاءه وقذفته به . خرجت أركض واستعصت علي الدموع . ومع أنني قبل بضعة دقائق كنت في غاية الغبطة ، أصبحت أشعر الآن بالكآبة في سريرتي . ذهبت إلى وانغري ، ولكنني بكيت هذه المرة ولم أتمكن من الإفشاء لها صراحة بما جرى . ولكن بدا عليها أنها أدركت الأمر فشددتني إليها وحاولت تهدئة ارتعاشاتي بكلماتها . »

إن إصغاء ميوغو لقصة مومبي جرده من قوته . أخذ الآن ينقب عن الكلمات المناسبة لتحطيم هذا الصمت الثقيل .

— « ماذا تريد مني أن أفعل ؟ » قال وقد أضعفه الألم والاشتياق .

كانت على وشك أن تقول شيئاً ما حين سمعت طرقات متسارعة على الباب ونداء « من هنا ؟ » . دخل الجنرال ر وفي إثره الملازم الأول كويناندو . انفرجت أسارير وجه الجنرال بالرضى ، شيء

لم يكن ميوغو قد رآه ليلة الأحد أو الليلة التي سبقتها . ولكن كويناندو كان يبدو شارداً للدهن ، كهلاً .

« لن نمكث طويلاً » ، قال الجنرال ر بعد أن اتخذ له مقعداً .
التفت بعدئذ إلى ميوغو . كان يبدو الآن أكثر تودداً وأكثر هدراً من المعتاد .

« لقد ذهبت إلى بيتك . وحين لم أعثر عليك هناك فكرت بالمجيء إلى هنا . أفلم أقل لك بأنني سأزورك ؟ أتذكر الليلة الماضية ؟ كنت تبدو قلقاً ، أو مضطرباً بالأحرى . كانت عيناك زائغتين ولا تريان أحد . تحدثت معك في الخارج وكنت تجيبني بصوت غريب عليك كأنه مستعار . أليس غيثوا رجلاً غريباً ؟ أسمعت ماقاله بشأن الطلقات ؟ »
« لا أستطيع — لا أستطيع أن أتذكر — ؟ » .

— « أفلا ترى ؟ قلت لك بأن ذهنك لم يكن على هذه الأرض . غيثوا دائماً يقول للناس بأنه كان يزودنا بالطلقات . أتدري بأنه لم يمدتنا بالطلقات ولا مرة واحدة (حبات الذرة كما كنا نسميها ونحن في الغابة) . »

— « ألم يفعل ؟ » سألت مومي .

— « مطلقاً : كما أنني علمت بأنه لم يتعرض لإطلاق النار من أحد » .

— كيف إذا كسر غيثوا ساقه ؟ سألت مومي .

— ساقه ؟ الشاحنة التي كان يقودها انقلبت في ناكورو ، وبذلك تحطمت ساق غيثوا وتهشمت .

— « فلماذا ، إذا — » .

— إنها تجعل حياته أكثر إمتاعاً لنفسه . إنه يخلق معنى لحياته :
ألستنا جميعاً نفعل ذلك ؟ ولأن يموت المرء دفاعاً عن الحرية موت يوحى
ببطولة أكبر من أن يموت بحادث سيارة . »

شعر ميوغو بأنه كان موضع امتهان غيثوا له . هاهو الآن يشرد
وحيداً مرة أخرى . حلمه تشوه على يد مومي والجنرال ر . أجفل
من النظرة الثاقبة التي حادجه بها الجنرال ر . أين منه الآن ذلك الدفء
الذي غمره في الليلة الماضية ، وفي هذا الصباح ، قبل أن يدخل بيت
مومي ؟

— « ولكن لندع غيثوا وشأنه . جئنا كي نراك » قال الجنرال ر
إلى ميوغو .

— « أيجب أن أخلي لكم الغرفة ؟ » سألت مومي وهي تحاول
النهوض .

— لا . لا قبل أن ترغبي أنت بذلك . هذا أمر يتعلق بأخيك .

— كاريوكي ؟ هل أصابه مكروه ؟

— لا . بل كيهيكا .

— أواه .

— « كما قلت ليلة الأحد . نحن نعتقد بأن كيهيكا كان ضحية فخ . كان في طريقه لإجراء اتصال هام . الآن ، ليس هنالك أكثر من ثلاثة أشخاص كان من الممكن أن يذهب لمقابلتهم . أحدهم وامبوي . بيد أن كيهيكا كان قد أوفد وامبوي إلى ناكورو وزودها برسائل إلى عملائنا . والشخص الآخر هو أنت » قال محملاً في ميوغو . أحشاء ميوغو تشنّجت .

« ولكن كل طفل يعلم ماعملته أنت لكيهيكا وما فعل بك الإنسان الأبيض لقاء ذلك . »

— من هو ذاك الرجل ؟ سألت مومبي وقد شعرت بالانفراج .

— صديق وليس بصديق . ماالمثل الذي كان كيهيكا يلهج دائماً به ؟ آه ، إنه « من مأمته يؤتى الحذر » .

— من هذا الرجل ؟ ألحفت مومبي وقد عيل صبرها .

— لقد قال كيهيكا مرة أو مرتين بأنه يريد مقابلة كارانجا .

— ياإلهي ! تساءلت ونظرت إلى ميوغو .

— وحالما اعتقل كيهيكا التحق كارانجا بالحرس الوطني . إن سلوكه في غيظما هو دليل على إيمه . كويناندو كان هناك البارحة .

أجفل كويناندو ونظر إلى الجنرال . بدا الفسوق على وجهه
والزوغان على عينيه .

« ولن أعود إلى هناك . أبداً أبداً » . انفجر قائلاً بصوت غير
عادي . نظرت مومي والجنرال إليه .
— ماخطبك ؟ سأل الجنرال .

— « لاشيء ، لاشيء » قال كويناندو وهو يحاول جاهداً السيطرة
على اضطرابه . « لاتلقوا بالاً إلي . أشعر بأنني لست على مايرام » .

— « يجب أن ترقد في السرير » قالت مومي وقد سيطر عليها
القلق . « أتريد بعض حبات الأسبرو ؟ »
— « لا ، إنه مجرد صداع طفيف . »

— « ماذا ، ماذا تريدان — ماذا أردتأمني؟ » ميوغو الذي كان شارد
الذهن بأفكاره الخاصة ، أطلق رفيره على نحو بطيء .

« أردنا رؤيتك بخصوص احتفالات يوم الخميس . دعني أقول
لك قبل كل شيء . بأنني ما أقمت الصلاة لله قط . مآمنت به قط .
أنا أؤمن بالغيكويو وبمومي وبالناس السود أهل بلادنا هذه . ولكنني
أقمت الصلاة مرة واحدة فقط ذات يوم . كنت ذات يوم وحيداً
في الغابة ، فركعت وصحت من صميم فؤادي : يارب ، إذا كنت
هناك في السموات ، لئن نجيتني لأجدنّ القاتل الحقيقي لكيهيكاً .

وهاقد حان الوقت ، وأينعت الرؤوس التي حان قطافها . يوم الخميس سوف يحتشد الناس في سوق رونجي لإحياء ذكرى كيهيكا . وفي غيثيما كلّفنا موارا باقناع كارانجا حضور هذا الاجتماع . ولذلك فإن مايجب عليك أن تفعله هو أن تعلن في نهاية خطابك أن على الرجل الذي وشى بكيهيكا أن يتقدم إلى الأمام — ليقف مجللاً بالعار أمام الشعب . لأن كارانجا بتسليمه كيهيكا إلى الإنسان الأبيض يكون قد سنّم وخان الناس السود أينما وجدوا على وجه الأرض . »

صمت مشحون بالتوتر خيم على الحضور بعد الحديث الحماسي للجنرال . بدا كل إنسان في البيت وكأنه غارق في خضم حياته الخاصة — في مخاوفه وآماله . كان الجو متوتراً — كالحبل المشدود . إذا شدته انقطع . وعلى حين غرة وقف ميوغو ، مرتجفاً ، من عبء قرار مفاجيء .

« لايمكن لذلك أن يكون » قال . « جئت إلى هنا كي أخبر غيكو نيو والحزب بأنني لست الإنسان المناسب للقيادة . ويجب على الحزب أن يفتش عن قائد غيري . »

كان صوته متهدجاً . جاهد لكي ينطق بكلمة أخرى ، ولكنه اندفع خارجاً على نحو مباغت .

* * *

الفصل العاشر

إن القرار باقناع كارانجا ، وفي حال فشل ذلك إجباره ، على حضور الاحتفال الكبير في روني ، كان قد اتخذ الليلة السابقة إثر المقابلة التي تمت بين الملازم الأول كويناندو وموارا .

لقد أكدت تقارير موارد ما كان موضع شك بالنسبة للجنرال ر : كارانجا كان هو الرجل الذي وشى بكيهيكا . وإن مسألة موت كارانجا في يوم الاستقلال نفسه لأمر عادل : وإن مسألة إهانته أمام حشد كبير من الجماهير ، إن أذعن من تلقاء نفسه أو مضايقته إن أنكرك ، ليست أكثر من إجراء ضروري تستدعيه الظروف .

كان الجنرال ر رجلاً مقللاً في كلامه ، إلا إذا تمت إثارته . « إنني لأجيد استخدام لساني » كان من عادته أن يقول بسحة من الاعتزاز ، « ولكنني أجيد استخدام يدي » . حينما كان كيهيكا يقف متضرعاً مثلاً أمام مشكلة من المشكلات كان الجنرال ر يتنطح للتصرف حيالها . كان كيهيكا يتحدث عن الاضطهاد والظلم والحرية ، في الوقت الذي

كان فيه الجنرال ر يرى بأمر عينه الأفراد المضطهدين كما كان يرى الإنسان الظالم أو الإنسان الذليل . كان به أثر من الإنسان المغامر . قبل حرب الاستقلال كان يعيش في وسط رونجي يحمل خياداً . لم يكن أحد يعرف شيئاً عن أصوله : قال بعض الناس بأنه جاء وافداً من نايري وقال آخرون بأن مسكنه في إمبو . وعلى الرغم من أنه عاش عدة سنوات في رونجي فإن الناس في ثاباي اعتبروه رجلاً غريباً بينهم . « هؤلاء الناس القادمون من ذلك الجانب من نايري وإمبو » كانوا يقولون « أناس يجدر الخوف منهم ، لا يمكنك أن تعرف ما يخفون لك تحت أظافرهم أو تحت آباطهم » . لم يكن الناس يعرفون حتى اسمه الحقيقي : كانوا كلهم يسمونه كا - ٤٠ . لأنه مرة أو مرتين ، في إحدى لحظاته العفوية والنادرة التي كشف فيها عن هويته الحقيقية ، كان يغني مدائح الشخصية على النحو التالي : انظروا إليّ . شاب في الأربعين ، ولدت عام ١٩٤٠ . وختنت عام ١٩٤٠ . وذهبت لمحاربه هتلر عام ١٩٤٠ ، وتزوجت عام ١٩٤٠ . ولذلك فأنا الشاب ابن الأربعين . (كان يعرف الناس بأن لازوجة له . ولكنه حارب مع البريطانيين في الحرب العالمية الثانية) .

عندما ذلك كان هادئاً ، قلما تحدث عن نفسه أو عن معتقداته السياسية . وبشكل ملحوظ كان يتجنب مشاهد العنف والمشاجرات التي كانت كثيراً ماتحتدم في المطاعم والحانات . كا - ٤٠ كان خياداً ناجحاً وواهماً متخصصاً في خياطة أثواب النساء والأطفال . نجاحه كان يعزى « لشيء يخفيه تحت إبطه » .

ومع ذلك فإن هذا الرجل الذي كان يتحاشى بوضوح المشاجرات وأعمال العنف وكان متكفئاً على نفسه معظم الوقت ، أصبح واحداً من أعنف زمرة كيهيكا بين ثوار الغابة . كان إنساناً مرهوب الجانب في القرية وحتى بين أتباعه . لم يكن الجنرال رينسي أبداً صديقاً أو عدواً . وكان الحرف ريرهز إلى روسيا .

في ذلك الوقت الذي كان فيه الجنرال ريتحدث بحماس عن المسرحية الصغيرة التي كان سيجري تمثيلها في يوم الاستقلال ، كان كارانجا ، المحتل الرئيسي ، مهووساً بمشكلة كانت تبدو صغيرة له قبل ثلاثة أشهر — وكان ينظر إليها طبعاً بأنها احتمال جيد — ولكنها الآن والاستقلال لا يبعد أكثر من ليلتين ، أصبحت تتخذ عنده أبعاداً مرعبة : هل سيرحل فعلاً مستر ثومبسون ؟ هذا اليوم عقد عزمه كارانجا على اكتشاف الحقيقة ، إلماع تذوق طعم مثله ذات مرة حينما قيل له ، كقائد ، أن غيكونيو وغيره من المعتقلين الآخرين كانوا عاثدين في طريقهم إلى القرية . سيذهب الآن إلى ثومبسون ويقول : سيدي ، هل أنتم راحلون فعلاً عن كينيا ؟ لم تقم بين كارانجا وجون ثومبسون علاقة يمكن دعوتها حتى بالعلاقة الشخصية . كما أن الإحساس بالتواكل بينهما لم يكن متبادلاً . بل بالنسبة لكارانجا كان جون ثومبسون دائماً رمز سلطة الإنسان الأبيض ، ساطعة راسخة رسوخ الصخر ، سلطة أنتجت القنبلة وحولت بلداً من الأدغال البرية والغابات إلى مدن عصرية ذات شوارع إسفلتية

عريضة ، وآليات بعجلتين أو أربع ، وسكك حديدية ، قطارات ، طائرات ، وبنائات تطاول أبراجها السماء - كل هذه المنجزات بمدة لاتزيد على الستين سنة . أفلم يختبر هو نفسه تلك السلطة حين كان بإمكانه ، كقائد ، أن يجعل الرجال المختونين يحثون أمامه والنساء يزعنن بمجرد رفع لأصبع من أصابعه ؟

وهكذا كان كارانجا على أحر من الجمر لمعرفة الحقيقة المرة . مشى مرتين في الممرات أمام مكتب ثومبسون ، بصيخ السمع لأية نأمة داخل المكتب . عاد بعد ذلك إلى حجرة عمله وتذكر أن بمقدوره أن يعرف ماإذا كان جون ثومبسون في مكتبه أم لا من خلال اكتشافه ماإذا كانت سيارته الثانية ، الموريس ، جاثمة في مربضها الدائم في « موقف سيارات المديرين » . نهض عن كرسيه كأنسان وخزّه دبوس في مؤخرته ، وبدلاً من أن يتفحص الكرسي مطّ رقبتّه واختلس النظر إلى - إلى المكان الفارغ الذي كانت تحتله في العادة سيارة الموريس . ألن يأتي الرجل إلى العمل هذا اليوم ؟ وجد من العسير عليه كتابة القسائم لأي كتاب من الكتب المكلمة فوق الطاولة . لحسن طالعّه أن السيدة ديكنسون ليست على رأس عملها اليوم . ذهب إلى معمل تجليد الكتب لقتل الوقت مع الرجال هناك . كان كارانجا يذهب دائماً إلى هناك بذريعة أو بأخرى كلما كان متعباً . كان معظم العمال هناك من سنترال نيانزا وكان كارانجا يشعر بحضرتهم بحرية أكبر . لم يكن يحس ، كما كان شأنه مع العمال من قبيلة الغيكويو ،

بأنهم يتحرون ماضيه . كان يكن الاحتقار لهم أيضاً ويبوح بذلك حينما تحدث مع موارا أو مع أي فرد آخر من قبيلته . «هؤلاء الجالو» (١) كان يقول عنهم «لأنهم دائماً ملتصقون ببعضهم ببعض : فما أن تعين واحداً منهم في مركز مسؤولية حتى يستدعي كل رجال عشيرته حينما يتوفر الشاغر » . وهم بدورهم كان يخامرهم الشك حياله . « هؤلاء الواكيكيويو — إياك أن تثق بهم أبداً . إن من يعانقك اليوم منهم كصديق يطعنك في الظهر غداً » ، في حضرته كانوا يلبسون لبوس الوداد .

وبدهم الآن يتحدثون عن المرحوم الدكتور دايك . هل كانت وفاته مجرد حادث ؟ ماذا وجدت تلك المرأة الصغيرة ، السيدة ثومبسون (ياإلهي ! أجملها — أردافها يا صاح — لأنها لم تكن تبالي حتى لو أعطيتها العمل بنفسي) في ذلك البويري البطين ؟ أكان يعلم ثومبسون بأنها تخونه ؟ لابد من أنه كان يعلم . ذلك هو السبب الذي جعل الكتابة تخيم دائماً على وجهه . هل هو نفسه ذاق طعم غيرها من النساء من مثل الدكتورة لايند ؟ وطفقوا يقهقهون . عادوا إلى حادثة الضاري . غضبوا . لقد كانت عواطفهم بجانب كارانجا . يا صاح ! ثومبسون هو الذي أنقذك . ولكنه ما كان ليتخذ عقوبة ضدها وجد كارانجا أن رائحة الغراء الذي يغلي ، وأحاديث الرجال وضحكاتهم ، لم تهدي له أعصابه المتوترة . خرج وسار بين نخير التربة الفيزيائي وبين مجمع الإدارة

(١) : كلمة للتحقير والازدراء .

الرئيسي ، متصنّعاً جلية العمل ولكنه كان يأمل في الواقع أن يلحق
جون ثومبسون من خلال النافذة في المكتب . هل رحل الرجل ، تساءل
كارانجا ؟ كان يجب أن يسأله البارحة ، البارحة بعد حادثة الضاري .
تذكر كارانجا ذعره حينما اقترب منه الضاري . سرت قشعريرة في
جسده . لقد أنقذه ثومبسون من العار . ثومبسون . إنه على أهبة الرحيل .
سار الهويني عائداً إلى غرفته وهو يشعر بالانقباض من جراء إحساسه
بخيانة قريبة .

شعور مماثل خالجه ذات مرة من قبل . كان ذلك في اليوم الذي
نصحه فيه مدير المنطقة ، مباشرة بعد إلغاء حالة الطوارئ رسمياً ،
بتقديم استقالته من منصبه كقائد . وقتها كان القادة السياسيون الجدد
للحزب . من أمثال (أوغنا أودينغا) في حالة هياج عاطفي حيال
الاستقلال وإطلاق سراح جومو كينياتا . اعتقل كارانجا رجلاً لم يكن
قد أدى الضريبة الشخصية عن البالغين لمدة سنتين . كان الرجل عاطلاً
عن العمل منذ أن غادر المعتقل . وبدلاً من إجابته على الأسئلة ، وقد كان
في غاية الحنق ، بصق على الأرض . فعل القائد كما كان من عادته أن
يفعل تماماً ، أمر حرسه الشخصي بضرب الرجل ، واحتجزه في مركز
الحرس الوطني حتى الصباح . سمع بهذا الحدث رجال على علاقة
بأودينغا ، وبذلك وصل إلى المحاكم . فُرض على كارانجا دفع غرامة
نقدية وتقديم الاعتذار علناً . هذا ما طعنه في الصميم . لماذا يجب أن
يعاقب على فعل كان يثنى عليه لإتيانه منذ شهر أو ما يقاربه ؟ فيما بعد

أنخفضت مرتبة كارانجا . زوده مدير المنطقة برسالة توصية عدد فيها مناقب كارانجا المتمثلة في الإخلاص والكمال والشجاعة . « يمكنكم الاعتماد عليه الاعتماد المطلق » . انتقل كارانجا إلى غيشما ، مسلحاً بالرسالة (وكانت موهورة بخاتم الحكومة) ، حيث قابل هناك جون ثومبسون للمرة الثانية . لقد خان كارانجا العهد والتحق بالحرس الوطني حين كان جون ثومبسون مديراً للمنطقة هناك (وذلك بعد وقت قصير على وفاة روبسون) ، وعلى الرغم من أن ثومبسون لم يكن يبدو عليه أنه يتذكر الأيام الخوالي ، فإن كارانجا شعر بأن الرسالة « الحكومية » كانت بحد ذاتها تمثل حلقة اتصال جوهرية . حصل على عمل في غيشما . وسرعان ما دلت على نفسها مناقبه في الإخلاص والكمال والشجاعة ، وسرعان ما أصبح خادماً أميناً للناس البيض في غيشما .

هل كان تهديد الضاري نذير شؤم ؟ فكر كارانجا . لم يعرف كارانجا ، وهو في غمرة إحساسه بالكارثة الوشيكة الوقوع ، إن كان عليه أن يتهيج أو يكتئب حينما دخل عليه موارد إلى الغرفة .

« بالله عليك يا هذا قل لي إن كان الأمر صحيحاً ؟ » بدأ موارد بهمس خانع خبيث قائلاً . « إنك تعرف أسرار كل أصحاب الشأن ممن يحكموننا . فالتق لي بنتف من معرفتك الواسعة » .

— « ماذا تقول ؟ » سأل كارانجا . وقد كان بطيئاً في استجابته لذلك التزلف المصطنع .

— « هل صحيح أن مديرنا كا — ثومبسون قد ارتحل ؟ » لقد كان من عادة موارد أن يستعمل متنطع التصغير (كا) قبل اسم أي رجل في السلطة حين كان يريد أن يغمز من قناته .

— « من قال لك ذلك ؟ » ذعر كارانجا ولكنه حاول أن يتصنع الهدوء .

— « آه ، مجرد إشاعات . وقلت لنفسى أن الشخص الوحيد الذي يعرف الحقيقة هو كارانجا . إنه يعيش أسرار هؤلاء الناس ولا سيما مدير المنطقة . كان ذلك الرجل يحبك وكان يرسل دائماً في طلبك — آه ، نعم ، ولمست بأنه كان يخشاك أيضاً . فهل ذلك الأمر صحيح ؟ » أدرك كارانجا بأنه موضع تملق مما جعله يشعر بالرضى .

— يالكم من قوم وبالإشاعاتكم . ألم تره على رأس عمله البارحة ؟

— نعم ، ولكن أليس من الممكن أن البارحة كان آخر يوم له ؟ ذلك هو السبب الذي حدا به لزيارتك بغية توديعك ، أليس كذلك ؟ هل نقدك بعض الدراهم ؟ ويقول الناس — أتعلم أنني أحياناً أوافقك على رأيك حين تقول بأن ألسنة الناس ألسنة خبيثة ؟

— وماذا يقول الناس ؟ سأل كارانجا وقد خامره الشك والفضول .

— يقولون أن إنساناً أفريقياً ذا بشرة سوداء ، مثلك أو مثلي ، سيحتل مركزه .

— « مستحيل ! » قال كارانجا بحزم معبراً عما لا يرغب في حدوثه أكثر مما يعبر عما يعرف بأنه واقع لاحالة . « يحق لكم أن تتصوروا ماتشاؤون ولكن ثومبسون ليس راحلاً إلى أي مكان . البارحة كنت أجتاذب أطراف الحديث مع زوجته ، وقدمت لي التمهوة . »

— أصبح هذا ؟ قال موارا وهز رأسه مؤيداً مرات عديدة . « حسناً ، إنني أدرك . أتعلم بأنني لن أصاب بالدهشة إن سمعت بأنك تذوقت طعام تلك المرأة . أتدري كيف يتحلب فمي حين أنظر إلى أردافها الملساء وإلى نهديها اللذين يناديان إليك : هيا والمسنا ، المسنا . وصوتها الرخيم كالأغنية ، يجعلك تفكر بمتاعها نفسه . أنت إنسان محظوظ ياهذا ، كيف توصلت إليها ؟ »

— « عم تتحدث ؟ » سأل كارانجا وقد شعر بالدفء لهذا الحديث ، ولكنه كان قلقاً وعاجزاً عن تفنيد ما كان يلوح إليه موارا أو تركيده . — هيا يا صاح . لابد من أنك قد تذوقت طعامها . ماهو طعام متاعها ؟ — « بالكم من قوم . لماذا تظنون أن للأوروبيين أشياء خاصة بهم ؟ — لهم كأني إنسان آخر ، مثلك أو مثلي . »

— وهل هذا اعتراف ؟ على أية حال ، أنا واثق بأنك قد مارست ذلك معها . وبالمناسبة ماذا أنت فاعل يوم الخميس ، يوم الاستقلال ؟ . — « لا أدري . لاشيء... » أضاف قائلاً وقد تبدد ذلك الدفء في داخله . — « لاشيء ؟ ألسنت ذاهباً إلى ذلك الشيء ؟ »

— أي شيء ؟

الاحتفال في رونجي . ألا تعلم أنهم بصدد تنظيم الألعاب والرقصات
احتفالاً بعيد الاستقلال ؟

— « لاعلم لي بذلك » ، قال وقد ظهر التجهم على وجهه .

— ولكن لايجوز أن تبقى وحيداً هنا ! كل الناس في هذا المركز
ذاهبون لسماع خطاب ميوغو :

— ومن هو ميوغو هذا ؟ سأل وقد تسلل شك أكبر إلى صوته .
فتشبت موارد بذلك الشك .

— يقول الناس بأن هذا الرجل يتحدث مع الله ويتلقى الرسائل من
أرواح الموتى . إذ كيف تفسر نجاته من الموت في ريرا وقد مات عشرة
من المتورطين في الاضراب عن الطعام . كما يجب أن تذكر بأنه كان
القائد ؟

— « هذا الحديث حديث خرافة . ألسنة الناس مفعمة بالأحاديث
السخيفة ، » قال دون قناعة عميقة منه . لم يخطر على ذهنه ماهو فاعل
يوم الخميس . ولكن هل بوسعه الذهاب إلى ثاباي ومقابلة الناس الذين
سيهزؤون به ؟ ماذا لو ذهب لرؤية مومي ، ولمرة واحدة لأكثر ؟
أفلا يمكنه أن يقوم بمحاولة أخيرة لانتزاعها من غيكونيو ؟

— يمكنك أن تقول عنه حديث خرافة . ولكنني على كل حال

أفضل أن أذهب وأرى بأم عيني . إن ذلك الإنسان المدعو ميوغو ناسك حقيقي . لقد مكث منطوياً على نفسه وما حدث أي إنسان آخر منذ مغادرته المعتقل . ولكن سيكون هنالك أيضاً جمهرة من النساء ، وأنت تعرف الحرية التي تتسنى لمن (حتى المتزوجات منهن) في أمثال هذه المناسبات .

— « وهل أنت ذاهب إلى هناك ؟ » سأل وقد تملكته الرغبة برؤية مومي .

— أنا ! وهل يتخلف من كان مثلي ؟

— « أخبرني حين تقرر الذهاب » قال كارانجا وهو ينظر من النافذة . في تلك اللحظة بالذات كان جون ثومبسون يوقف سيارته الموريس خارج المبنى .

— « هاقد وصل صاحبك ثومبسون » قال لموارا وهو يعجز عن إخفاء انتصاره . فوقف وبسرعة نفص الغبار عن البزة الخاكي ، وربت يديه على شعره واندفع خارجاً يحدوه الأمل في أن يحظى بمقابلة ثومبسون في الرواق . وقتها سيطرح عليه ذلك السؤال المشؤوم . كتلة من اللعاب سدت حلقه حين شاهد ثومبسون ذاهل الحيا : أيجب أن أسأله أم لا ؟

— « عفوك ياسيدي ! » صاح وكأنه على وشك البكاء . سار جون ثومبسون وكأنه لم يتبته لوجود كارانجا في الرواق . « عفوك سيدي »

رفع صوته بعد أن استجمع شجاعته وهو في غمرة اليأس . استدار
ثومبسون كي يواجه كارانجا .

— ماخطبك ؟ كان الصوت واضحاً ، فاتراً ، وعميقاً .

— « أنتم » — بلغ كارانجا شيئاً من ريقه « — أنتم راحلون ! »
ابتدره بعبارة عادية بدلاً من توجيه السؤال الرصين المتعمد .
— ماذا ؟

— « أنتم — أنتم » وبلغ من ريقه مقداراً أكثر من ذي قبل . خرجت
قرقرة من حلقه حين بلغ ريقه . لكنه رفض التراجع . « هل أنتم
عائدون إلى — إلى بلدكم ؟ »

— « أجل ، أجل . » أجاب الانسان الأبيض على عجل ، وكأنه
أصيب بالحيرة لهذا السؤال . ركب الذعر كارانجا . طفق يعبث بأصابعه
من خلف ظهره . كم تمنى لو ابتلعت الأرض بدلاً من الإحساس بتلك
القشعريرة التي سرت في كيانه . كاد ثومبسون ينصرف ولكنه توقف .
— ماذا بامكاني أن أفعل من أجلك ؟ سأله بأسلوب فظ .

— لا شيء ، لا شيء ياسيدي . هذا كرم منك .

أسرع ثومبسون مبتعداً .

وقف كارانجا في الرواق هنيهة ثم أخرج منديلاً قذراً كي ينشف
به العرق عن وجهه . انصرف بعد ذلك عائداً وكانت مشيته ، لمن

يراقبها ، نحاكي مشية كلب زجره فجأة صاحبه الذي يثق به . كان كارانجا كمن لا يرى موارد الذي كان لا يزال في الغرفة . جلس على كرسيه ، يدها واهتتا على الطاولة ، وألقى على العالم الواقع خارج النافذة نظرة حيرى .

— هل هو عائد إذا ؟ سأل موارد متردداً .

— لأعلم . أجاب كارانجا بصوت خافت لالون له .

وفجأة بدا كأنه يرى موارد للوهلة الأولى .

« ماذا تفعل أنت في المكتب ؟ » صاح في وجه موارد الذي أسرع بالتراجع إلى الباب . هاقدا شاخ الناجد وتقصف ولم يعد يقوى على العض . كارانجا ، وكأنا قد هدّه ذلك التلميح ، استمر في جلسته الميئة إلى الطاولة . وها قد سنحت الفرصة لموارد أن يزهر بانتصاره فنسي ، للحظة عابرة ، إن مهمته كانت تنحصر بمد يد الصداقة إلى كارانجا وباغرائه بحضور احتفالات الاستقلال .

— « أغاضب أنت لأن ذلك السيد تارك إياك ، أليس كذلك ؟ »

سخر منه وهو يقف بكل اطمئنان عند الباب المفتوح . « أفلا تستحق منه كلمة وداع ، أم أنه ليس على ذلك القدر من اللياقة ؟ لقد عملت ذات مرة لدى إنسان أبيض في نيروبي ، وعندما غادر كينيا على الأقل

أطلق الرصاص على حيواناته الأليفة كلها – القطط والكلاب . ما استطاع
أن يتحمل تركها أحياء خلفه دون مربّ رقيق » .

كان من الواضح أن كارانجا لم يكن يسمعه . لم يقم بأدنى حركة
تبدل من جلسته إلى الطاولة .

* * *

الفصل الحادى عشر

حفلة الوداع التي كانت ستقام في فندق غيثيما كان مقرراً لها أن تبدأ في الساعة الثامنة . ذهب جون ومارغري ثومبسون باكراً ولكنهما وجدا أن بعض الضيوف قد سبقوهما إلى هناك . الدكتور برايان أو دونوغو ، مدير مركز البحوث الزراعية والحراجية في غيثيما ، كان غائباً عن الحفلة لأنه كان قد سافر في مهمة حراجية دولية إلى سالزبورى . كان رجلاً طويلاً نحيلاً وذا نظارات سميكة على عينيه . لم يكن يُرى ماشياً في أراضي غيثيما بمعزل عن كتاب تحت إبطه . وأما زوجته فقد شاركت مشاركة قصيرة . وفيما بعد تعزّز الفريق الرسمي بوصول المدير المساعد وزوجته ورؤساء الأقسام المختلفة . وفي غضون ساعة أو مايقاربها أصبحت الصالة العامة في الفندق تعج بالرجال والنساء الذين يرتدون مختلف أنواع الثياب والذين بدأوا يقرعون الكؤوس ويطلقون النكات الخفيفة ويقهقهون .

في البداية كان السيد والسيدة ثومبسون محط اهتمام الفريق الرسمي . نظرات الحسد والازدراء كانت تنصب على زوجتي المديرين الاثنى

اللتين كانتا دائماً تحتلان مركز الصدارة : أليس بوسعهما إتاحة الفرصة لقول كلمة للسيد ثومبسون من مثل (مسكين جون ، عزيز حقيقي ، أحببته حباً جماً ، يالتهديبه ، يالولائه ، أمن الممكن لإنسان أن يكون موضع معاملة أسوأ من قبل حكومته ؟) . لقد فتشوا في قلوبهم واكتشفوا فجأة بأنهم كانوا دائماً من المعجبين بجون ، وأن مارغري كانت صديقة خاصة ، وأنهم سيفعلون كل شيء لمساعدتهما على الاستقرار في موطنهما التالي !

إن الرحيل الوشيك لثومبسون والاستقلال ليلة الغد أعادا إلى الأذهان صورة الرجل الذي كان في قلب فضيحة ريرا . ولذلك كان ثومبسون ضحية ، واستقبل استقبالاً رائعاً في غيثيما ، وهاهو الآن موضع اعتبار كبير عشية رحيله من بلاد أسدي لها خدمات جلى .

حالما انفرط عقد الفريق الرسمي ، قفزت الحلقة إلى نوع جديد من المهرج والمرج . النساء أمطرن ثومبسون بالأسئلة : ماذا سيفعل بعد ذلك ؟ هل وجد ثمة عملاً ؟ أليست مشينة تلك الطريقة التي تخذل بها الحكومة البريطانية رجالاً كانت تشجعهم من قبل وترسلهم إلى الخارج ؟ إن ذلك ناجم عن خضوعها للعنف الأفريقي وللشيوعية الدولية . أفلا ترى مايجري في أوغندا وفي تانجانيقا ؟ لقد هرع الصينيون والروس لفتح سفاراتهم . السيدة ديكنسون ، قيّمة المكتبة ، كانت أكبر المتحدثين في السياسة وتنبأت بوقوع الإبادة الشاملة بعد الاستقلال .

لقد حجزت ، هي وعشيقها ، روجر ماسون ، تذكرتين للسفر بالطائرة إلى أوغندا كي يتجنبنا العنف الذي سينفلت من عقاله على الناس البيض كلهم في كينيا . كانت الآن تقول للحضور : « أقول لكم ، يمكنني أن أراه في غضون عشر سنوات ستكون هذه المناطق توابع روسية ، أو ماهو أنكى ، جزءاً من الامبراطورية الصينية - » . امرأة أخرى قاطعتها مخاطبة جون : « أنت تقدمت باستقالتك ، أليس كذلك ؟ فكر الآن في ذلك ، وأنا - » . بعضهن أردن أن يعرفن سبب إقدامه على تلك الخطوة . أخريات انسحبن خشية إحراج جون (مسكين جون ، قلن من باب الإشفاق عليه ، ملقيات نظرات الازدراء على مارغري التي كان يحيط بها الرجال . « بالطريقة التي تعاملت بها مع الكحول . ليس من المدهش إذاً أن يحاول جون الابتعاد فعلاً عن مشهد العار » .)

الدكتورة لايند كانت تتحدث إلى روجر ماسون عن عملها ، ولكنها بقيت تلقي نظرات القلق باتجاه جون ثومبسون . كانت تتكلم بلا انقطاع ، وروجر ماسون ، رجل طويل ذو شارب أحمر ، كان يبدو برماً بها مع أنه لم يقدم على أية محاولة للإفلات منها .

« منطقة غيثيما ؟ آه ، إنها على مايرام ، إذ أنها على الرغم من أن معظم البطاطا هنا تتعرض لآفة الفطر فان من الممكن معالجتها بـسولفات النحاس . ولكن البطاطا التي تتعرض لآفة الباكثيريا لايمكن علاجها . وهذه هي الآفة التي تؤثر على معظم أنحاء كينيا ، ولا سيما مناطق

الأفريقيين . آه ، نعم ، نحن جميعاً نقوم بكل أنواع التجارب من مثل التجربة التي أقوم بها الآن - حقن نوع خاص من البكتيريا كي يطارده أثر الوباء في النبات . ولكن ، آه - اعذرني - » .

هرعت إلى المكان الذي كان يقف فيه ثومبسون وتمكنت - الآن فقط - من احتكاره لنفسها . وتدرجياً قادتة إلى ركن قصي وأجبرته على الجلوس . كان يبدو عليها الاضطراب وتوقع منها أن تفتحه بحادثة الضاري .

- أتذكر الحادثة التي حدثتك عنها البارحة ؟

- الضاري ؟

- لا ، لا ، بل القصة - قصتي .

- أجل .

- تذكر أنني حدثتك عن خادمي في بيتي .

- نعم .

- لم يلق القبض عليه حتى الآن .

- نعم ، أعتقد بأنك حدثني عن شيء من هذا القبيل .

- إنني خائفة . لأعرف ما يجب أن أفعل .

- لماذا ، ماذا حدث ؟

- لأنني - لأنني - شاهدته مرة ثانية .

— متى ؟

— البارحة .

في الساعة الحادية عشرة أصبح الناس سكارى . أزواج قلائل كانوا يتراقصون . كان النادل الأفارقة يقفون جانباً كالأعمدة يلبسون الجلابيب البيضاء ، والأحزمة الحمراء حول خصورهم والطرايش الحمراء على رؤوسهم .

تخلق الرجال حول مارغري ، يلتهمون قامتها بنظراتهم . واحداً واحداً جرتهم زوجاتهم إلى حلبة الرقص ، حتى لم يترك معها إلا رجل واحد بلحية طويلة شعناء وحاجبين كثرين يتحدث معها . دأبت تختلس نظرات الاستغاثة إلى زوجها الذي لم يكن يراها لأنه كان الآن منهمكاً مع مجموعة تبحث في السياسة ، في يوم الاستقلال ، وفي مصير الإنسان الأبيض في ظل حكومة من السود .

— « إنه من الأمور المنطقية ، أليس كذلك ؟ » كان يقول لها الرجل الملتحي وهو يجرها إلى حلبة الرقص .

— وما المنطقي في ذلك ؟ قالت متثابرة عاجزة عن إخفاء تأففها منه . هذا الرجل كان يذكرها بأسوأ جوانب عشيقها .

— « أن نكون كلنا سكارى ؟ لأعرف لماذا أتصرف هكذا اليوم — تفوّت ، وينجم عن ذلك أن — تفوّت مرة أخرى — أنت — » .

وفجأة سمعت صوت حطام كأس على الأرض . توقف الجميع

عن الرقص والحديث . نظرت مارغري إلى المجموعة التي كانت حول زوجها . كانت يده الفارغة معلقة في الهواء وكأنها ترفع كأساً إلى شفثيه . العيون كلها التفتت صوبه الآن . سارت مارغري بعجلة عبر الحلبة وشبكت يدها بيده وابتسمت بجرأة لا لشيء . اندفع نادل أفريقي يحمل بيده لاقط الكناسة ومكنسة ورفع الحطام . انتهى الصمت . عادت المحادثة إلى سابق عهدها وكأن شيئاً لم يكن .

استقل جون ومارغري سيارتهما عائدين في الظلمة ببطء . إدراكها بأنها ترى غيثيما لآخر مرة شدها إلى زوجها على نحو أوثق .

« قبل هذه الحفلة لم أكن أشعر بأننا راحلون فعلاً . والآن يبدو أن كل شيء أصبح يخص ماضينا . »

تابع زوجها قيادة السيارة متجنباً بيتهما . وعند طرف الغابة أوقف السيارة وأشعل سيكارتين . وفجأة توقفت مارغري أن هذه البقعة هي البقعة نفسها التي ضاجعها فيها فان . بدأت تدخن بجنون ، تنتظر منه أن يوجه الاتهام .

« ربما لن تكون هذه الخاتمة نهاية الرحلة » قال أخيراً .

— ماذا ؟

— « إننا لما نُضرب بعد » أكد بصوت أجش . « أفريقيا لا يمكنها ،

لا يمكنها الاستمرار بمعزل عن أوروبا . »

شخصت مارغري ببصرها إليه ولكنها لم تنبس ببنت شفة .

الفصل الثاني عشر

حينما عاد غيكونيو إلى بيته مساء . قالت مومبي عنه أنه كان عكر المزاج . في البداية لم يتحدث إليها - شيء لم يكن مستغرباً منه . وبعد أن قدمت له الطعام مازاد على أن نظر إليها نظرة واحدة ثم تابع تحديقته إلى الجدار ، وهذا أيضاً لم يكن أمراً مستغرباً منه . ولكن الطريقة التي كان يتنفس بها . وكأنه يكبت أنيناً ، هي ما أفتنتها بأن ثمة طارئاً قد طرأ . وعلى الرغم من أنها كانت ترتعد فرقاً منه ، ومن أطواره ، فلم يكن لها مناص من الخوض في شؤونه .

— ما خطبك ؟ سألته باهتمام ذلول .

— مذ متى كنت أبحث شؤوني معك ؟ أجابها . انسحبت خجلى .

مالذي طرأ عليه في هذه الأيام الأخيرة ؟ لم تكن تعرف أيهما أسوأ : الحديث السابق الرسمي الملهذب أو هذه المحاولة الجديدة لجرح مشاعرها بالكلمات .

« ميوغو كان هنا اليوم » قالت بفتور بعد هنيهة . « وقال بأنه لن يشارك في الاحتفال » .

— ماذا ؟ صاح بها وكأنها مسؤولة عن تصرفات ميوغو . فلم تجب .

— أليس لك أذنان ؟ أنا أتكلم إليك . ماذا قال ؟

— يبدو أنك تسعى وراء الشجار هذه الليلة . أفلم تسمع ماقلت ؟
لقد قال ميوغو بأنه لن يتصدّر احتفالات عيد الاستقلال .

— يجب أن تفتحي فمك واسعاً وألا تتكلمي وأسنانك مطبقة .
لأحد حريض على رؤية أسنانك . أضاف قائلاً واستعاد وضعيته السابقة .

كان من الممكن أن تعود المياه إلى مجاريها (التهذيب وخلافه)
لو لم يدخل الطفل — أصل النزاع — الغرفة راكضاً من غرفة وانغري .
سابقاً كان غيكونيو يعامل الطفل بأدب أيضاً ، دون إبداء استيائه منه
أو حذبه عليه ، وذلك لأن الطفل ، كما حاكم الأمر في ذهنه ، ليس
إلا طفلاً وليس هو المسؤول عن ولادته . كما أن الطفل كان يشعر
بفتور غيكونيو حياله وكان يحترم ، غريزياً ، تلك الفجوة بينهما ،
بيد أنه اليوم ركض ودس نفسه بين ركبتَي غيكونيو وبدأ يلغو وهو
يحس برغبة التقرب منه .

« جلتي حدثني بمثل هذه القصة — قصة جميلة — حول — حول —
هل تعرف تلك القصة التي تحكي عن الإريمو ؟ »
أبعد غيكونيو الطفل بفضافة عن ركبتيه وبدأ على وجهه التقرّز .

تعثر الصبي وسقط على قفاه وانفجر باكياً منطلقاً إلى أمه ابتغاءاً لتعليل ما .
وقفت مومي وقد سدّ الغضب حلقها لهنيهة .

« أي نوع من الرجال تسمي نفسك ؟ أتخونك جرأة الرجال في أن
تلمسني ؟ لماذا تحول غيظك الجبان على طفل ، طفل صغير . . . » .
طففت ترديد كنهر حطم سداً من أمامه . تدفقت منها الكلمات وهدرت
على شكل الفيضانات ، تملأ فمها حتى إنها لم تكن تنطقها إلا بصعوبة .
— « أغلقي فمك يا امرأة ! » صاح بها ووقف على قدميه أيضاً .

— أو تظنني يتيمة ؟ هل تتصور أن أبواب كوخ أبي تغلق في
وجهي إن غادرت هذا القبر ؟

— « سوف أجبرك على إغلاق فمك هذا ، فم العاهرة » صرخ بها
وصفّعها على خدها الأيسر ثم على الأيمن . انقطع فجأة سيل الكلمات .
حدقت إليه وهي تحبس دموعها . ركض الصبي خارج البيت ينادي
جلدته .

— « كان أولى بك أن تقول لي هذا من قبل » قالت بهدوء وهي
لاتزال تحبس دموعها . هرعت وانغري إلى الكوخ ، التوت قسماً
وجهها من الألم ، والطفل يسير في إثرها على بعد مسافة مأمونة . وقفت
وانغري بين غيكونيو ومومي .

— « ما الأمر أيها الطفلان ؟ » سألت وهي تواجه ابنها .

— « يصمني بالعاهرة ، يحتفظ بي في هذا البيت كعاهرة يأماء »
قالت مومي بصوت مخنوق وأطلقت العنان الآن لنشيجها .
— علام كل هذا ياغيكونيو ؟ سألت وانغري ابنها .
— « هذا ليس من شأنك يأماء » .

— « أليس من شأني ؟ رفعت صوتها وهي تلطم جنييها بكلمات يديها . فليأت كل من في الدنيا ويسمع بماذا يحيني ابني أنا . أفليس من شأني أنا المرأة التي ولدتك من بين فخذيهما هذين ؟ لابد من مجيء ذلك اليوم — ها — إلسها ثانية إن كنت رجلاً » . وسيطر الغضب الجامح على وانغري . حاول غيكونيو أن يقول شيئاً ما ، ولكنه فجأة استدأر وأخرج من البيت .

— « وأنت الآن ، كفي عن البكاء وأخبريني بما حدث » قالت برفق إلى مومي التي كانت قد جلست وهي تشرق بالدمع .
تجري مياه النهر حذاء أقل التخوم مقاومة . لقد كان غيظ غيكونيو موجهاً وجهة أخرى ولكن صادف أن كانت مومي أقرب الناس منه . ووجهها وصوتها وجداه في وقت كانت فيه الأسوار التي صأنت حياته — بما اعتورها من إحباط — من الخارج ، هي أضعف الأسوار .

في اليوم التالي لحديث غيكونيو مع نائب منطقته ، ذهب لزيارة الرجال الخمسة المعنيين بالموضوع . تدارسوا وضعهم وقرروا أن

يوسعوا عدد شركائهم في الأرض برفع سعر السهم ودعوة الناس لشراء الأسهم . وبهذه الطريقة يستطيعون جمع ما يكفي من النقود لشراء مزرعة بورتن . وفي عصر ذلك اليوم ذهبوا لمقابلة مستر بورتن كي يعرضوا عليه ما إذا كان يقبل القسط الأول على شكل مبلغ كبير من المال ومن ثم يدفعون له الباقي في نهاية الشهر . وأما القرض الذي وعدهم به النائب فقد كانوا سيستخدمونه ، إذا تم ، في تطوير المزرعة . أول شيء شاهدوه عند المدخل الرئيسي لمزرعة غرين هيل (وهو الاسم الذي كانت تتسمى به مزرعة مستر بورتن) كان علامة جديدة . لم يصدق عينيه غيكونيو حين قرأ الاسم . عادوا إلى البيت حتى دون أن يتبادلوا همسة واحدة ، بيد أن الفكرة نفسها كانت تجول بأذهان الجميع . لقد غادر مستر بورتن كينيا إلى انكلترا ، وكان المالك الجديد للمزرعة صاحبهم النائب ذاته .

حاول غيكونيو ألا يفكر بتجربته المرة ذلك اليوم ولا بمشاجرته مع مومبي حين كان في طريقه إلى كوخ واروي . واجبه الأول كان تجاه الحزب ، وعلاوة على ذلك فقد أراد النجاح لاحتفالات عيد الاستقلال لأن نجاحها يعزز من نفوذه ومقامه . كان واروي في الكوخ وحيداً يستنشق السعوط قرب الموقد . ما الذي جعل إنساناً مثل واروي يرضى عن الحياة على الرغم من تقدمه في السن وفقدان زوجته ، استغرق في التفكير غيكونيو ، وقد اتخذ له مقعداً وأصغى إلى كلمات الترحيب البهيجة الصادرة عن واروي . هل كان السبب يكمن في أنه عاش

حياته الشخصية كاملة كانسان ، كزوج وكأب ، أم لأنه كرس حياته للشعب ؟ « لقد تحققت أولى أمنياتي القلبية : إن لأمي بيتاً جيداً أحيا فيه ، وأمتلك قطعة أرض صغيرة ، ومعى من النقود ما يسد لي نفقات الطعام والشراب . ولكنني بتّ الآن لأجد أية متعة في النقود ، وللثروة طعم الماء الآسن في فمي . وعلى الرغم من ذلك أرى من واجبي متابعة البحث عن المزيد . »

لم يكن واروي راضياً عن الحياة ذلك الرضى الذي أوحى به مظهره الخارجى لغيركونيو . وكان الأمر لا يعدو أنه يجد متعة في العيش النشط ويرفض الانخلاء أمام النوازل المخيبة للآمال . لقد ماتت زوجته منذ عام مضى . موكامي كانت زوجة تكن الإعجاب لزوجها وتجد المتعة في كيل المدائح له بين غيرها من النساء . وأما واروي فقد كان يعود إليها بالطرف كل مساء . كانت تجيد الإصغاء إليه كل ليلة وهو يحيا مجدداً معها كل أفعاله في النهار . وإن لم يكن يطرأ معه شيء مثير كان يعيد عليها سرد القصص القديمة عن ولادة الحزب ، وعن انقطاع علاقة الغيكويو بالبعثات التبشيرية ، وعن مسيرة هاري . كثيراً ما كانت موكامي تؤنبه على غروره ولكنها كانت تستمتع بكل حادثة توحى بقوة زوجها وجراته .

خية الأمل الرئيسية التي كان يعاني منها واروي في حياته كانت تتمثل بأولاده الثلاثة . لقد جنّدتهم بريطانيا ليدافعوا عنها في الحرب

العالمية الثانية . مات أكبرهم في الخدمة الفعلية ، وعاد الإثنان الآخران مدهولين بالمصاعب الفعلية والعنف في الحرب أكثر من ذهولهما بما شاهداه من بلدان ونساء غريبة . لقد مر كلاهما من حالة الطوارئ دون أن يسهما الأذى ، متحاشيين الغابات والمعتقلات على حد سواء وذلك بانبطاحهما وركوعهما أمام الجانب الأقوى في أي زمن وفي أي مكان . بعد حالة الطوارئ عادا إلى وادي ريفت ليعيشا كأجيرين على الأرض التي كان يمتلكها الناس البيض . كاماو ، أكبرهما ، كان يؤمن ضمناً بقوة البريطانيين .

« أقول لكم ، إذا قابلتم إنكليزياً فيجب أن تخافوه » كان يقول بصوت يوحى بمعرفته بأسرار الإنسان الأبيض بشكل أكبر مما كان يريد تبياناه . « لقد رأيت بأمر عيني ما فعله بهتلر . وأقول بالمناسبة أن الألمان لم يكونوا صبياناً . ماذا تتصورون كيهيكا ورجاله فاعلين بأسلحتهم التي لا يمكن التنبؤ بجدواها من بنادق مصنوعة محلياً وسواطير صدئة وحراب مثلومة ؟ » .

لم يكن واروي يؤمن إلا بإله الشعب أو بما كان يسميه بشكل ملغز بروح الشعب الأسود . وكان يؤمن أن قوة خفية تكمن بأناس من أمثال هاري وجومو ، اللذين كانت خطباتهما تثيره دائماً إلى حد البكاء . في أمثال هذه المناسبات كان يروي قصة مسيرة عام ١٩٢٣ ويختتمها بالأسف المألوف : « لو كانت الحراب بين أيدينا لربما . . . » .

كان له إيمان مماثل بميوغو وكان يتمنى أن يكبر إبناه ويصبحا رجلين مثله . ولكم كان يستعمل الصيغة نفسها التي جعلته - على مر السنين - يتنبأ ، بدقة نبوية أصابته بالدهشة شخصياً ، ببطلية القوميين : « يمكنك رؤية ذلك في عيني أي منهما » كان يقول دائماً لزوجته . ولكن موكامي الآن أصبحت في عداد الأموات وخيب إبناه فأله .

انهمك غيكونيو بموضوع الزيارة بعد أن تحدث ببضع كلمات لاعلاقة لها بذلك الموضوع .

— يقول ميوغو بأنه لن يتصدّر المهرجان .

— ماذا تقول ؟ لكنني كنت معه عصر هذا اليوم ولم يقل أي شيء من هذا القبيل .

— ومع ذلك فانه يقول بأنه لن يشرف عليه . إنه إنسان غريب ، من الصعب فهمه .

— الآن وأنا أفكر بهذا الأمر أقول بأنه كان يبدو عليه الاضطراب حين تحدثت إليه .

— جئت إليك لكي نذهب معاً لمقابلته مرة أخرى . وإلا فعلينا اختيار إنسان آخر وليس أماننا متسع من الوقت .
في طريقهما إلى كوخ ميوغو ، غيكونيو تحدث إلى واروي عن خيبة أمله بخصوص مزرعة غرين هيل .

— أفلم يقل لك بأنه اشتراها حين قابلته البارحة ؟ سأل واروي .
— لا ، لم يقل لي شيئاً . ومع ذلك فقد لاحظت بأنه كان يتحاشى
النظر إلى عيني .

— « يالآلهة التي تحكمنا » قال واروي من زاوية التعاطف مع
غيكونيو . أراد أن يحدثه عن كيفية ثورة الشعب ذات مرة ضد حكامه
من النساء اللواتي تناسين مسؤولية مكاتبهن وما فعلن أكثر من زيادة
ثروتهن ، ولكنه لم يضيف على أن تتم قاتلاً : « لن يثيروا إلا النقمة
على محبيهم وعبادهم » .

فلم يجب غيكونيو ولم يضيف شيئاً على الموضوع .

عندما كان ميوغو صبيّاً ذهب ذات مرة إلى محطة القطار في رونجي
كي يتفرج على القطارات . فسار على طول الرصيف وهو يحس بالرهبة
من قطارات الشحن ذات العربات العديدة . في بعض العربات شاهد
الخيول ، حيوانات قوية ضخمة . حذجه أحد الخيول بنظراته ومن ثم
تثأب فاتحاً شذقيه على نحو عريض . ارتعد ميوغو هلعاً وبقي لحظة
مشلول الحركة . لقد أصابه الذعر من أن تطرحه أرضاً سنابك الخيل .

لقد شعر ميوغو بنفس الهلع اللامعقول لدى مغادرته مومبي
والجنرال ر . تراءى له أن ثمة خطى تغذ السير في إثره على شكل مطاردة
لامهرب له منها . أراد أن يعود إلى كونه فتعجّل في خطاه كي يصل
إلى مبتغاه . ولكنه وجد أنه مجرور للتفكير بحياة هؤلاء القرويين بشكل

لامندوحة عنه . حاول أن يفكر بشيء آخر — بنفسه مثلاً أو بعمته —
ولكن أتى له أن يتملص من معرفته بحياة كل من غيكونيو ومومي .

كانت الشمس ترسل شواظاً من نار . كان الأطنال — على مألوف
عادتهم دوماً — يلعبون في الشوارع . لقد شاهد البارحة — يوم الأحد —
هذه الأكواخ وكانت كأشياء لاعلاقة لها به . البارحة ، وهذا الصباح ،
قبل أن تسرد عليه قصتها مومي ، كانت الأكواخ تمر به دون أن
تثير في نفسه شيئاً من الماضي . ولكن الأشياء الآن صارت تبدو على نحو
مختلف : الأكواخ ، الغبار ، الخندق . وامبوكو ، كيهيكا ، كارانجا ،
معسكرات الاعتقال ، الوجه الأبيض ، الأسلاك الشائكة ، الموت . هاهو
الآن يدرك تلك القبور التي تجاور الخندق . قشعريرة باردة بدأت تدب
في أوصاله ، خوفه من سنانك الخيل الجامحة تحول إلى ذعر من مفاجأة
لاتحمد عقباها . منذ سنتين ، في المعتقلات ، ماكان يتبادر لذهنه
الاهتمام بتسجية وامبوكو في قبرها ولا بمشاعرها . فكيف حدث
وشقت له قصة مومي سريره المتبلدة وأطلقت العنان لأفكار ومشاعر
حييسة . إن وطأة كلماتها ووجه الجنرال ر قد استحالاً إلى أفعال من
الماضي . كان يحب فيما مضى أن ينظر إلى أحداث في حياته كلاً على
حده . لقد قُدر للأمر أن تحدث في لحظات مختلفة . وليس للمرء
خيار في أي شيء بذلك القدر من التوكيد الذي يرافق عدم استشارة
المرء في أمر ولادته . وقتها لم يكن ينهك فكره في محاولة الربط بين

ماحدث من قبل وما حدث من بعد . سار في الشارع كالخدير دون أن يفكر فيه ، لافي بدايته أو في نهايته .

فجأة توقف ميوغو في منتصف الطريق الرئيسية ، أصيب بالذهول لاكتشافه أنه قد غاص بأعماق القرية . تراحمت الأحداث عليه . قلقل نفسه بصعوبة كي يجد مخرجاً من كومة الأحداث . انجّر ثانية إلى الخندق وقد كانت مقاومته لهذه العودة حتى البارحة أمراً بالغ الأهمية . جدران الخندق كانت الآن متداعية : لقد تكوم التراب وملاً قاع الخندق . قشور البطاطا ، قشور الذرة المتعفنة ، قصاصات الورق الأبيض ، عظام لصقت بها نتف من اللحم المتعفن ، كلها كانت الآن منشورة فوق وعلى ماأصبح الآن حفرة ضحلة . ثلاث نساء ، وقد تقوست ظهورهن بأكداس الحطب ضعف تقوسها العادي ، عبرن الحفرة باتجاه القرية .

تابع ميوغو مسيره يحدوه الأمل — بفضول آثم — أن يصل إلى المقطع الذي ساهم هو نفسه بحفره . احتدم في سريره الخوف والترقب المتوتر . لسوف يثبت ناظريه على ذلك المشهد ، لا ، ولن يجفل .

المشهد برمته أصبح حيويّاً وشيقاً من جديد . كان يشتغل على بعد ياردات قليلة من المرأة ، وقد مضت ثلاثة أيام على عمله في البقعة نفسها . قفز الآن أحد أفراد الحرس الوطني وطفق يلسع المرأة بالسوط . شعر ميوغو بأن السوط ينهش من لحمه ، نشيجها المؤلم كان كصرخة

في أعماق فؤاده . لم يكن يعرفها ، لقد رفض طيلة الأيام الثلاثة أن يعترف بأن من حوله مضطهدون مثله . الآن لم يكن يرى إلا المرأة ، والسوط والحارس الوطني . تابع معظم الناس حفرهم متصنعين عدم سماع صيحات المرأة ، خائفين أن يلقوا المصير نفسه . أناس آخرون اختلسوا النظر إلى المرأة حين كانوا يرفعون مجارفهم ورفوشهم . ميوغو لمذعوراً تنق طريقه إلى الأمام وأمسك بالسوط قبل أن يكيل الحارس الوطني السوط الخامس . تراكض إلى مكان الحادث عدد من أفراد الحرس الوطني وجنديان أو ثلاثة . توقف الناس الآخرون مؤقتاً عن الحفر وشاهدوا العراك والسياط التي كانت تنهاوى على جسد ميوغو «انه مجنون» قال بعض الناس فيما بعد ، بعد أن أبتعدت به عربة الشرطة . بقي المشهد بالنسبة لميوغو كابوساً يعجز عن إدراك تفاصيله المتفتتة والضبابية ولحم بعضها ببعض خلال عملية التفتيش السري التي تعرض لها فيما بعد . لم يكن يرى خلف الطاولة إلا الوجه المكفهر لذلك الإنسان الأبيض الذي كانت عيانه الفاترتان تتفحصان ميوغو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . وأما الصوت الذي صدر أخيراً وكأنه صادر عن جثة هامدة ، فقد كان مشحوناً بالسم الزعاف .

— إنك ممن حلفوا اليمين .

— لا ، لا ، يا أفندي .

— أعيدها إلى الزنازة .

شرطيان جّراه خارج المكتب ، صبّا عليه الماء البارد ، واحتجزاه

في الزلزلة . يالعدد المرات التي نسي فيها تلك النعال المسمورة تنغرز في لحمه . ولكنه لم ينس ولو مرة واحدة الماء المسفوح على الأرض الإسمنتية . مدّ ميوغو بصره وتطلع إلى الرجال والنساء الذين كانوا يشتغلون في المزارع الضيقة المسوّرة بالأسيجة الشعثاء الممتدة من الحفرة التي كانت خندقاً ذات مرة . بدا عليه كأنه يرى الأشياء لأول مرة . أكان الناس دائماً يفعلون هذا ، يوم عمل ويوم راحة . يتملقون التربة الصماء ابتغاء الحصول على الطعام ؟

وفجأة تلاشى ذلك الفضول الذي دفع بميوغو للعودة إلى الخندق ، ورغب بالهرب من الخندق ومن الذكريات التي شرعت تجلجل في نفسه . فدخل القرية وبدا كوخه الآن وكأنه المكان الوحيد الأمين . أراد أن يعود إلى تلك الحالة ، حالة النسيان ، التي كان فيها قبل أن يسمع قصة مومبي ويخندق إلى عينيها . في طريق عودته إلى كوخه كان يتير زوبعة خفيفة من الغبار خالف قدميه .

تلك كانت اللحظة التي قابل واروي فيها ميوغو في الشارع . كان واروي قادماً من تجمع صغير تجمهر خارج كوخ المرأة العجوز . وأما بالنسبة إلى ميوغو فقد كان واروي شبحاً مقيتاً ولا سيما في هذه المرحلة . كان يحتقر واروي دون أن يعرف سبباً لذلك . كان القلق بادياً على وجه واروي من جراء التفكير ولكن ميوغو لم ينتبه إلى هذا . « أمثال هذه الأمور كانت تحدث في الماضي البعيد » بادره مباشرة وكان ميوغو كان يعرف مسبباً تلك الأفكار التي تدور في ذهن واروي .

- أية أمور؟ مشيا الهوينى في الاتجاه نفسه .
- أفلم تسمع ؟
- لم يتناه إلى سمعي شيء ذو شأن .
- ولكن هذا الأمر ذو شأن . صدقاً كانت أمثال هذه الأمور تحدث ، ليس مراراً وإنما مرة أو ربما مرتين ، ولكنها وقعت فعلاً . حين كان الرجل أو الطفل يموت ، كان يلقي به في الغابة . لقد رأيت بأم عيني ، حين كنت يافعاً ، رجلاً يعود من بين الأموات .
- ماالذي حدث ؟ سأله ميوغو وقد عيل صبره .
- أنت تعرف تلك العجوز . وتعرف أنه كان لها صبي أبكم أصم منذ الولادة .
- اضطرب ميوغو لمجرد ذكر العجوز ، وتلاشى الضيق الذي أحاق به لمراى واروي . نفذ صبره قبل أن يروي واروي القصة على هواه . وتذكر ميوغو أنه كاد يلدخل عليها في كوخها الأحد الماضي ، فهل ماتت ؟
- وماذا حدث لابنها ؟ لقد أردى قتيلاً بطلقة أصابت منه مقتللاً خلال حالة الطوارئ . وكما يمكنك أن تتصور فقد سبب لها مصرعه ألماً مفرجاً . طيلة هذه السنوات ما بارحت كوخها ولا حدثت إنساناً بكلمة واحدة . اليوم بدأت بالنطق . مجرد مصادفة . وماذا تقول ؟ تقول بأن ابنها عاد وقد شاهدته مرتين .

— إنه لأمر عجيب ، علّق ميوغو .

— تقول بأنه دخل الكوخ مرة ثم غادره دون أن ينبس ببنت شفة .
ولذلك تركت الباب مفتوحاً أياماً بلياليها كي يتمكن غيتوغو من العودة .
تقول بأنه عاد مؤخراً ، وقف بالباب ، ومضى دون كلام للمرة الثانية .
لقد أصبحت تنطق ، إنها تتحدث طيلة الوقت .

— إنه لأمر عجيب ، قال ميوغو ثانية وقد بلغ به الذعر أي مبلغ .
— نعم ، هذا ما أقوله . إنه حدث عجيب في قريتنا ، ولا أستطيع
أن أمتنع عن قوله لنفسه حين أرى أن ثمة أشياء قد وقعت منذ سنة
أو سنتين — أو منذ عدة سنين ، تعود لكي تقلقل طمأنينة امرأة عجوز
وراحتها . أولئك الذين دفنوا في التراب يجب أن يبقوا في التراب . والأشياء
التي حدثت البارحة يجب أن تبقى مع البارحة .

لقد وجد ميوغو أن هذا الأمر أقلقه بطريقة لاتفسير لها عنده إلى أن
تمكن في خاتمة المطاف من تخليص نفسه من واروي . تجول في الشوارع
يفكر في تلك المرأة العجوز وفي ذلك الرباط المثير القائم بينه وبينها ،
حاول أن يطرد الحادث من ذهنه بعد ذلك ، ولكنه اكتشف وهو في
طريقه أن نفسه تجفل من فكرة مقابلته شبحاً ميتاً . الحياة نفسها بدت
تجوالاً لامعنى له . ليس هنالك بالتأكيد أية علاقة بين شروق الشمس
وغروبها ، بين اليوم والغد . فلماذا يخشى إذا ما دفن وانتهى أمره ،
فكّر فيما بينه وبين نفسه وهو يتذكر المرأة العجوز . بيد أنه سرعان

مايبدأ يسمع صوت مومي في سريره ، ويرى وجه الجنرال ر يحده
بنظراته . وقف في ساحة مكشوفة في القرية . تهدلت شفته السفلى :
شعر بأن عزمه ينحور . وحين شعر بالوهن يدب في جسده اتكأ على
شجرة صغيرة وتهاوى تدرجياً على الحشيش . أمسك رأسه بكلتا يديه .
لست أنا ، همس كي يقنع نفسه . لست أنا ، كان من الممكن أن
يحدث قتل الرجال والنساء في الخندق حتى لو . . .
حتى لو هاهو الآن يُن . كان صوت مومي كالمدية التي
شققت له قلبه وتركته عارياً أمامه . كان الطريق من كوخه يقضي إلى
الخندق . ولكن هل كان ثمة مناص من ذلك ؟ كان من الممكن أن يموت
المسيح على الصليب ، بطريقة ما . فلماذا أنحوا باللائمة على يهوذا وقد
كان مجرد حجر قذف من بين يدي قوة خارقة أكبر من قوة الإنسان ؟ .
كيهيكا مصلوباً ومضت هذه الفكرة في نفسه ،
وحملت نبيء غريب له . هاهو يرى الآن دماء غزيرة تسيل من جدران
كوخه الطينية . لماذا لم ير هذه الدماء من قبل ، تسائل الآن وهو صامت
تقريباً ، دونما خوف . ولكنه طفق يرتجف وهو في طريقه إلى كوخه
وقد عقد العزم على أن يكتشف إن كانت الدماء هناك فعلاً .

لم ير شيئاً على الجدار . جلس على سريره وأسند رأسه بكلتا يديه
من جديد . هل كان رأسه يتصلدع ؟ أجفل لورود هذه الفكرة ونظر
إلى الجدران مرة ثانية .

كان الظلام قد حل مساء حين دخل غيكونيو و واروي كوخ ميوغو .

— « أختي ألا يكون رأسي على مايرام » ، قال لهما . « ليس بوسعي ، ليس بمقدوري أن أواجه هذا العدد الكبير من العيون » .

— « تناول حبوب الأسبرو وهي تصفني لك رأسك » قال واروي ، وقد عجز عن الغوص إلى أعماق تلك الكتابة المبهمة التي تهيمن على الكوخ . « ماذا تغني الدعاية ؟ دونك الأسبرو لأنه الدواء الناجع » وضحك ضحكة صفراء لوحده ، ثم صمت فجأة حين تذكر محادثته القريبة مع ميوغو بشأن المرأة العجوز .

— « نرجوك أن تفكر بالأمر ثانية » قال له غيكونيو ، وغادر الكوخ واروي وغيكونيو . احتار غيكونيو لنظرة الرعب التي كانت تهوم على وجه ميوغو . وأما واروي فقد تذكر بأنه لما يحدث ميوغو بعد عن المرأة العجوز .

« إنها مجرد تصاوير في الذهن » أنهى غيكونيو الموضوع وقد بدأ يفكر في مومي . وفجأة شعر بالخافز لضربها ، لضربها فعلاً ، ووضع حدٌ لها . وهذه المرة لن يسمح لأمه بالتدخل .

اتجه واروي إلى مسكن وامبوي وأخبرها عن تمنع ميوغو . ذهبت وامبوي و واروي إلى عدة أكواخ أخرى وتحدثا بالأمر نفسه . وهكذا

انتقل الحديث من كوخ إلى آخر . إن الرجل الذي عانى عناء مريراً يدلّل الآن أخيراً على عظمتة بتواضعه هذا . لقد أصبح ميوغو ، برفضه تصدّر المهرجان ، بطلاً أسطورياً .

إلى من يتوجه الإنسان ، تفكر غيكونيو وهو يسرع لصب جام غضبه على مومي . كان غاضباً على كل الناس : النائب (لماذا يجب انتخاب أمثال هؤلاء الرجال الذين لا يفعلون أكثر من زيادة ثروتهم الشخصية (وميوغو) من يظن نفسه ؟ (ومومي) حسبت بأن الزواج سيحقق لي السعادة) . ارتجف انفعالاً خارج البيت . لن يمنعه إنسان قط . لسوف يجلبه مومي إلى أن تستغيث طالبة منه الرحمة .

فتح الباب على مصراعيه بعنف ، ولكنه مازاد على أن حدق إلى عيني وانغري .

— « لقد عادت أدراجها إلى ذويها . انظر كيف هدمت بنفسك بيتك . لقد دفعت بامرأة طيبة إلى حمأة البؤس دونما ذنب اقترفته . فلن الآن ما الفائدة التي ستجنيها من المثابرة على تسميم أفكارك بأمثال هذه الأشياء في الوقت الذي كان يجب عليك أن ترضى وتفتش عن أفضل وسيلة لبناء حياتك . ولكنك أنت ، كطفل سخي ، مارغبت بمعرفة ما حدث قط ، ولا أردت أن تعرف على أي نوع من النساء كانت تنطوي مومي » .

في الظروف العادية كان يلرك غيكونيو أن وانغري حين تلجأ

إلى ذلك الصوت الفاتر المحكم ، فقد كان ذلك ينم على أنها غاضبة
أو مجروحة في الصميم . والآن هو نفسه غاضب ولكنه لا يحسن التعبير
بالكلمات عما يجيش في ذهنه من أفكار عديدة .

— « فلست مض ولا تعد مطلقاً » صاح في وجه أمه غاضباً وقد شملها
ضمن تلك المؤامرة العامة على حياته . وقفت وانغري وهي تهز سبابه
يدها اليمنى في وجهه .

— « أنت . أنت . لو أنك اليوم طفل تحبو على ركبتك وتأكل
الطين والتراب لقرصت فخذيك قرصاً موجعاً لكي تتعلم . ولكنت صرت
الآن رجلاً . عد وتأمل ما في سريرتك وافهم نفسك » .

مخرجت وتركت غيكو نيو يقف وحيداً داخل مسكنه الجديد .

* * *

الفصل الثالث عشر

إن معظمنا نحن الوافدين من ثاباي رأوه لأول مرة في سوق رونجي الجديدة في ذلك اليوم الذي هطل فيه المطر غزيراً . أتذكرون ذلك الأربعماء الذي سبق عيد الاستقلال بيوم واحد فقط ؟ يومها أعولت الريح وانهرس المطر مدراراً على الأرض . فسارعت النساء لترك سلعهن في العراء وتدفعن إلى الحوانيت طلباً للمأوى وسرعان ما تجمهرن تحت السقائف الضيقة ، وبدأت حبات المطر تنقطر من الأكياس ومن رقاع الثياب التي كن يسترن بها رؤوسهن ، وتشكلت البرك الصغيرة على الأرض الإسمنتية . قال الناس بأن ذلك المطر المدرار كان ثواباً لنا على حريرتنا التي دفعنا تمنها غالباً . إن عين مورونغو في السماء لا يغمض لها جنين : إنه دائماً ينرف دموعه فوق أرضنا هذه . منذ بدء الخليفة . كما كان من عادتنا ، نحن الأطفال ، أن ننشد :

انغاي (الله) وهب الغيكويو منطة جسيمة ،

لا ينضب فيها الماء ولا الطعام ولا المراعي ،

لذلك من الجميل أن يرفع الغيكويو آيات الشكر لله أبدي الدهر ،

لأنه كان دائماً سخيّاً عليهم .

لقد هطل المطر في اليوم الذي عاد فيه كينياتا إلى وطنه من انكلترا ،
كما هطل أيضاً في اليوم الذي عاد فيه كينياتا إلى غاتوندو من مارالال .
رأينا هذا الرجل يسير تحت المطر ويحمل سلة مليئة بالخضار والبطاطا
تتدلى فوق ظهره . كان طويل القامة عريض المنكبين ، يسير بانحناء
طفيف مما تركّ لدى الناس انطباعاً خاصاً عن قوته البدنية . وبما أنه
كان الإنسان الوحيد السائر تحت المطر فسرعان ما استقطب انتباه الناس
الواقفين على الأرصفة وتحت سقوف الحوانيت ، حتى إن بعضهم
شقوا طريقهم بالقوة وسط الزحام للتقدم إلى الأمام ابتغاء رؤيته .

— ماذا هو فاعل ، أيمرح تحت المطر ؟

— إنه إنسان أبكم أصم .

— إنه يتباهى ، إذا سألتهموني .

— ربما عليه أن يقطع مسافة طويلة ويخشى حلول الظلام .

— حتى لو كان كذلك ، يجب عليه الانتظار إلى أن يخف المطر
قليلاً ، إذ أخبروني بربكم ماذا يعني إن وصل البيت مصاباً بذات
الرثة في حناياه ؟

— أو ربما ينيخ على صدره هم ثقيل .

— ليس ذلك أمراً يدفع بالمرء إلى اللبل لحلد المرض ، ومن منا لا يحمل هما في صدره ؟

اقترب الرجل من الطرف البعيد لحوانيت رونجي . تحدثت النسوة عن كل المخاطر التي يتعرض الناس لها إن هم عرضوا أنفسهم للمطر . سرعان ما اختفى الرجل وغاب خلف الحوانيت .

— ما الذي يمنعه من اتقاء المطر ؟

— « ميوغو إنسان غريب الأطوار » قالت وامبوي مبعنة في التفكير .

مضى ميوغو إلى السوق لا يتابع بعض الأطعمة . وحينما كان يشق طريقه وسط الزحام ، بين صفوف النساء اللواتي كن يفترشن الأرض ، شعر بأنه مراقب وندم أشد الندم لمجرد مجيئه إلى هذا المكان . وفجأة بدا أن الشمس تحتجب قبل أوانها وتلونت المنطقة والسماء باللون الداكن القاتم . هبت ريح باردة وبدأت تنسج قصاصات الورق البيضاء ورقع الثياب والحشائش والريش وتدور بها على شكل الإعصار . وسرعان ما تبدلت السماء بالغيوم ، ولعت ومضات البرق التي تبعتها زمزمة الرعد . وهطل المطر مباشرة . إحساس مرعب جديد طفق يخالج ميوغو مخافة عودة مشاهد مئة للحياة من جديد ، تذكر التمام النسائية في الحوانيت الهندية منذ زمن بعيد ، فولى الأدبار .

في مكان ما بدأت امرأة بأغنية الخندق التي كانت نشيد القرية
في زمن مضى . نساء أخريات التقطن منها اللحن .

وقفز في الخندق ،

والكلمات التي وجهها للعسكري خرقت كالخربة قلبي .

إنك لن تضرب المرأة قال له ،

إنك لن تضرب امرأة حبلى ، قال للعسكري .

توقف العمل في الخندق

وسكنت الأرض أيضاً .

وحينما اقتادوه بعيداً

دموع ، قانية كالدماء ، تدرجت على وجهي .

كان الناس يلهجون باسم ميوغو وتتناقله الشفاه همساً من شفة
لأخرى ، كما أن قصصاً سرية عنه انتشرت بين نسوة السوق . ما كان
لهذا الأمر أن يحدث في يوم تسوق عادي ، بيد أن هذا اليوم لم يكن
مجرد يوم آخر كبقية الأيام . إذ أن كينيا ، في هذه الليلة ، ستتال
استقلالها . وميوغو ، بطل ضيعتنا ، لم يكن إنساناً عادياً .

وامبوي أوضحت الموقف على النحو التالي : إن يوم الاستقلال
بدونه سيكون يوماً باهتاً ، إنه كيهيكا جديد بعث من القبر . فطافت

في السوق وقد عقدت العزم على وضع قرارها الضمني موضع التنفيذ .
على النسوة أن يتصرفن ، على النسوة أن يفرضن المسألة . « وفي خاتمة
المطاف إنه ابننا » قالت للنسوة في السوق إبان تجمع مرتجل انعقد بعد
المطر . إن شعلة النضال لم تخب بعد في روح وامبوي .

كانت تؤمن بقدرة النساء على التأثير في الأحداث ، لاسيما حيث
يفشل الرجال في التصرف أو حين يبدو عليهم التردد . كثير من الناس
في ثاباي القديمة كانوا يتذكرون مسرحيتها التي أصبحت شهيرة
في هذه الأيام ، ألا وهي إضراب العمال عام ١٩٥٠ . كان المقصود
بالإضراب أن يشل حركة البلاد ويضع العراقيل في وجه حكم الانسان
الأبيض لها . حفنة من الرجال ممن كانوا يعملون في معمل كبير للأحذية
بالقرب من ثاباي ، ومن كانوا يعملون في المستوطنات ، تدمروا
من الإضراب ، بل وقالوا ، كما راجت الإشاعات ، بأنهم لن يشتركوا
فيه . فعقد الحزب اجتماعاً عاماً في رونجي . في ذروة ماجريات الأمور
اندفعت وامبوي فجأة من قلب الجماهير إلى المنصة وهي تقود زمرة
من النساء . خطفت مكبر الصوت من الخطباء - تصرف استقطب
اهتمام الناس كافة . «هل ثمة رجل مختون ترتعد فرائصه لرؤية إنسان
أبيض ؟ لقد رفع النسوة أبناءهن من أمثال ميثورو و مينغو إلى المنصة ،
قالت» . فليتقدم أمتال هؤلاء الرجال ، جأرت ساخرة ، وليلبسوا
تنانير النساء ورباطهن ، وليتخلوا عن سراويلهم للنساء . جلس الرجال

في مقاعدهم بشكل متعتت وحاولوا الضحك مع الجماهير كي يخفوا ضيقهم الضمني . في اليوم التالي ترك العمل الرجال عن بكرة أبيهم .

الآن قرر النسوة أن يوفدن مومبي إلى ميوغو . مومبي أخت كيهيكا . لقد عقدن العزم على مواجهة ميوغو بفتوة جذابة طاغية - فتوة ليس بوسع مخلوق أن يتجاهلها أو يغض طرفه عنها .

وهكذا ذهبت وامبوي تنقل هذه المهمة إلى مومبي . وهناك اكتشفت أن مومبي قد هجرت زوجها ، ولكنها سرعان ما عثرت عليها .

« هذا الأمر يهم ثاباي كلها » أدخلت هذه الفكرة في ذهن المرأة الشابة . « إنسي همومك البيتية والعاطفية . هيا إلى ميوغو وقولي له مايلي : « إن النسوة والأطفال بحاجة إليه » .

وجدت مومبي أن من العسير عليها أن تخبر ذويها عن سبب هجرانها لزوجها . لم تتحدث قط لأُمها أو لأبيها عن ذلك الجحيم المشحون الذي كانت تعيش فيه : إذ كيف بوسعك أن تذهبي وتقول للناس بأن زوجك قد رفض مضاجعتك ؟ أليس من الممكن أن يظنوا وقتها بأنه عنيّ وينشروا تلك الإشاعة الهدامة ؟ ولذلك بما أن أبويها لا يعرفان القصة بخفايرها فانهما لم يستقبلا عودتها بالأحضان . ليس لأحد الأبوين أن يشجع البنت على عصيان زوجها . بل إن وانجيكو سخرت من ذلك التعليل الهزيل الذي قدمته مومبي .

« لشد ما تدهشي نساء هذه الأيام . إن واحدتهن لاتتحمل من زوجها صفعه خفيفة بخف الريشة ، أو أقل نأمة منه . في زماننا كانت الزوجة تتحمل من زوجها اللطمه تلو اللطمه دون أن تخطر لها فكرة العودة إلى ذويها . »

— ألم تعودي تعيريني شيئاً من الاهتمام قط ؟ لأستطيع البقاء في بيته أكثر من ذلك . لأستطيع ، لاسيما بعد أن قال ماقال — لأستطيع لأستطيع .

-- صه ! إياك أن تتحدتي كامرأة سخيفة .

— « لاياأماه . إذا كنت لاتقبليني في هذا الكوخ ، صارحيني حالاً ، وسأغادره مباشرة مع ابني إلى نيروبي أو إلى أي مكان آخر . نعم ، لن أعود ثانية إلى ذلك البيت . قد أكون مجرد امرأة ، ولكن حتى الكلبة الجبانة تدافع عن نفسها حين تحشر في زاوية ضيقة » .

كانت عواطف وانجيكو في صف مومي ، بيد أن واجبها كان دقيقاً ويتمثل في رأب الصدع الذي وقع .

« سوف نتحدث بالأمر باطفلي » قالت بصوت خفيف .

ثمّة شيء آخر كان يسمّ حياة مومي . إذ حتى وهي في حمأه بلواها لم تجد لها سبيلاً لنسيان ماقاله الجنرال ر . كارانجا سوف يُقتل للدور الذي لعبه في موت كيهيكا . أيقضي الواجب إتيان ذلك الفعل

باسم أخيها ؟ لقد تم سفك الكثير من الدماء : فلماذا يجب تحميل الأرض
آثاماً جديدة ؟ استفاقت في الصباح والمشكلة مازالت عصية على الحل .
ولكن لحسن طالعها كان يوم الأربعاء هو يوم التسوق في رونجي حيث
يجتمع فيه الناس من النجود الثمانية التي حول ثاباي . قابلت عرضاً
رجلاً ذاهباً إلى غيشيما وسرعان ما حزمت أمرها . فتناولت ورقة
(كان أخوها قد علماها القراءة والكتابة) وخربشت عليها : إياك
أن تحضر الاجتماع غداً . كتبت عليها عنوان كارانجا وأعطتها إلى
الرجل . بعدئذ شعرت بالانفراج .

والآن توجهت إليها وامبوي برفقة عدد من النسوة طلباً لمساعدتها .
في البداية أحجمت مومبي عن التدخل في أمور تهم الزوج الذي هجرته .
ولكن حين كانت وامبوي تتحدث في الموضوع أصبحت مسحة
التحدي لدى مومبي أقوى من ذي قبل : إنها لن تسمح لغيره أن
يظن بأنها وحيدة وبائسة . ماذا لو نجحت حيث أخفق هو ؟ هزت
هذه الفكرة مشاعرها وهكذا قبلت تنفيذ المهمة بكل رضى .

زادت حدة رعشتها وهي في طريقها ، مساء فيما بعد ، إلى كوخ
ميوغو . كان النهار داكناً وغائماً ، وبدا الليل أكثر ظلمة من المعتاد .
شعرت مومبي مرة ثانية بشعور الصبى التي تتحدى الظلمة والريح
والعاصفة بكل جرأة وهي في طريقها لملاقاة حبيبها . ماذا لو حاول
ميوغو أن — تركت السؤال والجواب معلقين . ولكن الاحتمال

بأن يضبطها غيكونيو تحادث رجلاً آخر سبب لها الهواجس . ولكنها
طليقة بلا قيود : قالت لنفسها ، كي تهديء من روعها . فليضبطها
إذاً ، أعادت بنوع من التحدي . ومع ذلك فإن خطواتها تعثرت وقلبها
زاد من وجيبه حينما وقفت عند باب كوخ ميوغو .

في البداية تدفق الدم حاراً في عروقها ، واختلطت الرهبة بالبهجة
حين رأت ميوغو بالباب . ولكن ميوغو سدّ الباب بكل فظاظة وكأنه
يتوقع تعليلاً منها . انتابها شيء من القلق .

— ألن تدعوني للدخول ؟ سألت بلهجة تودد زائف .

— « آه ، آسف تفضلي » . لم تستطع أن ترى وجهه غير أن الرعشة
في صوته كانت واضحة جداً . لاحظت تحت النور
ذلك القلق الذي يساور ميوغو . تقلص صدوده المتعجرف . كان
في عينيه السوداوين تلك النظرة الفاسقة التي يراها المرء على مدمني
الشراب . جلس بعيداً عنها ، حذراً ، وكأنه كان خائفاً منها . جالت
ببصرها في الكوخ العاري من الأثاث ، الذي كانت جدراناه مضاءة
بنور السراج الخافت .

— « إن الكوخ خال تقريباً من الأثاث » قال بفظاظة وقطع
لها سلسلة أفكارها .

— إن مافيه يكفي لرجل واحد . حاجات الرجل العزب قليلة .
وضحككت بقلق . احتارت لصدوده وخوفه ، تناقض صارخ مع ذلك
الانفعال الذي كان يتراقص البارحة في عينيه . ومع ذلك فقد سمحت
لأفكار لاعلاقة لها بالموضوع ، أن تأسر خيالها . — لو رغب بي — لو
رغب أن — .

أتعلم سبب مجيئي إليك ؟ سألته وهي تفتش عن الكلمات المناسبة ،
ويحدوها أمل كبير في أن تستطيع تحطيم عناده المثير للأعصاب .
« لأأعلم — مالم — مالم يكن بسبب ماتحدثت به الي البارحة — إن
مأعنيه هو — ماعرفت ماذا كنت تريدني مني — » .

« آه ، أردتلك أن تكلم زوجي . كان لابد له من أن يصغي إليك .
أتعلم أنه منذ عودته من المعتقل لم يشاركني مخدعي مرة واحدة . ولم
يقل كلمة واحدة بشأن الطفل . إن ماكان في سريرته كان خافيا عني
البارحة . لقد كان أمراً قاسياً ، قاسياً ، قاسياً » . لقد بدأت
بلهجة واقعية وخلصت إلى حالة من الهيجان . تذكرت ذلك اليوم
الذي عاد فيه غيكونيو من المعتقل . كانت ترغب بالتحدث إليه ،
كي تفهمه بكلمة ، بلمحة ، ولكن الكلمات لم تتكون في ذهنها .
إن ظهوره المفاجيء بدا كأنه قد سحقها وأحاطها إلى صمت مطبق غبي .
ومع ذلك فكم رغبت في التوصل إليه ، حينئذٍ ، هناك ، حين كانت
تحدق إلى الجدار قبالتها ، وهي تتساءل عما سيفعله بها . تمالكت نفسها

وسادت فترة صمت محرنة قبل أن تصحو وتعود إلى ماهي فيه الآن .
« على كل حال لم يعد ذلك هاماً الآن . لقد تشاجرت معه في الليلة
الماضية - وعدت إلى ذويّ » .

— لا ! قال متأسفاً في غفلة عن نفسه .

— بلى . ولكن ليس هذا الأمر هو مادفعني للمجيء إليك هذه
الليلة . نسوة تاباي ومنطقة رونجي أوفدني إليك . إنهن يردن حضورك
الاجتماع غداً .

— لأستطيع ، قال بلهجة قاطعة .

— يجب عليك أن تحضر ، أجابت وارتفعت لهجتها إلى مستوى
التحدي .

— لا ، لا .

— يجب أن تحضر . كل هؤلاء الناس في انتظارك . الشعب يريدك .

— ولكنني — لكنني — لأستطيع .

— إنهم يطالبون بك .

— يامومي ، يامومي ، صاح بصوت معذب .

— سوف تحضر ياميوغو ، ستحضر .

— لا .

— إذا أتوسل إليك . قالت بحزم ، بقوة وسلطان جديدين . حدثته في عينيه ، هاقد توصلت إليه الآن ، تخالجه رغبة في أن تشق قلبه ، اللحظة ، وتقف على أسرار سلطانه على الناس والقدور . هاهو بين أصابعها الآن كالريشة في مهب الريح ، وفجأة أدركت سلطانها عليه . إنها لن تتركه يفلت منها الآن .

— أتدركين ماذا تطلبين مني ؟

— هل هي المعتقلات ؟ سألته وقد رقّ قلبها قليلاً .

— لا — نعم — كل شيء .

— ماذا .

— أنت تطلبين مني ذاتي .

كان أمراً قاسياً . لقد ضربوك في المعتقلات . سمعنا بذلك .

— هل سمعتم ؟

— نعم ماذا جرى ؟

« لاشيء سوى أنني شاهدهت رجالاً يزحفون على الأرض كالمقعدين لأن أيديهم وأرجلهم كانت ترسف بالقيود » . وهكذا بدأ الآن يتحدث بصوت مقهور كالطفل . « ذات مرة حشروا أعناق الزجاجات في مؤنخرات الناس وكان الرجال ينشجون كالحیوانات الحبيسة . جرى ذلك في ريرا » . توقف عن الكلام وكأنه يتمعن بكل فتور مشهداً

بعيداً وقريباً في آن واحد . ثم انحنى قليلاً إلى الأمام وباح بسرّ طفولي على نحو سري . « حين كنت يافعاً شاهدت الإنسان الأبيض ، لم أكن أعرف وقتها من هو أو من أين جاء . وبدأت أدرك الآن أن الفرد من قبيلة مزونغو ليس بشراً سوياً — تذكري ذلك دائماً — إنه شيطان — شيطان » . توقف ثانية كي يلتفت أنفاسه وتابع صوته المقهور . « رأيت رجلاً قطعوا له قضيبه بالكلاّبة . خرج من مكتب التحقيق وتهاوى على الأرض وأعول قائلاً : « يجب أن تعلموا بأنني لن أمس زوجتي بعد الآن . آه . يا إلهي ، أبوسعي أن أنظر في عينيها بعد هذا ؟ » وأما بالنسبة لي أنا فقد تطلعت في الفراغ وفي أعماق ظلمة لا يمكن النفاذ إليها . تساقطت الدموع على وجهه مومي . تمنيت لو تتوصل إليه من جديد ، لو تصحح الخطأ ، لو تشفي الجرح .

« إذا ياميوغو » توسلت إليه من خلال الدموع يجب أن تتحدث غداً . ليس عن أخي ، لقد مات وانتهى أمره . أدى واجبه على هذه الأرض . تحدث إلى الأحياء . حدثهم عن أولئك الذين شوهتهم الحرب ، تركتهم عراة وجرحى : اليتامى . الأرامل . حدث شعبنا عما شاهدت » .

— لم أشاهد شيئاً .

— حتى ذلك قله ياميوغو ، قل أي شيء . قالت وقد شعرت بأنه تملص بعيداً عنها . جاهدت للإمساك به ورأت بأنه كان يرتعش .

— أأحدهم عن نفسي ؟

— عن كل شيء .

— أتريدني أن أفعل ذلك ؟ جأر بصوته . إن تغير لهجة الصوت ،
وقد أصبح يشبه الجوار الصادر عن حيوان على وشك الذبح ، أدخل
الذعر إلى نفسها .

— نعم . وافقت وهي تشعر بالخوف .

« لقد أردت أن أعيش حياتي . ما أردت أن أتورط بأي شيء
قط . ثم دخل حياتي ، هنا ، في ليلة كهذه ، وشدني إلى التيار . ولذلك
قتلته » .

— من هو ؟ عم تحدث ؟

قهقه ضاحكاً بشكل غير طبيعي . « من قتل أخاك ؟ »

— كيهيكا ؟

— نعم .

— الإنسان الأبيض .

— لا . أنا من شنقه — أنا من شنقه .

« ليس هذا صحيحاً — أفقْ ياميوغو — كيهيكا شنق — اصغ
إلي وكفّ عن الارتجاف هكذا — رأيت جسده يتدلى من الشجرة » .

« أنا الذي فعل ذلك ! أنا الذي فعل ذلك ! وطفق يقهقه . ذلك ماكنت تبغين معرفته . وسأفعل ذلك ثانية - لك - هذه الليلة . »

حاولت أن تصيح طلباً للنجدة ولكن صوتها توقف في حلقها . اتجه نحوها وهو يدهم بالضحيج والضحك المخبول . قفزت إلى الباب ولكنه كان قد وصله قبلها .

« لن تستطيعي - الإفلات . اجلسي - ها ! سأفعله لك - » . كان يرتجف والكلمات تخرج من فمه بارتعاش عصبي عنيف .

« تصوري أنك لا تجدين إلى النوم سبيلاً طيلة حياتك - أصابع لا تعد ولا تحصى تلمس لحمك - العيون تراقبك دائماً - في الأمكنة المعتمدة - في الزوايا - في الشوارع - في الحقول - تنامين تستيقظين دونما راحة - آه . يال تلك العيون - أفلا يمكنكم أن تتركوا إنساناً وحده ، للدقيقة واحدة ، للدقيقة فقط - أعني أن تتركوا إنساناً يأكل ويشرب ويشغل - كلكم - كيهيكا - غيكونيو - المرأة العجوز - ذلك الجنرال - من أرسلك إلى هنا الليلة ؟ من هو ؟ قولى . تلك العيون مرة أخرى - سئرى من الأقوى - الآن - » .

حاولت أن تصيح ولكن صوتها خانها للمرة الثانية . أطبق عليها ، يد على فمها والثانية تبحث عن رقبتها . لهثت وارتجفت بشكل مرعب . حذقت إلى عينيه . حتى فيما بعد لم تستطع تعليل الرعب الذي شاهده فيهما . وعلى حين غرة كفت عن مقاومته واستسلمت له .

مابالك ياميوغو ؟ مالعيب في ذلك ؟ وأجهشت بالبكاء .

* * *

أولئك الذين منكم زاروا ثاباي أو نجلداً من النجود الثمانية حول رونجي (أي من كيرارابون إلى كيهينجو) لابد من أنهم قد سمعوا عن ثوماس روبسون أو كما كان يدعى في العادة (توم) . المرعب . كان رمزاً لتلك الأيام السوداء في تاريخنا ، تلك الأيام التي شاهدت ولادته كمدير منطقة في رونجي — أي حين بلغت حالة الطوارئ ذروة العنف والرعب . قال الناس عنه بأنه كان محبباً . تحدثوا عنه بخشوع ، دعوة (توم) أو بكل بساطة (هو) وكأن ذكر اسمه الكامل يستحضر روحه في حضرتهم . كان يسوق سيارة الجيب وخلفه عسكري أو عسكريان ورشاش برن عند ركبتيه ، ومسلس في بنطاله الخاكي تخفي قسداً منه ستره موهة ، ليظهر فجأة في معظم الأزمنة والأمكنة غير المتوقعة كي يقبض على الضحايا الأبرياء الذين هم فوق الشبهات . كان يسميهم بعناصر الماو ماو . كان يضعهم في سيارة الجيب وينقلهم إلى طرف الغابة ويطلب إليهم أن يحفروا قبورهم . كان يطلب منهم الركوع وتأدية الصلاة ، وأحياناً كان يقاطع صلاتهم بطلقة من رشاش البرن . ولكنه في غالب الأحيان كان يقاطع صلاتهم بطلقة مسلسل . بيد أنه أحياناً كان يعفو عن أحد الرجال حتى وهو راكع عند حافة قبره . كان يمارس ذلك السلوك حتى لاتعرف الضحية ، حتى اللحظة الأخيرة . ماذا يجب أن تفعل : أتهرب منه وتخاطر بطلقة أو تنتظر فربما يغير يوم رأيه . قالوا بأنه كان حاضراً في كل مكان . وسرت الاشاعات . هذا

الرجل شاهد توم هنا وذاك الرجل شاهده هناك . بعض القرويين كانوا يرون سيارة الجيب في أحلامهم ويزعقون خوفاً . كان آكل لحم البشر يسير ليلاً ونهاراً . كان هو الموت بعينه . كان متوحشاً بشكل خاص مع أولئك الأجراء الذين يتم ترحيلهم من وادي ريفت إلى أرغس الغيكويو .
كان ذلك عام ١٩٥٥ .

وصل نشاطه إلى ذروته في مايس ١٩٥٥ . وفي إحدى الأمسيات بينما كان يقود سيارته من رونجي إلى مكاتب المنطقة ، رأى رجلاً يسير بمفرده على الطريق الاسفلتي . أقعى الرجل قرب سياج عند الطريق . صاح به توم . جاء الرجل باتجاه سيارة الجيب متعثر الخطأ ، كانت ركبتاه تصطكان على ما يبدو . قرب سيارة الجيب كان من الممكن سماع صريف أسنانه حتى إن توم انفجر ضاحكاً . « لا تخف أيها العجوز » صاح به مرحاً وكأنه يريد طمأننة الرجل « توم لن يأكلك » فجأة انتصبت قامة الرجل العجوز واستل شيئاً من جيبه ، وطلاتان سريعتان اخترقتا جسد توم . وقبل أن تتمكن عناصر الشرطة المدعورة من فعل أي شيء قفز الرجل فوق السياج صوب الحوائط الهندية . أطلقت الشرطة النار في الهواء . لم يمت توم مباشرة . يقال (ولها طابع الخرافة في القرية) بأنه قاد سيارته بنفسه إلى المستشفى حيث مات بعد ثلاث ساعات دون أن ينطق بشيء واضح إلا الكلمة الوحيدة : وحوش . وفي غضون ساعات كانت القرى محاصرة من قبل الجنود . وصدر

البيان الرسمي — الذي احتل السطور العريضة في الصحف فيما بعد — :
مقتل مدير منطقة بشكل وحشي على يد الماو ماو السفاكين .

في ذلك اليوم— والقرويون يتحدثون عن هذا إلى يومنا — كان ميوغو كعادته في طريقه إلى أرضه الصغيرة قرب محطة قطار رونجي ، منتشياً بالأحلام التي كان يحبها ، أحلام كانت تنقله دائماً من الحاضر إلى المستقبل . لقد صار يرى بتلك الأحلام مهمة خاصة ، نبوءة . أفلم يتملص ، دون خدوش ، من العمليات الأولى لحالة الطوارئ ؟ كانت كينيا ترزح تحت ظل قانون الطوارئ منذ ١٩٥٢ . اقتيد بعض الناس إلى المعتقلات بينما هرب بعضهم الآخر إلى الغابة . بيد أن هذه الأمور كانت بمثابة مسرحية في عالم لا علاقة له بعالمه الخاص . حافظ على تفردّه وهو يشعر بأن ثمة يوماً لا بدّ آت حيث تدق فيه الطبول والمزامير والأبواق معاً معلنة دخوله إلى العالم الجديد الآخر . لطالما سمع الرجال يتحدثون أثناء بناء الأكواخ في رونجي الجديدة ، ولكن لم يكن لكلماتهم تأثير فيه : إذ ماذا يهمهم من الأمر إن كان النساء يقمن بعمل الرجال أو أن الأطفال يكبرون بسرعة كبيرة ؟ أفلم يبدأ هو نفسه باعالة نفسه في سن مبكرة ؟ كان ميوغو من بين الأوائل الذين أنجزوا بناء أكواخهم ضمن المدة المحددة . لقد أنجز الكوخ : رفع بنيانه وقشّش سقفه وسبّع حيطانه دونما مساعدة من أي إنسان . كان الكوخ أول مأثرة عظيمة له . وبعد انتقاله إليه تابع سيرة حياته اليومية : طفق يولي عنايته للغلال وعيناه شاخصتان إلى المستقبل .

ذلك اليوم ، عشية تلك الجمعة ، عاد إلى البيت من المزرعة مجهداً .
بكل رفق أسند المجرفة والساطور على الجدار قبل أن يفتح الباب ، مغتبطاً
في سريره للمس القفل ، نشوان لحشر المفتاح في القفل ، مؤجلاً
الإجراء الأخير ، العملية برمتها كانت تهزه طرباً ، كان الكوخ
امتداداً لنفسه ، لآماله وأحلامه . دخل ، جلس على السرير ، أبدى
إعجابه بالجدران (لم يكن الطين قد ييس بعد) وبالسقف المخروطي
الذي كانت تتأ من قضايات الحشيش والسرخس . سرعان ماتسلت
الظلمة إلى الكوخ ، أضاء السراج وهو يصفر لنفسه لحناً . أشعل بعد
ذلك النار وقل خليطاً من حبوب الذرة والفل فوق أثافي الموقد الثلاثة .
كانت هذه وجبته الوحيدة في اليوم . كان من عادته دائماً أن يسلق
كميات كبيرة من حبوب الذرة والفل ويحتفظ بها لعدة أيام ليقلي
منها وجبة كل حين ، مايكفيه لوجبة واحدة . بعد تناول الطعام سار
إلى الباب ليتأكد من أنه أزله باحكام . وثانية كان يتمهل عند المزلاج
مبدئاً إعجابه به . لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره . لم
يكن يمتلك شيئاً ، ولكن المستقبل كله بين يديه . تمدد منبسطاً على
السرير : كان من المريح له دائماً أن يستلقي على السرير بعد جهد يوم
جهيد في المزرعة . ذلك بطنه وتجنشاً يغمره الرضى بشكل غامض .
خارج الكوخ كانت قوانين منع التجول . وثانية هذه القوانين لم يكن
لها أثر على ميوغو لأنه ، حتى قبل ١٩٥٢ ، نادراً ما كان يغادر الكوخ .
لقد درب نفسه على الولوج في شفق آمن كلما استلقى على ظهره

في السرير أو في المزرعة . في أمثال هذه اللحظات كان قلبه يناجي أصواتاً غريبة تتجمع كلها في صوت واحد من الله ينادي ياموسى ! ياموسى ! وحينها يكون ميوغو متأهباً للإجابة : لبيك يارب .

كان في هذه المرحلة من حلمه حين تناهت إلى سمعه أصوات الصفارات والصيحات وحفيف الأقدام . مزق الصغير بكل حدة سكون الليل وأفكار ميوغو . كان يقوم مثل هذا الصغير دائماً كلما هاجم الثوار قرية من القرى أو قتلوا شخصية مرموقة . ولكن مرت على ثاباي فترة هدوء طويلة ، وآخر مرة وقع فيها مثل هذا المهرج والمرج كان الاسبوع الذي قتل فيه الأب جاكسون كيغوندو والمعلم مونيو . كان يزداد حجم الصغير حيناً ويخبو حيناً آخر وكأنما كان يروح ويحيى مع الريح . ثم توقف نهائياً . خيم على القرية صمت مطبق . وبغته أيضاً مزق السكون صوت الطلقات النارية . تعالت الصيحات وتناهى إلى سمع ميوغو زعقات بعيدة صادرة عن نسوة . إطلاق النار اقترب الآن من الكوخ وأصبح الصغير أشد إلحاحاً وتواصلاً . رجل صاح : روبسون اتكسأ ميوغو على مرفقه في سريره ، شرع قلبه يخفق الآن قلقاً لاقترباب إطلاق النار والصياح . ومرة ثانية تبددت الضجة العامة . سمع ميوغو رجلاً يُعْزَل محتجاً : كنت في طريقي إلى البيت . أصدقكم القول بأنني كنت في طريقي إلى البيت . حين ساد الهدوء ثانية اضطجع ميوغو على السرير وراح في حالة من الوسن . كان ميوغو من بين

القلائل الذين حالفهم الحظ ولم يعرفوا دعر التفتيش البوليسي في
أكواخهم ليلاً .

لم يكن بمقدوره أن يقدر طول المدة التي بقي فيها على تلك الحالة :
ولكنه استفاق بالتأكيد لدى سماعه طرقة على الباب . فتح عينيه جافلاً
وجلس . من تراه الطارق ؟ تكرر الطرق . تحرك ميوغو إلى الأمام ،
بحذر ، توقف ، ثم تحرك إلى الأمام وتوقف مرة أخرى . اصطدم
بالسراج . انطفأ . الظلمة المباغثة سربت نفسه برعب أشد من الرعب
الذي سببه له قرع الباب . أخذ يتلمس طريقه بحثاً عن الثقاب حول
الأنافي وأعماق فكره مشغولة بالسؤال الملحاح : أعليه أن يفتح الباب ؟
قرع للمرة الثالثة متواصل أكثر من ذي قبل ، عنيد أكثر من ذي قبل ،
فوثب إلى الباب . تنحى جانباً مفسحاً طريق الدخول للحرس الوطني ،
متابعاً في الوقت نفسه نفسه بحثه الخائف عن الثقاب .

« دعني أشعل السراج » غمغم وهو يختلس النظر إلى شبح الرجل
الواقف عند الباب .

— « لاجاجة لك به » قال الرجل بصوت خفيض . « إن وميض
النار يكفي » .

— من أنت ؟

— صه ! لا ترفع صوتك و — ولا تنحف .

— من أنت ؟ أعاد ميوغو السؤال يائساً ، متعرفاً على الصوت .

ضحك الرجل قليلاً بعصبية ، وفجأة أحس ميوغو بالغرفة تتحول إلى جليد. تعثر بعلبة الثقاب وكاد يشعل منها عوداً لولا أن همس الرجل سراً. — لا تشعله — الحرس الوطني والشرطة منتشرون في كل مكان — لقد مات

— من ؟

— مدير المنطقة .

— روبسون ؟

— نعم — لقد صرعه . لقد بقيت طيلة هذه الشهور أنتظر الإجهاز عليه .

كانت الدموع تخالج تلك الهمسة ، وقعت علبة الثقاب من يدي ميوغو . كان عليه أن يستردها بيد أن فكره لم يكن مهتماً بذلك الأمر — . سائل بارد انزلق في أمعائه لدى سماع كلمات الرجل ، إبراً لا تحصى وخزت لحمه .

— « اسمح لي باشعال السراج » . قال بصوت لا يمت بصلة إلى صوته الحقيقي .

— إن كنت تريد ذلك — ربما من الأفضل لنا هكذا — إنني معتاد على الظلمة — أعتقد بأنهم سوف يفتشون الأكواخ كلها هذه الليلة ؟ . أعضاء ميوغو السراج أخيراً . نظر إلى زائره . كيهيكا ! ندت عنه شهقة لا إرادية .

كان كيهيكا يلبس سترة قلدة ممزقة ، من ذلك النوع من الخاكي الذي كان يرتديه الجنود في الحرب الكبرى الأخيرة (أضحى الكهول في هذه الفترة يلبسون أمثال هذه السترات) وينتعل خفاً موحلاً كان أبيض ذات مرة . كان شعره الأشعث القصير يضفي على وجهه قسما ت قاسية . تراجع ميوغو إلى الخلف واستند على عمود قرب السرير .

— ماعرفت — ماعرفت بأن الطارق أنت .

— « أرجو أن تعذرني » قال كيهيكا وعيناه تجوبان في الكوخ . « ماكنت أريد لهم أن يتبعوني إلى الغابة . وبالإضافة إلى ذلك فقد رغبت بزيارتك — كنت دائماً أريد التحدث إليك » .

— دونك — دونك ذلك الكرسي .

— آه ، أنا معتاد على الوقوف . ينتصب الواحد منا أياماً وليالي على قدميه . واقفاً أو جاثياً .

— لماذا ؟

— لأن المرء لايجرؤ على النوم .

— « أتبغي قتلي ؟ لم أفعل شيئاً » قال ميوغو متوسلاً .

ولكن قبل أن يتمكن كيهيكا من الإجابة قامت موجة أخرى من الصفير . استلّ كيهيكا مسدساً وزحف تحت السرير . تداعى ميوغو على الكرسي وشعر بأنه على وشك البكاء . لسوف يُضبط بالجرم

المشهود ، يؤوي إرهابياً . وفجأة تذكر السراج فأطفأه . خيم الظلام ثانية على الكوخ . تبدد الصفير . انسل كيهيكا خارجاً من مخبئه ووقف قرب الموقد . شعر ميوغو بشبح قامة الرجل تحيم عليه .

« نحن لانقتل أي إنسان » بادره بالكلام وكأن لم يكن ثمة انقطاع في حديثه . « نحن لسنا قتلة . لسنا جلادين — مثل روبسون — نقتل الرجال والنساء دون سبب أو غرض » . تكلم بسرعة ، بعصبية ، وطفق يدور حول الموقد . أمن المعقول أن يكون هذا الرجل هو نفسه الذي أحرق (ماهي) حتى أصبح قاعاً صفصفاً ؟ أمن المعقول أن يكون هذا الرجل هو نفسه الذي خطب ذات مرة في اجتماع حاشد وجعل النسوة ينتفن شعورهن ويمزقن ثيابهن ؟ .

« إن مانفعله لا يعدو رد الضربة . أنت تُضرب على خدك الأيسر فتدير الخد الأيمن طيلة سنة ، سنتين ، ثلاث — بل ستين سنة . ثم فجأة — والأمور لاتحدث دائماً إلا فجأة — تقول : لن أدير الخد الآخر أكثر من ذلك . فتتحصن بالجدار وترد الضربة ، يخالجت شعور الثقة برجولتك وتأمل استمرار ملازمتها لك . هل تتصور أننا نحب أن نتعارك من أجل الطعام مع الضباع والقروود في الغابة ؟ أنا أيضاً عرفت سلوى النار الدافئة وممارسة الحب مع المرأة قرب الموقد . أترى ؟ يجب أن نقتل . أن نجندل أعداء حرية الإنسان الأسود . يقولون بأننا ضعفاء . يقولون بأننا لن نكسب المعركة ضد القبيلة . إذا كنا ضعفاء لا يمكننا

كسب المعركة . إنني أحتقر الضعفاء . فليوطؤوا بالأقدام حتى الموت .
إنني أبصق على ضعف آبائنا . إن ذكراهم لاثير بي أي نوع من
الاعتزاز . وحتى في هذا اليوم ، وغداً ، سوف يكتس الضعفاء
وذوي القلوب الخائرة من على وجه الأرض . الأقوياء هم الذين
سيحكمون . لم يكن لآبائنا مبرر يجعلهم ضعفاء . الضعفاء يجب ألا
يبتقوا ضعفاء . لماذا ؟ لأن الشعب الذي يتسلح بالعقيدة يصبح أقوى
من القنبلة . لأنهم لن يرتجفوا أو يفروا أمام السيف . بل بدلاً من ذلك
العلو هو من يلوذ بالفرار . هذه الكلمات ليست كلمات لإنسان مخنون .
لم تكن الكلمات ، ولا حتى المعجزات . هي التي جعلت فرعون
يسمح لبني إسرائيل بالخروج . بل في منتصف الليل أنزل الرب الوباء
وضرب به كل المواليد الأبنكار في أرض مصر ، من أبكار فرعون
الذي كان يتربع على العرش إلى أبكار الأسرى الذين كانوا يرسغون
بالأغلال في الزنزانات — حتى أبكار القطعان أيضاً . وفي اليوم التالي
سمح فرعون لبني إسرائيل بالخروج . ذلك هو مقصودنا . أن نثير
الدعر في قلوبهم . أن نصل إليهم في بيوتهم ليلاً ونهاراً . سيشعرون
في عروقهم بالسهم المسموم . لن يعرفوا أبداً من أين سيأتيهم السهم
التالي . يجب بث الدعر في قلب الطاغية » .

تكلم دون أن يرفع صوته ، وهو لا يكاد يشعر بوجود ميوغو ،
ولا يخطر عليه ، وكأنه إنسان بهمس . لقد تبدت مرارته وإحباطه في

ذلك السيل الجارف العصبي من كلماته . وكل كلمة قالها أكدت شكوك ميوغو بأن هذا الإنسان مخبّل .

« أتتصور أننا لانهاب الموت ؟ نحن نهايه . كادت ساقاي ترفضان التحرك حين صاح بي روهسون . كنت أتوقع كل دقيقة أن تمزق قلبي رصاصة منه . رأيت رجالاً يبولون على أنفسهم وآخرين يضمحكون بشكل جنوني كلما قام احتمال بنشوب معركة . وتلك الحشرة الحيوانية التي يطلقها الناس وهم في التزع الأخير ، لحي صوت مرعب سماعه . ولكن لامناص من موت القلة في سبيل حياة الكثرة . ذلك مايعنيه الصليب في هذه الأيام . وإلا فأننا نستحق أن نبقي عبيداً مبتلين بحمل الماء واحتطاب الحطب للإنسان الأبيض إلى أبد الآبدين . قارن بين الحرية والعبودية وإنك لووجد أن من المناسب للرجل أن يتشبث بالحرية ويموت من أجلها . نحن نريد — » .

وفجأة كف عن الكلام ، خطا ، ولأول مرة بدا عليه بأنه يدرك وجود ميوغو . كان ميوغو يجلس جامداً على كرسيه مطرقاً بالأرض ، واثقاً أن الحراس الوطنيين لابدّ سوف يصطادونه هذه الليلة . إن كيهيكا رجل مخبول ، مخبول ، تفكر ميوغو مما زاد في رعبه .

« ماذا تريدون ؟ » . فليبق متحدثاً لأن المجنون لا يكون خطراً مادام يتكلم .

« نريد منظمة قوية . يحرف الإنسان الأبيض هذا الأمر

وينحشاه . وإلا فلماذا عد إلى نقل شعبنا إلى هذه القرى الجديدة ؟
لأنه يريد أن يحجزنا عن شعبنا ، عن قوتنا الوحيدة . ولكنه لن يفلح .
يجب أن نبقى الطريق مفتوحة بيننا وبين شعبنا . لطالما رأيتك في ثاباي
العتيقة . إنك إنسان عصامي . إنك رجل عاني الكثير . نحن نحتاج
لمثل هذا الرجل كي يُنظم حركة سرية في القرية الجديدة » .

كان ميوغو يجنل لكل كلمة من كلمات كيهيكا .

— « أنا — أنا لم أقسم اليمين » ، بادر للاحتجاج بوهن .

— « أعرف ذلك » قال كيهيكا . « ولكن ماهو القسم ؟ بعض
الناس بحاجة للقسم ابتغاء ربطهم بالحركة . ثمة فئة من الناس لاتحفظ
السر إلا إذا ارتبطت بالقسم . لأنني أعرفهم . أعرف الناس من وجوههم .
وبالمناسبة ، كم عدد الذين أقسموا اليمين وهم الآن يلحقون أقدام
الإنسان الأبيض ؟ لا . القسم يعني توكيدك لاختيار أقدمت على اختياره
مسبقاً . إن القرار بأن تهب حياتك للشعب أو لاتبها يكمن في الصميم .
القسم ليس إلا بمثابة الماء الذي يُرش على رأس الإنسان إبان تعميده » .

ثمة اعتبارات أخرى تزاخمت في ذهن ميوغو . تذكر أنه لم يزلج
الباب . فوقف ، مشى واجتاز كيهيكا وأصاخ السمع عند ثقب المفتاح .
فكر في الهرولة إلى الخارج أو بالصياح للحرس الوطني ولكنه تذكر
أن كيهيكا يحمل مسلساً ، وأن ذلك المسلس قتل رجلاً لتوه . أرتج
الباب وعاد إلى مكانه . كان يسير وكأنه في كابوس . ليس من المعقول

أن يكون عملياً داخل الكوخ ذلك الرجل الذي قوّض (ماهي) من قبل وقتل لنوه روبسون . شعر برغبة سقيمة في أن يتحدث ولكنه لم يتمكن من التفكير بشيء يقوله أو يفعله.والآن هادو السكون المطبق يحجم على القرية من جديد .

فالتصغرات وإطلاق العيارات النارية كانت كأشياء حدثت في سنوات بعيدة . ولكن كيهيكا كان هناك . لم يكن يلهث الآن أو يخطو بعصبية بل كان رابط الجأش بشكل واضح . كان حقيقة حية .

« سأقابلك خلال أسبوع » قال كيهيكا بلهجة انتصار . هزّ ميوغو رأسه بالموافقة . حدد كيهيكا بكل دقة مكان اجتماعهما القادم في غابة كيني .

وما أن اختتم كيهيكا كلامه حتى مزق السكون ، للمرة الثالثة ، زعقات وطلقات بعيدة . حدثت الزعقات والطلقات بشكل متقطع ولكنها لم تتوقف هذه المرة . (في اليوم التالي علم ميوغو أن عدداً من الرجال — مشبوهي ماو ماو — اقتيدوا من بيوتهم فيما يتعلق بمقتل روبسون . رجلان من القرية صرعا ليلاً وصفتها الصحف فيما بعد بأنهما عضوان في عصابة هاجمت مدير منطقة أعزل من السلاح تقريباً ، أسدى خدمات جلى للمنطقة) . ذهب كيهيكا إلى الباب وتنصت . مرة أخرى خطرت لميوغو فكرة الإطباق على كيهيكا والصراخ طلباً للنجدة . « يجب أن أنصرف — ربما يفتشون البيوت » ، همس كيهيكا .

عادت له عصبيته ، حاول الاختباء مرة ثانية . فتح الباب ثم أغلقه بهدوء .

« تذكر لقاءنا » قال قبل أن ينسل في الظلمة كي يختفي على نحو مفاجيء وهادىء مثلما دخل الكوخ .

وقف ميوغو ساكناً وسط كونه الحديد عدة دقائق . مادت الأرض تحت قدميه . ركض إلى الباب ، فتحه على مصراعيه ، متردداً في الصراخ طلباً للنجدة . حلق في الظلمة. أزالج الباب بالمزلاج للمرة الثالثة . ولكنه لماذا يزلج الباب ؟ لماذا يجب عليه ؟ تمنى لو أن الكوخ بلا باب بدلاً من أن يكون الباب مرتجاً هناك ، حتى لو جلب له البرد والخطر . حلّ مزلاج الباب وسار ببطء إلى السرير حيث جلس وأمسك وجهه بكلتا يديه . أخرج منديلاً قلراً كي يمسح به وجهه ورقبته . ولكنه قبل أن ينتهي من ذلك ، نسي العرق البارد وانزلق المنديل على ركبتيه . لقد سمع ذات مرة ضوضاء في الريح ، منذ عهد سحيق ، ولم يكن بمقدوره أن يفهم رنة متماسكة واحدة . هاهي الضوضاء الآن تنتقل إلى داخل فكره .

منذ بضع دقائق فقط كان مستلقياً على السرير في غرفته وكان المستقبل واعداً له . كل شيء في الكوخ كان في مكانه العادي ، كسابق عهده ، غير أن المستقبل فارغ . توقع مجيء الشرطة أو الحرس ، كما توقع اعتقاله أو منصرعه . لم يكن يرى إلا السجن والموت . كانت

الحكومة تبحث عن كيهيكا بالحاح ، لاسيما بعد إلقاءه على تقويض (ماهي) . إن ضبلك تؤوي إرهابياً كان يعني الموت . لماذا يجرني كيهيكا إلى صراع ومشكلات لاعلاقة لي بخلقها ؟ لماذا ؟ إنه لا يشبع من ذبح الرجال والنساء والأطفال ، ويرى زيارتي واجباً عليه كي أصبح في حمام دم . لست أخاه . لست أخته . لأنني لم أسبب الأذى لأي مخلوق . ما كنت أهتم إلا بمزرعتي وغلالي . والآن أوجب علي أن أقضي بقية حياتي في السجن من جراء سيخف رجل واحد ؟

استيقظ ميوغو في اليوم التالي مستغرباً عدم وجوده في السجن . حاول أن يبعد عن تفكيره ذلك اللقاء الذي تم في الليل . لم يكن أكثر من حلم . كانت تزورني أمثال هذه الكوايس قبل هذا الكابوس . إن الليل يضحكم كل الأشياء — مخاوفنا ، بؤسنا ويأسنا . حتى الأشجار والشجيرات تبدى كالكائنات البشرية . فقهقه قهقهة صاحبة . غير أن محاولاته المبتسرة لمواساة نفسه فشلت في إلغاء الواقع : وجه كيهيكا كان منقوشاً في ذهنه بشكل راسخ ، الشعر الأشعث والعين الرأداء طمساً له كل أوهامه الوردية وجعلاه يرتجف على الرغم من ضياء النهار . تصوروا رجلاً يسير وقت الشفق ويشعر بالطمأنينة في عزلته . ثم بغتة يعم الظلام ويدرك أن ساقه معرضة لخطر الكسر لأنه يسير على طريق سوف ينتهي ، في أية لحظة ، إلى هوة سحيقة . خلال الأيام القليلة التالية كان ميوغو ينتقل بين كوخه ومزرعته وهو يتوقع كل

ثانية أن يربط على كتفه شرطي أو حارس وطني . كان كلما شاهد جندياً أو حارساً وطنياً يتصيب وجهه عرقاً فجأة ونحور ساقاه . ولم ينس مرة واحدة شبح كيهيكا خلفه يطارده ويتنظر منه الجواب . ماذا سأفعل ، سأل نفسه . سيقتلني كيهيكا إن لم أخدمه — لقد قتلوا الأب جاكسون والمعلم مونيو . وإن عملت لحسابه اعتقلني الحكومة وشققتني — إن للإنسان الأبيض ذراعين طويلتين — . رحماك يا إلهي ، لا أريد أن أموت ، لست الآن متأهباً للموت ، ماعشت حياتي بعد . تشوش ذهن ميوغو أيما تشوش وشعر بالأسى العميق لأنه كان يتجنب المشاحنات طيلة حياته : قلما شارك الصبيان الآخرين صحبتهم ، في البيت أو في المدرسة ، خشية تورطه في مشاحنات قد تقضي على أحلامه بمستقبل أفضل . لقد أجرى محاكمة الأمر على النحو التالي : إذا ابتعدت عن الشر عندها لن يمسك الشر ، وإن أنت تركت الناس وشأنهم فعليهم أن يتركوك وشأنك . وذلك هو السبب الذي جعل ميوغو الآن ، ليلاً ، — وهو لا يزال عاجزاً عن حل معضلته — يندب حظه العاثر مرتبكاً في سريره : هل أقدمت على سرقة شيء لأي مخلوق ؟ كلا . هل صادف وتغرطت في باحة أحد بيوت البحران ؟ مطلقاً . هل قتلت أحداً ؟ كلا . إذاً كيف بإمكان كيهيكا الذي ماأسأت إليه بتائاً أن يفعل هذا بي ؟

ولذلك قرّر أن الحسد ، حين لم يجد جواباً آخر على سؤاله ، هو السبب في ذلك . بعث هذا التفكير حقه الدفين على كيهيكا ، وهاهو

هذا الحقد يكاد يخنقه الآن بعد أن ضرب بجذوره في أعماق نفسه . إن لكيهيكاً أمّاً وأباً وأخاً وأختاً ولذلك بإمكانه أن يتلاعب بالموت . إن له أناساً يندبون نهايته ويسمّون أبناءهم باسمه كي لا يغيب اسم كيهيكاً أبداً عن لسان البشر . لكيهيكاً كل شيء وليس لميوغو أي شيء .

هيمنت عليه هذه الفكرة ، شحنته بغيظ لاقرار له ، بغضب خال من الدموع طمس له كل الأشياء الأخرى وقذف به في حمأة الأرق . ولذلك داهمه اليوم المشؤوم ، يوم الجمعة ، وهو لم يتوصل بعد إلى قرار حيال مايجب عليه أن يتصرف . وعلى مألوف عاداته ، تناول مجرفة وساطوراً ومضى باتجاه مزرعته . ولكي يتحاشى ميوغو مقابلة الناس سلك درباً مهجوراً بين الحقول باتجاه روني . كان الوقت باكراً جداً وكانت الحقول كلها مقفرة من الناس . كانت تتناثر فوق الحقول ، هنا وهناك ، أنقاض المواقع المهدمة التي كانت تنتصب مكانها ، منذ مايقارب الأسبوع فقط ، تلك المنازل التي كانت تشكل قرية ثاباي العتيقة . لم تستطع عينا ميوغو المجهدتان تمييز أي شيء . كان ذهنه فارغاً ناصع البياض يبهز الأبصار كالشمس في رابعة النهار . كان في حالة من الإرهاق كتلك الحالة التي تنجم عن تراكم ليال من الأرق وعن تراحم أفكار حادة متلاحقة لاوجهة لها — تلك الحالة التي يكون فيها الإنسان عرضة للانفعال وجاهزاً للانفجار لدى أدنى إثارة دون أن يدرك هو نفسه خطره الشخصي . كان يسير وقدماه تتمسحان بالأسبيجة المخضلة بالندى حتى إن الماء سرعان مايدأ يسيل

على قدميه على شكل خطوط متعرجة . تهدلت شفته السفلى - لطالما كانت تتهدل كلما سيطر عليه الانفعال - وارتعشت كل أوصاله . كان يشتد به الارتعاش والوجوم كلما ازداد قريباً من السوق . وما أن وصل إلى الحوانيت الهندية حتى خارت قواه ولم يعد يقوى على متابعة مسيره . فألقى بمجرفته وساطوره قرب كومة من القمامة خلف أحد الحوانيت وجلس كي يستعيد أنفاسه . خلف كل حانوت كانت تقوم مثل تلك الكومة التي ينبعث منها نتن القمامة المتعفنة . كان من عادة الأطفال الهنود - والرجال أحياناً - أن يتغوطوا هناك . بينما كان الأطفال الأفارقة كثيراً ما يقبلون بأقدامهم أكوام القمامة الملقاة حديثاً وينقبون فيها بحثاً عن الخبز أو النقود المنسية . وحينما كانت أقدامهم تغوص في تلك « الكتل الصغيرة » كانوا يطلقون أقذع الشتائم ويمطرون الهنود بالحجارة انتقاماً في بعض الأحيان . وفي إحدى المناسبات ضبط ثلاثة صبيان أفريقيين برفقة بنت هندية مطروحة على الأرض مباشرة خلف تلك الكومة التي جلس قربها ميوغو الآن كي يستريح . فاتهموا باغتصاب الفتاة ولكن القاضي مأصداً حكماً بحقهم بل أحالهم ، باعتبارهم أحداثاً ، إلى المدرسة الإصلاحية في وامومو . لم يكن ميوغو الآن يفكر في هذه التفاصيل الخسيسة المرتبطة بماضي ذلك الحانوت ، بل كان يمسك رأسه بكلتا يديه متدمراً المرة تلو المرة : لماذا فعل هذا بي ؟

وفجأة هبت الريح وثورت الغبار وحثالة القمامة في الهواء حتى إن ميوغو غطى وجهه بكلتا راحتيه ليصون عينيه من الرمال . وطار

قصاصات الورق عالياً فعالياً على شكل مخروط حلزوني . لقد قيل وقتها عن هذه الزوبعة - التي دوّرت الغبار والقمامة بشكل أهوج على شكل إعصار مخروطي متنقل - أن بها مسّ الشياطين النسائية . كان مثل هذا الإعصار لايدوم في العادة أكثر من ثوان معدودة ليختفي بعدها بشكل مفاجيء وغامض مثلما جاء . ولكنه الآن زاد عنفاً واشتد جموحاً وهو يقذف الأشياء في أعالي السماء . أخيراً سكنت الريح الموحاء وشاهد ميوغو تساقط الغبار والقمامة على الأرض على نحو بطيء . خفف هذا المشهد من ارتجافه ووجومه ، فتناول الساطور والمجرقة وتابع رحلته إلى المزرعة . عاد شيء من السكينة إلى نفسه .

ولكن للحظة ليس إلا .

فما إن ابتعد ميوغو خطوات قليلة عن المكان الذي كان يجلس فيه حتى رأى مشهداً عجيباً . حلق في الجدار ذي الحديد المبروم . جفل شعر رأسه من جذوره . شعر بالسرور المباغت في كيانه لأن وجه كيهيكا كان هناك مثبتاً ضمن إطار في الحانوت . طفق الوجه يكبر ويزداد تشوهاً كلما أطل تحديقته إليه . لقد أثار فيه ذلك الوجه ، وقد كان واضح القسمات على الجدار الأبيض ، نفس الانفعال والرعب اللذين أحس بهما وهو يحاول خنق عمته في ليلة من الليالي حين كان صبيّاً . هاقد وضعوا ثمناً لرأس كيهيكا - ثمناً - لي - رأس - كيهيكا . سار ميوغو باتجاه مدير المنطقة تعشي أبصاره دهشة وصدمة

مكبوتتان . لقد طلب الله من ابراهيم أن يقدم ابنه اسماعيل كضحية محروقة فوق أحد الجبال في أرض مورياه (فلسطين) . فبنى ابراهيم مذبحاً هناك وسطر الخطب بانتظام وقيّد ابنه ومدّده على المذبح فوق الخطب . ومدّ ابراهيم يده وتناول السكين كي يذبح ابنه . واسماعيل مستلقياً هناك ، كان ينتظر أن يترّ السيف رأسه عن جسده . كان يعلم علم اليقين بأن السيف سيهوي بين لحظة وأخرى — كان واثقاً لثنيته بأن الساطور البارد سيأتيه بالموت . وفجأة سمع اسماعيل صوت الرب . بكى . هاقداً نجا من الموت . « هاقداً نجا من الموت » ردد ميوغو هذه العبارة بينه وبين نفسه . سار في قلب هذه الرؤيا ، وفي رأسه المحموم جلجلة الأفكار التي حازت على المقومات المنطقية مما يطبعها بطابع الحلم . كانت المحاكمة في غاية الوضوح ، في غاية البهجة ، إذ شرحت له أشياء ماكان بمقدوره حلها وهو يحيا حياته الطبيعية . لإنني إنسان مهم . يجب ألا أموت . إن إبقائي على نفسي حياً ، سليماً ، قوياً — أنتظر تنفيذ مهمتي في الحياة — هو واجب تجاه نفسي ، تجاه رجال الغد ونسائه . فلو أن موسى مات في الدغل من كان منا عرف بأن القدر قد هياه ليكون إنساناً عظيماً ؟

اختلطت هذه المشاعر النبيلة بأفكار المكافأة النقدية والاحتمالات المختلفة المفتوحة أمامه . لسوف يشترى مزيداً من الأراضي . لسوف يبنّي بيتاً ضخماً ، ولسوف يعثر بعد ذلك على امرأة يتخذها زوجة وينجب أطفالاً منها . إن غرابة هذه الخطة وقربها منه زاداه نشوة على

نشوته الراهنة . قبل الآن ما كان يفكر في النساء كرجل وأما الآن فقد بدأت تمر في ذهنه صور فتيات عديدات كان قد رآهن في القرية من قبل . لسوف يفجر انتصاره أمام عيني شبح عمته . ولسوف يتوطد مركزه في المجتمع . سيكون قد قطع نصف المسافة باتجاه السلطة . وماذا تعني العظمة غير السلطة ؟ ماهي السلطة ؟ القاضي صاحب سلطة : يمكنه أن يحكم على إنسان بالموت دون أن يضع لإنسان آخر سلطته ، حكمه القضائي ، موضع تساؤل ، ودون أن يفرض عليه العقوبة الجسدية بالمقابل . نعم — كي تكون عظيماً يجب أن تحتل مثل هذه المكانة التي يمكنك أن توزع منها الألم والموت على الآخرين دون بادرة احتجاج من أي إنسان آخر — كمدير المدرسة ، كالقاضي ، كالحاكم العام .

وصل إلى المكاتب بأقصى سرعة تقريباً . كانت هذه المكاتب قد بُنيت مؤخراً لتكون قاعدة تتيح سرعة الوصول منها إلى جميع القرى المجاورة . كان يحرس المدخل شرطيان يحملان البنادق ويلبسان سترتين سوداوين بقبطين عاليتين . ميوغو ، بحالته الراهنة ، شعر بنفاد صبره حيال هذه الأشياء غير الحقيقية التي تعرض سبيله .

— أبوسعي مقابلة مدير المنطقة ؟ — سألهما وهو يحاول اجتيازهما ، مستكيناً إلى الحلم الذي في سريره .

— ماذا تريد ؟ وشده أحد الشرطين إلى الخلف من كتفه .

— أنا — أريد مقابلته على انفراد . قال وقد بلغت منه الدهشة
أي مبلغ .

— أتقابه وأنت تحمل المجرفة والساطور ؟ وطفق يقهقه .

— أقول لك ماذا تريد منه ؟

— لأستطيع — ليس لك .

ضحك الشيطان وسخرا من إجابات ميغو . أخذنا ساطوره
ومجرفته وألقيا هما على الأرض .

— لايمكنك ذلك ، لايمكنك ذلك ! أسمع ؟ أنت أيها الفلاح ،
ماذا تريد ؟

— يجب علي — إنه — إنه أمر هام . بدأ الخوف يتسلل إلى نفسه .
فتشاه تفتيشاً دقيقاً وهما يدفعان به بفضاظة .

— يجب أن يخلع ثيابه .

— يالطول هذا الرجل . قد يكون طول قضيبه بطول غرمول
الحمار .

— كيف تتدبر أمرك مع النساء ؟ آه ؟ .

— النساء ؟ إنك تمزح . حتى العاهرة السمينة تهرب من منظره .

— قد يكون يمارس ذلك مع النعاج — أو البقرات . بعض الناس
يفعلون ذلك ليلاً ، وقهقهه ضاحكاً .

— قهقهه زميله أيضاً . أو مع العجائز من النساء — يرشيهن أو يقسرن على ذلك — وقهقهه عالياً .

قهقهه زمياه عالياً أيضاً .

خرج جون ثومبسون ، مدير المنطقة ، ونهرهما وصاح بهما أن يكفيا عن الضحك . حدثاه عن ميوغو فطلب منهما أن يسمحا له بالدخول . فتنفس ميوغو الصعداء وهو يقفز داخل المكتب ، وشعر بامتنان عميق نحو ذلك الإنسان الأبيض الذي أنقذه من المذلة والمهانة . والآن بعد أن أضحي داخل المكتب لم يعد يعرف كيف يبدأ حديثه . لقد كانت تلك المناسبة هي المرة الأولى التي يقابل بها إنساناً أبيض في مثل هذا المتر المغلق . حذق إلى الجدار قبالته وقد عقد عزمه على ألا ينظر ، ما أمكنه ذلك ، في وجه الإنسان الأبيض .

— ماذا تريد ؟ أجفل هذا الصوت ميوغو .

— كيهيكا — جئت أقابلكم بهذا الخصوص .

انتصب ثومبسون في كرسيه لسماع ذلك الاسم . ثم وقف بعد ذلك ويداه تتلمسان طريقهما إلى حافة الطاولة وكأنه يبغى تدعيم نفسه . حذق إلى ميوغو . كان الرجلان بطول واحد تقريباً . أحجم ميوغو ، متعمداً ، عن النظر في عيني الرجل الآخر . جلس الرجل الأبيض ثانية .

— نعم . تابع .

— أنا أعرف— وبلع ريقه. سيطر الهلع عليه. خشي أن يخونه صوته.

— « أنا أعرف » تابع بصوت خفيض « أعرف أين يمكن العثور على كيهيكا هذه الليلة » .

وعادت إليه الآن من جديد تلك الكراهية التي كان قد شعر بها تجاه كيهيكا من قبل . وبدأ يرتجف بغضب مظفر وهو يفضي بتلك القصة التي قرحت أجفانه طيلة أسبوع . عاش لفترة قصيرة من الزمن بهجة لذيذة نقية معجباً بجرأته وبذلك الشيء الذي تبدى له فجأة بأنه عمل عظيم ينطوي على شجاعة أخلاقية . في تلك اللحظة كان بالنسبة إليه فعلاً ثمة نوع من الصفاء في فعلته ، لقد وقف خارج حدود الخير والشر ، مستمتعاً بسلطان معرفته الخاصة وقوتها : أفلا يحمل في ذهنه مصير حياة إنسان ما ؟ قلبه — سريره — كان طافحاً . وقفت دموع الانفراج على زوايا عينيه . لقد بقي اسبوعاً بطوله يتصارع مع الشياطين ، وحيداً ، في كابوس لانهاية له . كان هذا الاعتراف أول اتصال له بإنسان آخر . شعر بامتنان عميق تجاه الإنسان الأبيض الذي استمع إليه بأناة والذي أزاح هذا العبء عن كاهل ميوغو وأنقذه من الكابوس . بل إنه تجرأ على النظر إلى الإنسان الأبيض ، الصديق الجديد . انتشرت ابتسامة عريضة على وجه ميوغو ولكنها سرعان ماتجمدت واستحالت إلى تكشيرة تشبه الازدراء حين قابل وجه الانسان الأبيض وعينه المليئتين بالألغاز .

وقف مدير المنطقة مرة ثانية . دار حول المائدة وذهب إلى حيث كان يقف ميوغو . أمسك بميوغو من ذقنه وأمال رأسه إلى الخلف ، وعلى حين غرة رشق البصاق على الوجه الأسود . تراجع ميوغو خطوة إلى الخلف ورفع يده اليسرى كي يمسح بها البصاق عن وجهه ، ولكن الإنسان الأبيض عاجل وجه ميوغو ، قبل أن يمسح البصاق ، بصفعة قوية واحدة .

« قدم لنا الكثير من الناس المعلومات الكاذبة عن هذا الإرهابي . أسامع أنت ؟ لالسبب إلا لأنهم يريدون المكافأة . سنحتفظ بك هنا ، وإذا كنت لا تقول الحقيقة ، فلسوف نشنقك هناك ، خارج هذا المكتب . أسمع ؟ » .

عاد ميوغو إلى كابوسه . الطاولة ، الوجه الأبيض ، السقف ، الجدران ، بدأت تدور به وتدور . تم فجأة توقف كل شيء . حاول تثبيت نفسه . وفجأة مادت الأرض التي كان يقف عليها . هاهو يتهاوى على الأرض . دفع بذراعيه في الهواء . كان القعر بعيداً جداً وما تمكن أن يرى إلا الظلمة . ولكنه عرف بأن القعر يحتوي على أحجار نائمة حادة . كان كالريشة في مهب الريح . لم تستطع أن تسعفه الدموع . وبصرخة مخنوقة ، تمزق جسده على الأحجار المتكسرة والصخور النائمة ، عند قدمي الإنسان الأبيض . كانت صدمة الاكتشاف عميقة جداً حتى إنها خدّرتّه . لم يشعر بأي ألم ولم ير أي دم .

— أسمع ؟

— أجل .

— قل يا أفندي .

-- « أجل يا — » .

وففت الكلمة في حلقه وسدته . أطلق فمه المفتوح جمجمة مبهمة .
تكوم الزبد على شذقيه . حلق بالإنسان الأبيض ولكن الومض الدامع
في العينين حجبه عن ناظريه . وبعدئذ بدأت الطاولة ، الكرسي ، مدير
المنطقة ، الخدران المطاية بالأبيض — الدنيا كلها — بالدوران بشكل
متسارع مرة أخرى . تشبث بالطاوله كي يجمد نفسه . لم يعد يريد
النقود . لم يعد يريد معرفة ما أقدم عاينه .

~ * ~

يقيناً أبلغكم يقيناً ، دعوا حبة
قمح تسقط في الأرض وتموت ، قد تبقى
وحيدة : ولكنها إن ماتت فإنها تعطي غلالاً وفيرة .

(انجيل يوحنا) القديس جون ١٢/٢٤

(اية وضع تحتها خط اسود في انجيل كيهيكا)

ورأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة : لأن السماء الأولى والأرض
الأولى قد تم تجاوزهما .

سفر الرؤيا ١/٢١

الفصل الرابع عشر

استعادت كينيا استقلالها من البريطانيين في ١٢ كانون أول عام ١٩٦٣ . قبل منتصف الليل بدقيقة واحدة أطفئت الأنوار في مدرج نيروبي الرياضي وخيم الظلام على كل الناس الذين احتشدوا هناك من كل أنحاء البلاد ومن العالم لمشاهدة احتفال منتصف الليل . وفي الظلمة تم إنزال العلم البريطاني على جناح السرعة . وحين أضيئت الأنوار ثانية كان العلم الكيني الجديد يطير ويرفرف ويتموج في الهواء . عزفت فرقة موسيقى الشرطة النشيد الوطني وتعالَت هتافات الجماهير بشكل متواصل حين رأت أن العلم كان أسود وأحمر وأخضر . كان المتأفف كأنه قعقعة شديدة لعدد كبير من الأشجار المتهاوية فوق الوحل الكثيف في المدرج الرياضي .

ففي قريتنا — وعلى الرغم من تساقط الرذاذ — تدفق الرجال والنساء والأطفال إلى الشوارع وهم ينشدون ويرقصون في الوحل . لقد علقوا المصابيح على عتبات البيوت لإضاءة الشوارع المظلمة . وكما هي عليه العادة في أمثال هذه المناسبات ، كان بعض الشباب يسرون على

شكل زمر يحملون المشاعل ، ويكمنون ويتماسون في الزوايا والأزقة المعتمة ، وهم يفتشون ، في واقع الأمر ، بين الجمهور عن رفيقات يطارحوهن الغرام . كانت الأمهات قد حلرن بناتهن من خطر الاغتصاب في الظلمة . رقصت الفتيات في الوسط وهن يدفعن بأردافهن إلى الخلف على نحو مثير ويدركن ، في الوقت نفسه ، بأنهن موضع إعجاب الرجال القابعين في الزوايا . كان كل إنسان يتوقع حدوث شيء ما . كان هذا « الترقب » والشك الذي رافقه — كالمرأة التي تتمزق بين الرهبة والبهجة إبان آلام المخاض — نتيجة للشعور بوجود توتر مشحون خلف تلك الزعقات والصيحات والضحكات . كان الناس ينتقلون من شارع إلى شارع وهم يهزجون . فأنشدوا المديح لجومو وكاغيا و أوغينغا . لقد تذكروا وإياكي الذي تحدى ، حتى قبل عام ١٩٠٠ ، الناس البيض الذين جاؤوا إلى داغوري متشبهين بليو غارد . وما غفلوا عن ذكر أبطال من قريتنا أيضاً ، حتى إنهم نحتوا الكلمات لوصف أفعال كيهيكا في الغابة ، أفعال لم يكن لها نظير إلا أفعال ميوغو في الخندق وفي معسكرات الاعتقال . لقد خلطوا ترانيم عيد الميلاد بأناشيد ورقصات لا تتم تأديتها إلا خلال شعائر الدخول حين يختن الفتيان وتخفص الفتيات ليدخلوا مرحلة المسؤولية كرجال ونساء . وكان يكمن خلف كل هذا ذلك التوتر الذي كان يقتضي أثرنا من شارع إلى آخر . وفي مكان ما اقترحت إحدى السيدات أن نمضي ونهمل لميوغو ، الناسك . عند كوخه . التفتت الجماهير هذا

النداء وأخذت ، قبل اتخاذ القرار ، تشق طريقها من خلال الرذاذ والظلمة باتجاه كوخ ميوغو . بقي الكوخ محاصراً لمدة تزيد على الساعة . كان اسمه على كل شفة ولسان . نسجنا حول اسمه الخرافات الجليدية والأفعال الخيالية . كان الأهل يحدونا أن يخرج ميوغو ويشاركنا بهجتنا ولكنه لم يفتح الباب لطرفائنا . وحين أزفت ساعة منتصف الليل انفجر الناس كلهم في هرج واحد طويل . ثم أطلقت النساء الزغاريد الخمس التي يطلقنها في العادة للتهليل بالمولود أو حين ختانه . أطلقن هذه الزغاريد لكيهيكاً وليوغو ، بطلي الإنقاذ ، من قريننا . بعد هذا سرعان ماتفرقنا جميعاً وعدنا لأكواخنا المختلفة لانتظار الصباح حيث تبدأ احتفالات الاستقلال عملياً .

تحول الرذاذ في الهزيع الأخير من الليل إلى تهطل غزير . لمع البرق — وتلاه الرعد — وأضاء أكواخنا بالنور الأبيض — الأحمر لمدة ثانية أو ثانيتين ، حتى لو كان لايجد منفذاً إليها إلا صلوع الجدران . ازداد عويل الرياح مع هطول المطر وكانت العاصفة . صرصر صوت أجش ، بالإضافة إلى ذلك الدوي المتواصل الذي استمر طيلة الليل ، عن الأشجار والأسيجة المتكسرة والمترنحة حين كانت العاصفة تجلد الأوراق والأغصان . هوت بعض سقوف القش المتداعية بكل بساطة من جراء المطر مما أدى إلى تشكل البرك الصغيرة فوق أرض الاكواخ . ولكي يتجنب الناس التبلل دأبوا على نقل أسرهم من بقعة إلى أخرى ، لا لأمر إلا لكي يتبعهم وكف جديد .

كانت العاصفة هوجاء حتى إنها اقتلعت بعض الأشجار من جذورها وكسرت أغصان وجلبوع الأشجار الأخرى .

هنا ما شاهدناه صبيحة اليوم التالي ونحن في طريقنا إلى ساحة قرب رونجي حيث كانت ستقام فيها الألعاب الرياضية والرقصات احتفالاً بالاستقلال . لقد خربت العاصفة الغلال التي على سفوح الوادي تخريباً سيئاً . وحفرت المياه الهادرة صدوعاً ومجاري متعرجة في كل الحقول المنحطرة . وتناثر ما اقتلع من حبات البطاطا وغلل الفول في كل مكان من بطن الوادي . وأما أوراق نباتات الذرة التي صمدت وبقيت منتصبية فقد كانت ممزقة شر ممزق .

كان الصباح نفسه داكناً جداً حتى إننا خشينا أن نعدم الحياة في النهار . إلا أن المطر توقف ، وأصبح الهواء رقيقاً عليلًا وارتشع إلى قلوبنا دفء حميم من الأرض الحبلى .

وقع الاختيار على تلك الساحة من قبل لجنة الحزب المشرفة على احتفالات الاستقلال باعتبارها تتوسط كل النجود المحيطة بالقرية . وكانت الساحة تنحدر بشكل خطير باتجاه حوائط رونجي ولذلك فقد كانت العلامات الخوارية البيضاء — لتحديد مسارات الألعاب الرياضية — ترتفع في تنوعات حادة وتهوي في حفر وأخاديد سطحية . أولاً جاء دور السباقات المدرسية وألعابها الرياضية . لقد بدا الأطفال في غاية الأناقة بأزيائهم المدرسية الخضراء والزرقاء والبتيّة .

وكان لكل مدرسة زمرتها من المشجعين الذين كان يتعالي ضجيجهم وهتافهم حين كان الأطفال يركضون ويسقطون على الأرض وينهضون ثانية لمتابعة السباق . كان في الساحة جوقتان من الشباب مزودتان بالأبواق والطبول بغية الترويح عن الناس في فترات الاستراحة بعزف الأنغام العسكرية المظفرة . كانت هاتان الجوقتان تنتميان إلى جناح الشبيبة في الحزب . تلا الألعاب والسباقات المدرسية رقصات تقليديه . صبيان وبنات بظران أدخلوا البهجة على قلوب إجماعهم برقصة « الماثو » العنيفة . لقد طلوا وجوههم — بنين وبنات — بالحوار وبأكسيد الحديدليك الأحمر ، وربطوا الصنوج حول ركبهم . رقص الشباب والشابات رقصة موكونغوا ، بينما رقصت النساء الأكبر سناً ، وهن يرتدين الملابس الجلدية المينغو والميثورو وأطواق الخرز ، رقصة اندومو . طيلة ذلك الصباح كان غيكونيو يهرول من مكان إلى آخر ومن مجموعة إلى أخرى ، للإشراف على حسن سير الأمور . كان هذا واجبه وكان مزهوا به ، وأراد أن يجعل منه ظفراً مجلجلاً .

لم يكن جمهور المتفرجين بذلك العدد الغفير الذي توقعه غيكونيو . وثمة جمود خيم على الفصل الصباحي — شيء يناقض ما يمكن أن يتوقعه المرء في الاحتفال بعيد الاستقلال — أي على الألعاب الرياضية والرقصات . ولكن فجأة حوالت نهاية الفصل الصباحي حدث شيء أذاب ذلك الجمود . لقد أعلن عن إجراء سباق لمسافة ثلاثة أميال ، اثنتي عشرة دورة حول الساحة . وكان يحق الاشتراك به لجميع الشيوخ والشباب

والنساء والأطفال . أحيا الجمهور هذا التدبير المفاجيء (لم يكن هذا السباق على جدول الاحتفالات) وأثار حماسه . وطفق الناس يتصايحون في كل مكان ويتجادلون ، يحض واحداهم الآخر على الاشتراك بهذا السباق . وكانت كلما تقدمت امرأة حياها الجمهور بالضحك والتصفيق لإطراء لاشتراكها . أعنف تصفيق تم لواروي حين تقدم هذا العجوز بأسماله وملاحفه للاشتراك في السباق . اغرورقت عينا مومبي ، التي كانت تجلس لزاء وامبوي ، من الضحك وهي تشاهد واروي يخشخش بملابسه وهو يعبر الساحة إلى نقطه البدء . كان الأطفال يختالون جيئة وذهاباً حول الشيوخ المشتركين في السباق .

— « هيا نشترك في السباق » قال موارا لكارانجا .

— « إن عظامي متييسة » نفر كارانجا وأشاح بنظره بعيداً عن مومبي وصوب العدائين ذوي الثياب المتنافرة .

— هيا يا صاح . لقد كنت ذات مرة من أمهر العدائين للمسافات الطويلة . أتذكر تلك الأيام في مانغو ؟

— وهل ستشارك أنت ؟

— « نعم — وخصمك » قال موارا وشد كارانجا من يده .

ان الظهور المفاجيء لكارانجا أذهل غيكونيو الذي انتقل ، كي كي يتحاشى النظر إلى كارانجا ، إلى حيث كان يقف واروي وابتدره

بجديث ودي . كان كارانجا متردداً أيضاً لأن فكرة اشتراك غيكونيو في السباق ماخطرت بباله . غير أن احتقاره للنجار ملأ له قلبه وجعله يقرر عدم الإنسحاب من السباق ، متذكراً سباقهما القديم نحو القطار . إن تلك المسرحية لما تنته بعد واسوف تمثل ثانية بحضور مومي وفي مكان لايبعد عن محطة القطار نفسها إلا ياردات قليلة . فلربما هذه المرة يربح السباق — ومومي أيضاً ، وإلا فلماذا دفعت إليه بتلك الرسالة القصيرة ، حاكم الأمر بتفاؤل حذر عندما انحنى كي يحل شريط حذائه . كان موارا يتحدث إلى الجنرال ر وإلى الملازم الأول كويناندو وبدا عليه كأنه يؤكد أمراً ما بسبابة يده اليمنى . أصبح المتنافسون الآن ، وقد كانوا حفنة من النساء والرجال وتلاميذ المدارس ، على أهبة الانطلاق . أطبق الصمت المطلق على الساحة كلها لمدة لا تزيد على الثانية قبل انطلاق الصفارة . ثم رافق هرج نقطة البدء جلبة الصياح الصادر عن المتفرجين . أخذ العداؤون يطأ واحدهم الآخر . وقع صبي على الأرض ونجا بأعجوبة دون أن تمسه الأقدام المتراكضة بأذى . خرج واروي من السباق مباشرة تقريباً . ذهب وجلس إزاء وامبوي ومومي .

— « أهذا أنت ؟ لن أمحض قوتك الثقة بعد الآن » أغاظته مومي .
« لقد جلبت العار على كل نساءك المخلصات » .

— « فليتسابق الأطفال » قال وهز رأسه ببطء . « كنا في أيامنا

نركض أميالاً وأميالاً خلف قطعاننا التي كان يسرقها (الماساي) ،
ولم يكن الأمر هزلاً ، أقول لك . »

قبل نهاية الشوط الأول حذا عدة عدائين حذو واروي وانسحبوا .
لم تكمل الشوط الثالث من النساء إلا امرأة واحدة . وفي نهاية الشوط
بعد انسحاب عدة متسابقين من السباق ، لاحظت مومبي على حين
غرة حضور كارانجا . توقف تصفيقها فجأة ، انكمش حماسها
وارتد إلى ذكريات البارحة . لقد أربكها مرأى كارانجا وغيكونيو
على الساحة نفسها حتى إنها أصبحت الآن تتمنى لو أنها بقيت في البيت
مع ذويها . لماذا جاء كارانجا على الرغم من رسالتها التحذيرية ؟ أو ربما
مااستلم الرسالة ؟ وحينما شاهدت الجئرال ر في السباق تذكرت ماكان
الجئرال قد قاله قبل يومين . لقد تنبّهت الآن ، بعد أن أصبحت على
معرفة أدق بالموقف ، للسخرية التي كانت كلماته تنطوي عليها .
لقد تغيرت الظروف بعد أن كتبت تلك الرسالة . وقتها لم تكن قد علمت
بعد أن الإنسان الذي خان أخاها كيهيكا عملياً هو الآن بطل القرية .
فكيف بوسعها أن تفضي بهذه الحقيقة لأي إنسان ؟ أتستطيع أن تتحمل
جلب المزيد من الشقاء إلى ميوغو الذي ظهرت عيناه ووجهه في غاية
التشويه من الألم ؟ تذكرت أصابعه على فمها وأصابعه الأخرى وهي
تتلمس طريقها نحو عنقها بشكل أخرج . ثم ذلك الفراغ المرعب في
عينيه . وفجأة أمام سؤالها له أزاح يديه عن جسدها وركع أمامها
مهشماً ثائباً خائفاً .

« يامومبي ! » واختنقت الكلمات في حلقه ، مدّ نحوها يديه قليلاً على نحو واهن ، ثم على غير انتظار أخفى وجهه بهما . كل هذه المتغيرات المفاجئة في مزاجه وملاحه أفقدها الكلمات . ولكنها على الرغم من خوفها منه وضعت يداً مرتعشة على كتفيه .

— اسمع ياميوغو ! رأيت أخي ميتاً . كان هناك مدير المنطقة والشرطة .

— إن لك عينين وأذنين . أفلا تعلمين من خان أخاك ؟

— كارانجا ! كنت أنت بعيداً هناك . الجنرال ر هو من قال لنا ذلك .

— لا .

تراجعت عنه إلى الخلف . لقد أدركت الحقيقة في صرخته الجوفاء ، في نظراته .

— أأنت ؟

— أنا — نعم — أنا .

لم ينظر إليها . أثار صوته شفقتها . توسل إليها . ولكن لم يكن لها مناص من الاشمزاز والارتجاف . تحركت باتجاه الباب بعيداً عن القامة الجامدة لبطل القرية . لم تكن لديها أية كلمات . لامشاعر . لاشيء . فتحت الباب بشكل آلي ولكن بسرعة . ليلة ظلماء . كان

يبدو عليها أنها تسير وترخص في آن واحد بالظلام المدهم . لم تكن تظهر حتى أشكال البيوت أو الأشياء . المطر يتساقط رذاذاً . أصوات الرجال والنساء الذين كانوا يهزجون أهازيج عيد الاستقلال ، كانت تصل إليها ضمن الرذاذ كأنها قادمة من قرية أخرى ، بعيدة جداً .

في الصباح قالت لوامبوي : « لا يود ميوغو المشاركة بهذه الاحتفالات أليس لنا طريقة لتركه وشأنه ؟ » . هذه المعرفة التي كانت تحملها في سريرتها ورطتها بمأزق جديد : إما كارانجا أو ميوغو . ولكنها لم تكن تريد الموت لأي إنسان ولا الأذى بسبب أخيها . تمت لو كان بمقدورها التحدث إلى غيكونيو الذي قد يجد مخرجاً من هذه المعضلة . لماذا ياترى تجاهل كارانجا رسالتها إليه ؟ تساءلت مرة أخرى . وفجأة أصبحت حافقة على نفسها : ماذا يهمها من أمره ، ذاك الإنسان الذي حطم حياتها ؟

— ماخطبك ؟ سألتها وامبوي .

— لاشيء . أجابت مومبي بسرعة وتابعت تصفيقها الحاد .

بينما كان غيكونيو يعدو كان يحاول التفكير بأشياء أخرى : الوجوه شبه المألوفة بين صفوف الجماهير ، الخوانيت الجديدة في رونجي بعيداً في أسفل المنحدر ، وخلفها منطقة المستوطنة . هل سيضع الاستقلال الأرض بين أيدي الأفارقة ؟ وهل سيمثل ذلك أي فارق بالنسبة للمالك الصغير في القرية ؟ سمع قطاراً يدمدم في محطة رونجي . فكر بأبيه

في مناطق وادي ريفت : أما زال على قيد الحياة ؟ كيف يبدو شكله اليوم ؟ ونفذ بعد ذلك إلى الساحة العريضة لطفولته ، صباه ، قصة غرامه بمومي ، كيهيكا ، حالة الطوارئ ، المعتقلات ، الحجارة على الرصيف ، العودة إلى البيت والحياة الزوجية خطرت في ذهنه بلمح البرق ضمن هذا السياق . كيف كانت مومي تغطي على حياته . إن مجرد غيابها عنه جرده من سلاحه وخلاه إنساناً منهزماً . هز رأسه غاضباً وأقصر نفسه على التركيز على السباق الراهن . هاهو وكارانجا متنافسان مرة أخرى ولكن على ماذا يتنافسان ؟ على من هما يتنافسان ؟ إن كارانجا يسخر مني ليس إلا ، خطر في ذهنه . غلى حقداً وهو يلهث فمسح العرق عن جبينه . تابع عدوه ، ألهبته الرغبة في الانتصار . حافظ على ترتيبه قريباً خلف كارانجا . كان هدفه الحفاظ على مسافة معينة ، مدخراً طاقته للشوط الأخير أو مايقاربه حين سيندفع وقتها كالسهم إلى الأمام واثقاً أن عضلاته سوف تستجيب لمشيئته .

كان موارا يحتل الترتيب الأول في الشوط السابع . على بعد عدة ياردات خلفه كان يتبعه كارانجا ، ثم الجنرال ر ، غيكونيو ، الملازم الأول كويناندو وثلاثة رجال آخرين ، كلهم على ذلك الترتيب . كان معظم المتسابقين الآخرين قد انسحبوا . كان المتفرجون حول الساحة يقفون ويهتفون مرة لهذا الرجل ومرة لذلك الرجل . هيا ، هيا ، كانوا يصيحون . كان لسباق المسافات الطويلة دائماً شعبيته في ثاباي . كان الناس يحتفرون سباق المسافات القصيرة ناظرين إليها بأنها سباق

أطفال . وحتى أولئك الذين كانوا يضمرون حقداً خاصاً لكارانجا ،
الزعيم الحكومي السابق وقائد الحرس القومي ، فقدوا الآن ، وهم
في ذروة حماس المناسبة ، مشاعرهم المريرة حياله وبدأوا يهتفون
له مشجعين .

وكارانجا أيضاً كان يتذكر مشهداً من زمن بعيد ، حين وقف
في محطة القطار هناك يغالب معرفته بأن غيكونيو ومومي قد تركا
بمفردهما خلف المتسابقين . ويلتاه كم كان يتحرق شوقاً لتلك المرأة !
ياإلهي كم ناح الغيتار على مومي في الغابة ! ليت ما تردد وانتظر الغد ،
لكان ربما قد فاز بها . وفيما بعد حين تقدم لخطوبتها رفضته — بابتسامة .
لقد كان ذلك الرفض هو ماشده إليها بشكل يتعذر محوه . فترقب
الفرصة السانحة . ولذلك حين افتيد غيكونيو إلى المعتقل ، سرعان ما أدرك
كارانجا بأنه يجب ألا يسمح لنفسه بالانقياد بعيداً عن مومي . فباع
الحزب وخان العهد مقابل بقائه قريباً من مومي . ودفعه دولا ب الأحداث
فيما بعد إلى تزايد اعتماده على الإنسان الأبيض ، مما أمدّه بالسلطة —
سلطة العفو والحبس والقتل . كان الرجال يجثون أمامه وجلبين . كان
يحتقرهم ولكنه كان يخافهم أيضاً . وأما النساء فقد كن يفرشن أجسادهن
العارية له ، حتى نساء بعض أكابر الناس كن يأتينه تحت جنح الظلام .
ولكن مومي ، موميه ، لم تكن تدعن وما كانت نفسه تطاوعه على
قسرها . وبالسخرية ، كما فكر فيما بعد وكما كان يفكر الآن ، لم
تضطجع تحته إلا حين وقف على حافة الهزيمة . لقد شعر بهزة آتية

مشحونة بالانتصار العميق ولكنها تحولت بعد ثوان ، بعد ممارسة الجنس معها ، إلى عزلة تامة ومذلة مطابقة . لقد استغلها ولهذا السبب ، كما ظن ، صبت احتقارها عليه . لم يعد بمقدوره وقتها أن ينظر إلى وجهها — ليس بعد ذلك النعل الذي ارتطم في وجهه وأثار في عينيه دموعاً غشت له بصره . لقد كان دائماً يتمنى أن تأتي مومبي إليه ، بملء إرادتها ، باعتباره إنساناً هاماً في نظرها ، إنساناً لاسبيل لمقاومته . وها هو الآن يركض من أجلها . أفلم تتح له هي نفسها الفرصة للمرة الثانية ؟ لقد انتشلت رسالتها من هوة يأس مرير . هاقد ارتحل آل ثومبسون ، وسيرحل الإنسان الأبيض عما قريب . كان كارانجا يعتقد بأن السلطة البيضاء باقية فعلاً مابقي هنالك آل ثومبسون . ولربما كان السبب يتمثل في أن ثومبسون كان أول إنسان أبيض رآه كارانجا وقابله . وذلك لأن ثومبسون ، مدير المنطقة ، كان يبدو للناس في ثاباي ، قبل الطوارئ ، رمزاً لسلطة الإنسان الأبيض ورفعته . لقد وفّرت السلطة البيضاء لكارانجا أمناً مخيفاً — وبدأ الآن ذلك الأمن ، الذي تزعزع من جذوره ، يتداعى أيما تداع . طرق الدروب المظلمة . لم يكن بوسعه رؤية النور . ثم جاءت الرسالة . حذرته من حضور احتفالات اليوم . فلماذا ؟ لقد طلب منه موارد من قبل حضور الاحتفالات ولكنه ، إذا كان في هوة اليأس ، رفض الحضور . مابدّل له رأيه إلا رسالتها التي جعلته يعيد النظر بالأمر ويقلبه ظهراً لبطن طوال الليل . كانت كل لحظة تمر عليه تزيد من حدة فضوله لرؤية مومبي . وأما ثاباي فليست في

خاتمة المطاف إلا قريته : فمن ذا الذي يجرؤ على القول بأن كارانجا لا يستطيع الذهاب إلى بيته ؟ كان كارانجا يشعر بالاطمئنان في مكان ما ، في حنايا فؤاده ، لسطوة قوته الجسدية على مومي . أفلم تعن بطفله ، بعد كل شيء ، عناية الأم ؟ لم يأخذ تحذيرها على محمل الجد . إنها طريقة المرأة في فعل الأشياء . لقد تعزز هذا الرأي لديه حينما وصل مع موارد إلى رونجي ، حيث عرف بأن مومي قد هجرت زوجها . تغلغت رسالتها في أعماق قلبه . طيلة حياتي وأنا أركض من أجلها ، خطرت له هذه الفكرة المريبة لهنية لأكثر . يجب ألا يسمح لأمثال هذه التصورات أن تلهيه عن إحراز النصر الراهن ، وما السباق الحالي إلا آخر سباق له . إذا فاز بمومي فإن حياته ستبلغ ذروة الكمال . فلا الاستقلال ولا تهديداته ، ولا شيء آخر على وجه الأرض ، يمكن أن يمسّه بسوء . ولذلك استحث الآن خطوه وزاد من تسارعه . يجب أن يدرك موارد في الشوط العاشر . يجب أن يتخلص من غيكونيو الذي يكاد يطبق عليه من الخلف .

لأن غيكونيو الآن كان قد تجاوز الجنرال ر واحتل الترتيب الثالث . كثر أسنانه مستثيراً عزيمته . كان يعلم بأن مومي تشهد السباق وما كان يريد أن يصبح موضع مهانة أمامها من قبل عشيقها . لقد جاءت كي تسخر منه ، هكذا ظن . لقد جاءت كي تبرهن عن استقلالها الآن . ذهب مرتين إلى المكان الذي كانت تجلس فيه كي يتحدث مع وامبوي عن أمر ما ، وتجاهل وجودها عن عمد . هذا ما جعله يبدو هزأة مما

زاد في حنقه . لاحظ أن كارانجا يزيد من سرعته وفعل هو الشيء نفسه . حتى الآن لم يحترق أحد الترتيب الذي كان قائماً في الشوط الثامن بيد أن الجمهور أدرك الحماس والتوتر القائمين .

حتى مومي نسيت الآن الهم الذي في قلبها ، جرفتها اللحظة . تمنيت أن يفوز غيكونيو ، وابتهات أيضاً لكي يخسر . لقد انتقدت ركضه الأخرق ولكنها كانت تتابع تقدمه بانفعال . هتفت للجنرال والملازم الأول كويناندو الذي كان خلف غيكونيو مباشرة . هيا ، هيا ، كان قلبها يخفق وهي تلوح بمنديل أبيض . كانت كلما مرّ بها كارانجا تشعر بالارتباك ، وأني لها أن تخفي هذا الشعور .

كان الجنرال ريركض بارتياح . كان قبل حالة الطوارئ يشترك بكل سباق ذي مسافة طويلة ، حتى إنه طرح نظرية حول هذا الموضوع . « إنه يختبر طول المدة التي يمكنك بها تحمل المشاق » كان يقول . « أنت تقول لنفسك : لن أستسلم ، سأخوضه إلى نهايته » . كان لجسده تناسق جميل . وإذا كان يعدو كان يتلرب على دوره في المشهد الذي كان سيحدث عصر ذلك اليوم . لقد طلبوا منه أن يخطب بدلاً من ميوغو . لقد عقد عزمه على ألا يخيب فأل كيهيكا به . كيهيكا الذي كانت روحه ستعرف ، بانتصار ، فوق الاجتماع .

لم يكن ذهنه مشغولاً بذلك الأمر . لقد عاد ، دون سابق انذار ، إلى نايري مسقط رأسه . المدرسة والتعليم : كان ذلك حلم طفولته

وتوقعاته .. تذكر كيف كان يقوم بأعمال شتى من مثل حراثة حقول الآخرين بالأجرة . كان والده رجلاً متعجرفاً كثيراً ما يعود إلى البيت ثملاً ليوسع أم الصبي لكماً بقبضاته . كانت تبكي وتعمل كالحيوان الحبيس في الأقفاص . ميوهيا - ذلك كان الاسم الحقيقي للجنرال - كان إما يلبأ بمكان ما أو يهرب من البيت . كان يمتت نفسه لصغر حجمه وفقدانه الشهادة ، ولكنه لم يكن يبكي كبقية الأطفال - ولا حتى حين يضربه والده . « لا بد لي من اصطياده يوماً ما » أقسم سرّاً لنفسه . لم يبح بخبطه لأي إنسان - حتى لأمه . لسوف يقتل هذا الطاغية ذات يوم . ولسوف تزغرد أمه وقتها امتناناً ، على الرغم من أنها لم تكن تتذمر قط من الأعمال المجهدة التي كانت تقوم بها ولا من اللكمات التي كانت تهال عليها . حين شب عن الطوق خبت عنده الرغبة بالانتقام وأرجأ يوم الحساب إلى مستقبل مجهول . ولكن ذلك اليوم حان على غير انتظار . عاد إلى البيت ميوهيا ، وقد كان يافعاً مختوناً منذ عهد قريب ، ووجد أباه يمارس هوايته المفضلة . وفجأة شعر الشاب بأن الفرصة مواتية له . « إن كنت حريصاً على حياتك فإياك أن تمسها ثانية » صاح بأبيه . في البداية . عقلت الدهشة لسان الأب حتى إن يده تجمدت في الهواء . هل ما يسمعه صحيح ؟ هل وجد هذا الحمل الهزيل صوته ؟ وثارت نائرة الأسد بشكل أدخل الرعب على نفس ميوهيا ، ولكنه بعد قليل لاحظ الخوف يكمن في عيني الأسد . شيء ما تقصّف في سريرة ميوهيا فأمسك بذراع أبيه وضربه . تفجرت عنده سنوات

البغض والخوف على شكل بهجة خفيفة . اشتبك الأب والابن في عراك :
حياة أو موت . بيد أن ميوهويا لم يكن قد وضع في حسبانته خيانة العبد .
تناولت المرأة هراوة وقاتلت إلى جانب زوجها . أصبح ميوهويا الآن
هو من عقلت لسانه الدهشه وأسقط في يده . « إنه أبوك - وزوجي »
كانت تصيح به وهي تهوي بضربة على كتفه . هرب ميوهويا من
البيت ، ولأول مرة في حياته أجهد بالبكاء . لأفهم الأمر ، لأستطيع
لفهمه سبيلا . في نفس تلك الليلة انتشر النبا . ابن تطاول على أبيه .
طرد ميوهويا من القرية . كان في غاية السعادة حين جنده البريطانيون
في حربهم . ولكنه مانسي تلك التجربة ، مطلقاً .

سمع مومي تهتف له وهذا ماأرجعه إلى الحاضر . ثمن هتافاتها
بزيادة تسارع خطواته وسرعان ماتجاوز المللزم الأول كويناندو .
ركض بشكل جنوني . أراد أن ينسخ الماضي من ذهنه . إنه لم يعد يريد
أن يعيش طفولة مماثلة .

وهكذا تسارعت خطوات المسرحية . بذل كويناندو جهداً مضنياً
كي يقلص المسافة بينه وبين الجنرال . ولكنه لسبب ما أخفق في
قسر همته على السباق . خارت قواه وشعر بنفسه جثة هامدة . لازمه
هذا الشعور لمدة يومين وما فهم له سبباً . لقد مر بالتأكيد في تجارب
أسوأ خلال الحرب الثانية للإنسان الأبيض وفي الغابة أيضاً . كان
فخوراً لكونه طباعاً للإنسان الأبيض في تلك الحملات . بعد الحرب ،

كان يتحدث عن ذلك بزهو حتى شعر بالإحباط نتيجة البطالة الدائمة التي فتحت له عينيه بعض الشيء . كان كويناندو واحداً من أولئك الناس الذين تورطوا في مآزق مع أرباب عمله لأنه كان دائم الشكوى . كان يعدد الخدمات التي قدمها للإنسان الأبيض خلال الحرب مما يؤهله ، كما كان يدعي ، لمعاملة أفضل . ففي معمل أحذية قرب بيته قال مرة لرب العمل على مرأى من العمال الآخرين : «أريد مزيداً من النقود . يجب أن يكون لي سيارة كسيارتك . » فطرد من العمل مما أخمده لفترة من الزمن . ذهب بعد ذلك يعمل لصالح امرأة . الشيء الذي كان يؤرقه الآن كان هذا : لقد حارب في الغابة وقتل بلا شفقة ، ولكن لم يذرق عليه نومه أي مشهد من المشاهد الدموية التي شارك فيها ، بل على النقيض من ذلك : لقد زوده نضاله من أجل الحرية بهدف ما ، جعل منه رجلاً . فلماذا إذاً يرتجف من شبح تلك المرأة ؟ لقد انصرفت عدة سنوات على تركه خلعته لقد كان يحب كلبها وبدا هذا بأنه يروق لها إذ كانت تقدم الهدايا لكويناندو في كل عيد ميلاد . ثم فجأة بدأت الأفكار تراوده مرة ثانية : ليس لها زوج وتملك بيتاً كبيراً ، فلماذا ؟ لماذا يجب عليه أن يعيش هو ، الرجل في كوخ من غرفة واحدة ؟ واثته المرأة أخيراً وطفق يفضي بأفكاره للناس الآخرين : إنها تعيش بمفردها ، وليس من المصيب أن تعيش امرأة بمفردها . سأتولجها يا صاح ، وسأغوص في أعماق ذلك الثقب . ضحك الآخرون لحديث كويناندو الشيق . ولكن ما بدأ

كطرفة عنده أصبح هوساً . سنحت له الفرصة خلال الطوارئ .
هو ورجلان آخران طرحوها أرضاً . كان يرتجف من الخوف والحقد
الدفين . كان يكره الإنسان الأبيض - أي واحد . هاهو الآن ينتقم منهم
جميعاً . لقد شعر بعويلهم المذعور يتمثل في تنفس المرأة المسعور .
الإنسان الأبيض لاشيء . الإنسان الأبيض لاشيء . أنا أفعل بك الآن
ما فعلته بنا - نحن الناس السود - قال لنفسه وهو يبضع تلك المرأة
ويعترية الخوف واليأس الوحشي . هرب والرجلان الآخران إلى الغابة .
وطوى النسيان تلك الحادثة طيلة السنوات التالية إلى أن ذهب إلى غيشما
لمقابلة موارد . وهنالك كانت أمامه الدكتورة لايند . حتى في هذه اللحظة ،
بينما كان يخوض السباق ، جعلته فكرة تلك المقابلة المفاجئة يرتجف .
بدأً شبوحها ينهش في حياته . سرعان ما انقلب تريك الاستقلال في فمه
إلى حنظل . كان الجنرال ريسبق كويناندو بخطوات عديدة . استشار
كويناندو همته بصعوبة . صلب دوي عن الجمهور حقن أطراف
كويناندو بقوة دفع جديدة . ليس عليك إلا الكفاح ، ليس عليك
إلا الكفاح ، وطفق يلهث .

في بداية الشوط الحادي عشر اندفع غيكونيو وسبق كارانجا .
هاهي موجة جديدة من الصراخ والهياج تهلل لحرق الترتيب الذي كان
من قبل . هذه الموجة أمدت كارانجا بزخم جديد وهو يحاول القيام
بمحاولة يائسة لاستعادة المركز الأول من خصمه . وسرعان ما أدرك
غيكونيو موارد الذي بذل أعنى جهوده عبثاً . أدركه كارانجا أيضاً

وسبقه . خارت قوى موارا وسرعان ماسبقه جميع المتسابقين . كان الصراع الآن بين غيكونييو وكارانجا . ليس إلا قلة من الناس ممن كانوا يدركون أن ثمة دوافع وعواطف خفية تكمن خلف هذا الصراع . وأما الجمهور فما كان يشعر إلا بالمرآنة الخاصة والتوتر الشديد . جاء الاثنان في الشوط الأخير فرسي رهان . وفي لحظة معينة بدا كارانجا وكأنه على وشك أن يسبق غيكونييو . بيد أن غيكونييو بدا وكأنه يعدو بفعل قوة شيطانية . كان هنالك في الواقع مسحة من التهور بالطريقة التي كان يعدو بها الاثنان . مط الناس انفسهم ووقفوا على رؤوس أصابع أقدامهم .

ولكن حدث في هذه الآونة شيء على غير انتظار . فبينما كان غيكونييو يركض نازلاً عن الهضبة زلت قدمه بخصلة حشيش طرحته أرضاً مما أدى إلى تصيد كارانجا أيضاً في هذه المفاجأة . ران الصمت على الساحة برمتها . جاء الجنرال ر وخلفه بقية المتسابقين ، وتجاوز الاثنان وبلغ غاية الشوط . ثم اضطربت الساحة بالهرج والمرج . وتدافع الناس إلى المكان الذي وقع فيه الرجلان وتكوما فوق بعضهما بعضاً . حينما وقع غيكونييو أنزلت مومي المنديل الذي كانت تلوح به . « رباه » صاحت واندفعت إليه عبر الساحة . جثت على ركبتها وتفحصت رأسه بدقه . كان غيكونييو في غاية الإرهاق والغضب حتى إنه لم يكن يعلم ما يدور حوله . كان كارانجا الأول بينهما الذي استعاد قواه ورفع نفسه متكئاً على مرفقه الأيسر . ولكنه لدى رويته رأس

غيكوڤيو بين يدي مومي - يالركة هاتين اليدين - عشيّ بصره وڤاص
على الأرض من جديد . كان الناس في جلبة حول مكان الحادث . ولما
رأت مومي أن الأذى لم يلحق بغيكوڤيو تذكرت صدودهما . فشقت
طريقها وسط الزحام وقد اعتراها الارتباك ومضت إلى البيت قبل أن
يتمكن إنسان من التحدث إليها . تفرقت الجماهير أيضاً والناس يتجادلون
ويتفكّرون : من كان من المحتمل أن يفوز بالسباق من هذين الاثنين ؟
كان بعضهم إلى جانب كارانجا وبعضهم الآخر إلى جانب غيكوڤيو .
ولما ابتعد الناس عن الأنظار قلة منهم شاهدوا أن غيكوڤيو ما يزال مطروحاً
على الأرض . كان يتصبب عرقاً وكان وجهه متغضناً من شدة الألم .
حاول النهوض . أنّ قليلاً ، ثم جلس ثانية على الأرض . وما علم الناس
بأن غيكوڤيو قد كسر ذراعه الأيسر إلا بعد إدخاله المستشفى .

وهذا ماختم الفصل الصباحي .

بعد الظهر أشرقت الشمس وصرّح النهار وتبدد الضباب الذي عشن
في الهواء صباحاً . وأما الأبخرة فقد كانت تتصاعد من الأرض كأنها
أبخرة روث البقر المقدوف حديثاً . انتشر البخار الدافئ وتمعّج على
شكل خطوط رفيعة في السماء الصافية . كان سيقام بعد الظهر الاحتفال
الرئيسي لإحياء ذكرى الأبناء الأموات ولإرساء الأسس لمستقبل جديد .
بدا أن كل الناس ينتظرون هذه المناسبة ويعدون أنفسهم لها . فجاء إلى
الاجتماع معظم سكان قرينتا باستثناء العجائز وقلة ممن كانوا مرضى

أو عرجان . كان هذا اليوم يوم كيهيكا ، ويوم ميوغو ، كما كان يومنا نحن أيضاً .

أناس آخرون من انديا ، لاري ، ليمورو ، انغيسا ، كاييت ، كارارابون ، جاؤوا بالشاحنات والحافلات واصطفوا أرتالاً في سوق رونجي . كان هنالك تلاميذ المدارس ببذاتهم الخاكية الرسمية من خضراء وحمراء وصفراء - ومن كل الألوان الموجودة في قوس القزح ، بالإضافة إلى أطفال القرية بأطمارهم البالية وبالذباب المحتشد حول أفواههم وعيونهم الرمدة ، علاوة على النساء اللواتي كن يلبسن الالبسة الجلدية ويزين أعناقهن بأطواق الخرز . وكان ثمة نساء أخريات يلبسن الخام المرقش بالزهور الذي يكشف عري أكتافهن اليسرى ، وأخريات يرتدين الفراك العصري ، ومجموعة أخرى منهن يرتلن ترانيم عيد الميلاد المخلوطة بأناشيد تقليدية وأهازيج الاستقلال . كان الرجال يقفون صامتين أو يتحدثون عن الآفاق التي فتحتها الاستقلال . كما كان هناك العاطلون عن العمل من الذين يرتدون سترات مامستها الماء أو الصابون قط : هل ستصبح الحكومة الآن أقل صرامة على الذين لم يتمكنوا من دفع الضريبة ؟ هل سيكون هناك فرص عمل أكبر ؟ هل سيكون هناك أراض أكثر ؟ كان الموسرون من الباعة والتجار وملاك الأراضي يبحثون آفاق العمل : أما وقد صار لنا الآن سلطة سياسية فهل من الممكن فعل شيء ما تجاه الهنود ؟ . جلسنا . غيثوا ، الذي كنا ندعوه تحبباً « بطلنا وحيد الساق » ، أجهدش بالبكاء وذرف الدموع السخية ، دموع الفرح العظيم .

كان الجمهور متسقاً : ثمة شيء جميل ومثير للمشاعر يكمن في
منظر كتلة جماهيرية ضخمة تجلس في فوضى منظمة .

غرست شجرة في البقعة التي شق فيها كيهيكا . كان قربها خروفان
أسودان ، لا تشوبهما شائبة ، مربوطين إلى صخرة ليكونا القربان
الكبير . تم اختيار واروي وشيخين هرمين من قرية كيهينجو لاقتياد
القربان بعد انتهاء الإشادة بأولئك الذين قضوا نحبهم في النضال .
واحتل ميوغو ووانجيكو كرسيين بارزين قرب المنصة . وأما كراسي
الخطباء الرئيسيين وقادة الاحتفالات فقد أعدت حول الميكروفون
الذي كان يتصب على المنصة العالية . وأما مومي التي علمت في القرية
بنبأ الذراع المكسورة لغيكونيو ، فقد ذهبت إلى المستشفى .

انتظرنا .

ومرة ثانية ظهر ذلك التوجس الثقيل الذي كان قد خيم على قرينتنا
منذ الليل . وبدأ أن معظم الناس لا يزالون يتوقعون أن يخطب ميوغو .
لقد أرادوا رؤية شخصه وسماع صوته . الحكايات التي راجت حول
قوة ميوغو انتقلت من شفة إلى أخرى وكانت هي المسؤولة بالدرجة
الأولى عن ذلك الحشد الكبير . كان من المحال دحض الإشاعات العديدة
المتناقضة التي انقلبت بين عشية وضحاها إلى ضرب من الخرافات المثيرة .
ولم يكن ليأخذ أي إنسان ، من قرينتنا على الأقل ، أي تكذيب على
محمل الجدل . قال بعض الناس بأنه تعرض في المعتقل لإطلاق الرصاص ولكن

لم تمسه أية طلقه بسوء . وبفعل تلك القوى كان ميوغو مسؤولاً عن حالات فرار عديدة من المعتقل قام بها رجال ذهبوا بعد هربهم لمتابعة النضال في الغابة . ومن كان بمقدوره سوى ميوغو أن يهرب الرسائل من المعتقلات إلى أعضاء البرلمان في انكلترا ؟ كما كان هناك من الملح إلى أنه كان في معركة (ماهي) وحارب جنباً إلى جنب مع كيهيكا . كانت هذه الحكايات تدور في الاجتماع بمتهى البساطة . أنشدنا النشيد تلو النشيد عن كيهيكا وميوغو ، فوحدت بين قلوبنا قدسية صامتة . لقد توقعنا بشكل غامض ، كأولئك الذين جاؤوا من أمكنة بعيدة لرؤية ميوغو وهو يصنع الخوارق ، بل ويكلم الله ، أن شيئاً عجبياً لامناص من حدوثه ، لم يكن هذا الاحساس في الواقع إحساساً بهيجاً ، بل كان إحساساً مربكاً بقدر لا مفر منه .

وقف سكرتير الحزب بدلاً من غيكونيو . كان نايامو رجلاً قصيراً ذا بنية ضخمة ، ألقى القبض عليه بالجرم المشهود مخبئاً طلقات في جيوبه إبان حالة الطوارئ . يقال بأن أعمامه الموسرين (كانوا من الموالين) رشوا الشرطة مما أدى إلى أنقاذه من حكم الإعدام الذي كان مصير كل أولئك الناس الذين تضبط الأسلحة والدخائر في حوزتهم ، بالإضافة إلى حداثة سنه إذ لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة . فسجن سبع سنوات بدلاً من الإعدام . استدعى نايامو الآن الأب موريس كينغوري لافتتاح الجلسة بتلاوة الصلاة . كان كينغوري قبل عام

١٩٥٢ واعطاً ذائع الصيت في كنيسة الكيكويو الأرثوذكسية اليونانية ، وهي إحدى الكنائس الانكليكانية العديدة التي انفصلت عن المؤسسة التبشيرية . وحين حظرت هذه الكنائس بقي كينغوري عاطلاً عن العمل لفترة طويلة قبل أن يلتحق بمديرية الزراعة خلال عملية تجميل الأراضي في المقاطعة المركزية ، ويعمل كمرشد فيها .— عمل مازال يمارسه حتى هذا اليوم . كان من عاداته كواعظ أن يرتل الأناشيد ويتلو الصلوات بشكل مسرحي . كان يرفع صوته ويشخص ببصره إلى السماء ، ثم يخفضهما فجأة . وكثيراً ما كان يخط على صدره ويشد شعره وثيابه . كانت كلماته تترجح بين الاعتراض والخنوع ، بين الاعتدال والتفجع ، بين الوعد والوعيد . وقف الآن على المنصة يحمل انجيلا في يده .

كينغوري : لنبدأ الصلاة . يارب افتح لنا قلوبنا .

الجمهور : وأفواهنا ستفيض بالشكر لك .

كينغوري : ياإله اسحاق ويعقوب وإبراهيم ، يامن خلقت أيضاً الغيكويو ومومبي ، ومنحتنا ، نحن أبناءك ، هذه الأرض ، أرض كينيا ، نحن ، في هذه المناسبة التي ستذكرها أمم الأرض قاطبة بأنها اليوم الذي نجيت فيه أبناءك من المصريين ، نبتهل إليك الآن أن تجعل دموعك تتدفق علينا ، لأن دموعك ، يارب ، هي البركات الخالدة . لقد أريق الدماء من أجل هذا اليوم .

إن كل عمود في أكوأخنا قد تعمد بالدم ، ليس دماء
القرايين وإنما دماء أبنائنا وبناتنا الذين قضوا كي تكتب لنا الحياة . وفي
كل مكان من قرانا ، في السوق ، في المزارع ، لا ، بل حتى في الهواء ،
نسمع نواح الأرامل واليتامى ، نمر بهم ونتحدث إليهم بصوت عال كي
نخفف من مصابهم ، لأننا لانستطيع أن نفعل شيئاً لهم ، يارب ، لانستطيع
أن نفعل شيئاً . ولكن صيحة راشيل في أعماقنا لا يمكن طمسها ، لا يمكن
طمسها أبد الآبدين . رحماك يارب اسحاق وابراهيم ، إن الرحلة عبر
الصحراء طويلة . نحن بلا ماء ، نحن بلا طعام ، وأعداؤنا جادون
في إثرنا ، يركبون العربات وصهوات الخيول بغية إعادتنا إلى فرعون .
لأنهم كارهون أن يرحل شعبك ، يمنعهم الغلّ في قلوبهم من السماح
لشعبك بالرحيل . ولكن بمعونتك وإرشادك يارب ، واثقون من بلوغنا
شاطئ كنعان والسير عليه . أنت يا من قلت بأنه ماأن يجتمع اثنان أو
ثلاثة بعضهم ببعض حتى تهبهم كل ما يطلبون ، فتوسل إليك الآن بصوت
واحد أن تبارك عمل أيدينا ونحن نحرق التربة وندافع عن حريتنا .
إذ مسطر في كتابك : اطلبوا تمنح لكم ، افرعوا الأبواب ولسوف
تعثرون . هذا كله نطلبه باسم يسوع المسيح إلهنا ، آمين .

الجمهور : آمين .

وبدأ الناس بالأنشيد تقودهم زمرة الشبيبة بالطبول والغيتارات
والمزامير وصفائح التنك . ومرة ثانية بعثوا التاريخ من جديد ونفخوا

فيه الحياة من خلال الكلمات والأصوات : تحويل ملكية الأرض ، وإياياكي ، هاري ثوكو ، فرض الضرائب ، العمل الإجباري في مزارع البيض ، الانفصال عن البعثات التبشيرية ، وآه ، التعطش والنهم الرهيب للثقافة . نشيد جومو (لقد جاء بيننا كالسهم الناري) ، إقامته في انكلترا (إقامة موسى مؤقتة في أرض فرعون) ، وعودته (جاء ممتطياً صهوة سحابة من دخان ونار) لإنقاذ أبنائه . اعتقل ، ونفي إلى لودوار ، وعاد في اليوم الثالث من مارالال إلى وطنه . عاد إلى وطنه في عربة . ماكان لبوابات الجحيم أن تصده . والآن ترتعش الملائكة أمامه .

تلا نايامو اعتذارات من نائب المنطقة ، ومن أعضاء قيادة المنطقة الذين ذهبوا جميعهم إلى نيروبي لتمثيل منطقة رونجي في الاحتفالات الوطنية . لم يأت على ذكر سبب غياب ميوغو .

الخطوة التالية كانت الخطابات . عدد معظم الخطباء مجدداً آلام حالة الطوارئ ، أو تحدثوا عن نمو الحزب . كانوا فخورين بكيهيكيا ، ابن القرية البار ، الذي لن ينسى نضاله من أجل الحرية أبداً الدهر . أعادوا تكرار خصاله في الشجاعة والتواضع وحب الأرض . كان موته تضحية من أجل الأمة .

وعند انتهاء كل خطيب كانت تهتف الجماهير أو تنشد ، حتى لو لم يكن ذلك أكثر من تكرار تقوم به النساء والرجال لنقاط جرى التحدث

عنها من قبل . صوت غيثوا ، حين كان يصيح هاتفاً أو منشداً ، كان يطغى على أصوات كل الجالسين قربه . وطيلة الوقت كان يعتقد معظم الناس أن ميوغو سيخطب عما قليل . كلما جلس خطيب كانوا يظنون أن الخطيب التالي سيكون ميوغو ولا بد . ولكنهم صبروا وتصابروا بآناة لأن أشهى طبق من الطعام لا يقدم إلا في النهاية .

في النهاية أعلن نايامو أن الجنرال ر ، الرجل الذي حارب جنباً إلى جنب مع كيهيكا ، سيخطب بدلاً من ميوغو . ظروف خارج لإرادة أي إنسان حالت دون حضور ميوغو هذا الحفل . قبل هذا الإعلان بالصمت . بعد قليل صاح رجل من إحدى الزوايا مطالباً بميوغو بصوت عال . وسرعان ما لقي هذا الطلب استجابة جماعية من جميع أنحاء الساحة ، حتى إن الحفل ضج باسم ميوغو في تساق يتسم بالتهديد . بعدئذ انفجر هذا التساق في جلبة غير منظمة ، وقف الناس ، وتشكلت زمر منهم ، وجادلوا كلهم وأومأوا واحتجوا وكأنهم قد خدعوا في هذا الحفل . استشار نايامو الكبار وقرروا أن يقوموا بمسعى أخير للمنشدة ميوغو الحضور . إعادة الحشد إلى النظام استغرقت زمناً من نايامو والكبار بعد أن أعلنوا عن إيفاد بعثة من شخصين في الحال لإحضار ميوغو . وطلب من بعثة الكبيرين ألا تقبل جواباً بالنفي من ميوغو . وإلى أن تعود البعثة هل يتفضل الحضور بالجلوس والاصغاء إلى كلمات الجنرال ؟ جلس الناس ثانية وهم ينشدون نشيد الخندق .

وففز إلى الخندق ،
والكلمات التي قالها للعسكري احترقت قلبي
كالحرية .

إليك لن تضرب هذه المرأة ، هو قال ،

إليك لن تضرب امرأة حبلى . قال للعسكري .

كان يكمن خلف هذه الكلمات صوت شيء يشبه فرقة جيل
يتقطع . بعدها نعيم على الناس صمت مطبق .

وقف الجنرال ر أمام الميكرفون وعيناه الحمراءوان تحاولان أن
تسبرا أغوار هذا الجمهور الأخرق . تنحنج مرتين . كان يعرف ماذا
يريد أن يقول . لقد تدرب على أداء هذا الدور ، عدة مرات ، كلمة
كلمة . ولكنه الآن وهو يقف على شفير الكارثة ، وجد من العسير
عليه أن يطوف ببصره على المشهد الذي تحته أو أن يحدق إليه . تفوق
في صورة واحدة — حياته في الغابة التي مرت في ذهنه مرور البرق : رأى
الكهوف المظلمة في غابة كيني ، الحروب المتواصل من القنابل في غابة
نيانداروا ، العطش ، الجوع ، اللحوم النيئة وأخيراً انتصارهم في
(ماهي) . يجب أن تحدثهم عن كل هذا — صوت في سريره ألح عليه .
حدثهم كيف خططت لذلك أنت وكيهيك . ولكن ماعتمت هذه الصورة
أن نبذت وتلاشى الصوت أيضاً . ها إن وجه الأب جاكسون كيغونديو

ينتصب أمامه الآن . يسخر منه . يكيل له الاتهام . « لقد بدا مثل أبي » اعترف الجنرال ر ذات مرة في لحظة ضعف أمام الملازم الأول كويناندو وذلك بعد وقت قصير من مقتل خادم بيت الله . كان جاكسون يعظ باستمرار ضد الماو ماو في الكنائس والمحافل العامة التي كان يعتمدها .
توم روبسون . كان يدعو المسيحيين للقتال إلى جانب الإنسان الأبيض . أخيه في الدين المسيحي ، لإعادة النظام وسيادة الروح . والآن تألفت أمام الجنرال ر كل تفصيلات ذلك المشهد حين حاصروا بيت الواعظ ومزقوه لرباً . لم يبد جاكسون أي خوف . ركع والسواطير تتهاوى عليه حتى الموت وهو يصلي لنجاة أعدائه . كاد هذا الفعل يفقد الجنرال ر رباطة جأشه فطلب من أتباعه أن يغرروا بسواطيرهم في جثة الرجل حتى يشترك الجميع بالإثم . فلماذا يظهر وجه الرجل فجأة أمامه الآن ؟ يجب أن تموت ، مخاطب الوجه . ولكن الكلمات أرتجت عليه . تثبتت بمكبّر الصوت كي يثبت نفسه . وفجأة أدرك أن الجمهور قد كف عن الأناشيد وأنهم يراقبونه . هذا ما أثار الملح في نفس الجنرال ر . خرجت الكلمات من فمه وبدأ عليه كأنه يستجدي المغفرة ويدي بشهادته أمام محكمة جماهيرية . انتصب أمامه جاكسون ، المدعي ، بوجهه الدامي . هل كان كل الناس يرون هذا الوجه أم أنه في ذهنه فقط ؟ تساءل الجنرال ر من خلال هلهة . نظر مباشرة أمامه ومخاطب الوجه الذي كان يسخر منه .
« أنت تسأل لماذا حاربنا ، لماذا عشنا في الغابة مع الوحوش . أنت تسأل لماذا قتلنا وسفكنا الدماء » .

« كان الإنسان الأبيض يركب السيارات . كان يعيش في بيت فسيح . كان يذهب أطفاله إلى المدرسة . ولكن من كان يحرق الأرض التي تنبت القهوة والشاي و حشيشة الحمى وليف السيزال ؟ من كان يحفر الطرقات ويدفع الضرائب ؟ لقد عاش الإنسان الأبيض فوق أرضنا . كان يأكل ما نزرع ونطهو . حتى فئات الموائد كان يلقيها لكلايه . ذلك هو السبب الذي ذهبنا من أجله إلى الغابة . كل من لم يكن معنا كان ضلنا . وذلك هو السبب الذي قتلنا من أجله أخوتنا السود . لأنهم كانوا بيضاً في سرائرهم . ولأنني أدرك أن هذه الحرب لما تنته حتى الآن . حصلنا على استقلالنا اليوم . وغداً سوف نسأل : أين هي الأرض ؟ أين الطعام ؟ أين هي المدارس ؟ فلتقم إذاً كل هذه الأشياء الآن ، لأننا لا نريد حرباً أخرى لأريد سفك المزيد من الدماء بيدي بأيدينا هذه »

وجد الجنرال ر أن من الصعب عليه متابعة خطابه . تبدد منه القلق حين نظر في وجوه هؤلاء الناس . كان يعلم أنهم خلفه ، وانه في حديثه عن التغيير كان يتحدث باسمهم . اختفى الوجه الساخر للأب جاكسون . تابع الآن خطابه بصوت هادئ رزين .

« الآن لم تمض سنوات عديدة على ذلك اليوم الذي شق فيه كيهيكا بجبل على إحدى الأشجار هنا . لقد جئنا كي نحبي ذكراه ، ذكرى ذلك الإنسان الذي مات دفاعاً عن الحقيقة والعدالة . نحن . رفاقه .

نحب أن نزيح الستار أمامكم جميعاً عن حقيقة موته حتى تأخذ العدالة مجراها . يقال . وأنا واثق أنكم جميعاً تعرفون القضية هذه ، بأن كيهيكا قد اعتقل على يد قوات الأمن . ولكن هلا توقفتُم وسألتُم أنفسكم بضع أسئلة ؟ هل اعتقل في معركة ؟ لماذا كان بمفرده ؟ لماذا لم يكن يحمل السلاح ؟ أنبئكم بالخبر اليقين ؟ في تلك الليلة كان كيهيكا في طريقه لمقابلة إنسان ما — وهو الذي خانهُ .

توقف عن الكلام ليفسح المجال لكلماته أن تتغلغل في النفوس . تلفت الناس بعضهم إلى بعض وبدأوا المهمة . كانت المسرحية أكثر إثارة حتى مما توقعوا .

— « تابع » صاح إنسان ما .

— « كلنا آذان مصغية » ارتفعت عدة أصوات معاً .

تابع الجنرال ر .

— « قد يكون الإنسان الذي غدر بكيهيكا موجود هنا الآن ، بين صفوفكم . لذلك نطلب منه أن يتقدم إلى هذه المنصة ويدلي باعترافاته أمامنا جميعاً تكفيراً عن ذنبه » .

تلفت الناس هنا وهناك ليروا ما إذا كان سيتقدم إنسان ما . انتظر الجنرال ر مستمتعاً بالتوتر . هاهي المسرحية الآن تتجلى للعيان كما تصورها . وعلى الرغم من أنه كان بعرب المكان الذي يجلس فيه

كارانجا فانه لم يكن بوسعه أن يراه . كان الجنرال قد طلب من موارد
والملازم الأول كويناندو ألا تغيب أعينهما عنه .

— « يجب ألا يتصور أن بإمكانه الاختباء » تابع الجنرال ر .
« لأننا نعرفه . كان صديق كيهيكا . وكانا يأكلان ويشربان معاً » .

— « هيا وانطق اسمه » صاح غيشوا واقفاً .

بينما تعالت صيحات حادة بين زمرة من الناس متعطشين للثأر تقريباً .

— « إنني أمنحه الفرصة الأخيرة . فليقدم كدليل على تكفيره » .

فجأة كف الناس عن الدلمة والصراخ . جلسوا متوترين ، والعيون
كلها تلفتت في الاتجاه نفسه لرؤية الرجل الواقف . كان رجلاً طويلاً ،
مهيباً ، بيد أن القريبين منه لاحظوا الاضطراب على وجهه . لم يكن قد تنبه
إنسان للدخول ميوغو المسرح . كان يرتدي سترة قلدة ويتنعل خفياً
مصنوعاً من كاوتشوك شاحنة عتيقة . إنه ميوغو ، همس أحدهم .
انتشرت الهمسة وأصبحت أعلى صوتاً . صفق الناس . صاح الناس .
هاقد جاء الناسك أخيراً كي يتكلم ، نسي الناس المسرحية السابقة .
زغردت النساء الزغاريد الخمس بصوت عال للابن المظفر . غضب
الجنرال ر من ميوغو لأنه أفسد ذروة المسرحية الأولى . هل يهرب
كارانجا ؟ لم يكشف الجنرال ر عن غضبه بل ترك مكبر الصوت مباشرة
لميوغو . انتظر الناس أن يتحدث ميوغو .

« لقد سألتكم عن يهوذا » بدأ حديثه . « سألتكم عن الرجل الذي أودى

بكيهيككا إلى هذه الشجرة هنا . ذلك الرجل يقف أمامكم الآن . لقد

زارني كيهيكا ليلاً ووضع حياته بين يدي وأنا بعثها للإنسان الأبيض .
وبقي هذا الأمر ينحصر لي عيني طيلة هذه السنوات .
كان في أثناء ذلك يتكلم بصوت واضح . متوقفاً عند نهاية كل
جملة . ولكنه حين أوشك على النهاية وهن صوته وخفت حتى وصل
إلى مستوى الهمس . « الآن ها أنتم تعرفون » .
حتى الآن لم يقل أحداً شيئاً بعد . ولم يقل أحداً شيئاً حتى بعد أن
ابتعد عن المنصة . والناس دون أي تحرك ظاهري منهم أفسحوا له الطريق .
أطرقوا برؤوسهم وتحاشوا النظر في عينيه . بكت وانجيكو . (لقد كان
وجهه هو ما أبكاني وليست ذكرى ولدي - هكذا قالت لمومي فيما
بعد) . فجأة نهض غيثوا من زاويته ولحق بميوغو . ضحك ورفع إحدى
عكازيه مشيراً بها إلى ميوغو وصاح : « دجال - ذئب في ثياب حمل » .
وشهر بميوغو واصفاً إياه بأنه أفاك وتحدهاه إلى التزال . « انظروا إليه ،
انظروا إليه - ذلك الإنسان الذي حسب بأنه سيكون زعيماً لنا » .
وقهقه ضاحكاً . قهقهات غيتوا وصوته زادت من حدة الصمت المطبق
الذي كان يخيم على السوق . ثابر الناس على الجلوس برؤوس منكسة
للدقيقة أو ما يقاربها بعد مغادرة ميوغو وغيثوا . ثم وقفوا وبدأوا يتحدثون
وهم يتتبعون في اتجاهات شتى ، وكأن الاجتماع انتهى باعتراف ميوغو .
خبا ضياء الشمس وطفقت الغيوم تتلبذ في السماء . تخلف عن الانصراف
نايامو ، واروي ، والجنرال ر وحفنة من الكبار الآخرين ، لاستكمال
دقيوس القربان قبل هبوب العاصفة .

كارانجا

ولكن المطر لم يهطل بغزارة فيما بعد . كان رذاذاً متواصلاً
لم يتغير في تسارعه أو في حجم قطراته . وبدأ أن المنطقه برمتها ستعيش
يوماً من أيام الرذاذ القارص الذي كان يهيم بلا انقطاع . في أمثال
هذه الأيام لم تكن تشرق الشمس ولا تغرب بتاتاً . وتستعصي عليك
معرفة الزمن إذا كنت بلا ساعة .

كان كارانجا في كوخ أمه في ثاباي يحشو بعض الثياب في حقيبته .
ألا تريد مني أن أحضر لك كأساً من الشاي ؟ سألته أمه للمرء
الثانية . كانت تجلس على كرسي قرب الموقد . كانت منحنية للظهر
ضعف انحنائه الطبيعي . متكته إلى الأمام تسند ذقنها ويديها على ركبتيها
المطوية . لقد هزمت وايريمو وغارت عيناها ونثاً فكها . كانت تراقب
بعينيهما الآن حركات ابنها الخرساء عند الباب .

— لا . قال كارانجا بعد برهة صمت كأن الكلام والحديث
يؤلماناه .

— إن المطر يهطل في الخارج . فنجان من الشاي بدفء أحشاءك —
بما أنك تقول بأنك لن تمضي الليلة هنا .

— قلت لك من قبل بأنني لأريد شيئاً — ولا أي شيء آخر ، قال
وارتفع صوته بغضب واضح . كان الغضب الذي يوجهه كارانجا
إلى وايريمو أقل من الغضب الذي يوجهه في الواقع إلى الحقيقة التي
يحملها في يده ، إلى الكوخ المظلم بالدخان ، إلى الرذاذ في الخارج ،
إلى الحياة والأشياء بشكل عام .

— على رسلك ! كنت أتحدث وحسب ، قالت وايريمو بصوت
مشحون بالتراجع . لم يكن فهم تلك العلاقة بين كارانجا وأمه من الأمور
السهلة . كانت الزوجة الثالثة من بين الزوجات الأربع اللواتي اقتنأهن
والد كارانجا لإسرافه في دفع مهر العروس على شكل ماعز وقطعان .
لقد تزوجهن ، نعم ، ومن ثم تركهن لشؤونهن الخاصة . لقد ابتنى
لنفسه كوخاً يبعد ميلاً عن كوخ زوجاته ، مراعيّاً نفس البعد في
العواطف والمعونة عن كل واحدة منهن ومن أولادهن . كان يزور
كل زوجة بدورها ليغرس فيها طفلاً وينسحب إلى كوخه بعد ذلك .
مات كل أبناء وايريمو أثناء الولادة إلا كارانجا الذي بقي منهم على
قيد الحياة كدليل مادي وحيد على زيارات بعلمها المفاجئة لمخدعها . كانت
وايريمو تعتقد الآمال الكبار على ابنها وتعول عليه بعد أن تبلغ مرحلة
الشيخوخة . بيد أن كارانجا أبدى منذ نعومة أظفاره ميولاً لم تكن تنم
عن الحصال السوية لابن مجد . كان يغني ويعزف الغيتار ويطارد النساء .
« يجب أن تكف عن اللعب بتلك الآلة » كانت تتذمر وايريمو .

« يجب أن تقوم بعمل مفيد » كثيراً ما كانت تقول له وهي تهدده بكسر الغيتار أو إحراقه . لطالما تشاحرا . ولكنها في تلك اللحظات البادرة التي كان يظهر فيها التألف بين الابن والأم . كانت برفق تروى له إحدى القصص تبين له فيها مصير كل إنسان كسول . لقد كان كارانجا يتذكر أمه أكثر مايتذكرها من خلال تلك القصص . وفي أوقات الكروب كان يتوق إلى أمه .

« ذات مرة من زمن بعيد » كانت تبدأ قصتها ، « كانت هنالك امرأة فقيرة وليس لها إلا صبي واحد . أرادت انجوكي — لأن ذلك الاسم كان اسمها — أن يتأكد ابنها أنهما فقيران وأن حصولهما على مايتبلغان به من طعام لا يكون إلا بالعمل المضني . كان ابنها يستيقظ كل صباح ويلمع حذاءه ويكوي ثيابه بعنايه ويمضي إلى أترابه في الحوانيت والشوارع . وكان يعود في الأمسيات بصحبة زمرة من الشباب والشابات ويطلب من أمه تقديم الطعام لهم . كانت انجوكي امرأة سخية وتحب حضرة الشباب في بيتها . فكانت تقدم لهم الطعام وتروي لهم القصص . ولكن حزنها كان يزداد يوماً بعد يوم لأن ابنها لم يكن يحمل مجرفة أو ساطوراً ويمضي بها إلى المزرعة . ولكنها كانت تحفي حزنها عن ابنها كي تتفادى إرباكه أئداء وجود الناس في البيت . كانت انجوكي امرأة طيبة القلب وكان الناس دائماً يطرون كرمها وكدها ، مما كان يدخل البهجة على قلب الابن لأنه كان في الواقع فخوراً بأمه حتى إن الناس دعوه بابن انجوكي .

في أحد الأيام عاد إلى البيت برفقة ثلاثة من أصدقائه المقربين من قرية بعيدة . لقد زارهم عدة مرات وكانوا دائماً يفرقونه بالطعام والشراب . وتحدث إليهم بدوره عن بيته ووعدهم مراراً بوليعة مماثلة إذا ردوا له الزيارة . ولذلك طلب من أمه أن تولم لهم . أشعلت انجوكي ناراً زكية وفرشت ستاراً نظيفاً على الطاولة . وجابت الصحون والملاعق بعد أن نظفتها . ثم عادت إلى المطبخ . كان ابنها في غاية المرح وتحدث لضيوفه عن أمه وطبخها . عادت انجوكي من المطبخ بثلاثة صحون وكان على كل صحن حذاء لاعم . ووضعت الصحون والأحذية فوق الطاولة .

« من المؤسف أنني لم أذهب اليوم إلى المزرعة » قالت . « لقد أمضيت اليوم بطوله ألمع هذه الأحذية وليس في بيتنا مايؤكل سواها » . نجل ابنها ولم ينبس ببنت شفة . في صبيحة اليوم التالي تناول ساطوراً ومجرفة وبقي يعمل في المزرعة إلى أن غابت الشمس .

— « آه ، أنا المقصود بتلك القصة » أجاب كارانجا . « حسناً سأذهب غداً معك إلى المزرعة » .

أثناء حالة الطوارئ شجبت وايريغو انضمام ابنها إلى الحرس القومي وتسلمه الرئاسة في القرية وأفضت له بذلك .

« لاتقف ضد الشعب يا بني . إن الإنسان الذي يتجاهل صوت شعبه لابد من أن يصل إلى نهاية وخيمة » .

ولكنها على الرغم من أنها كانت تخبجل من ممارساته فقد تشبثت به
لأن الصبي — كما كانت تقول — الذي يخرج من رحمك لا يمكن نمذه .
أنهى كارانجا حزم الأمتعة في الحقيبة . وبعدئذ . كفكرة لاحقة .
التفت إلى أمه .

— أما زال غيتاري هنا ؟

— فتش عنه في تلك الكومة القائمة في الزاوية .

لقد أغفل كارانجا غيتاره إلى هذه اللحظة . وكنت عن العزف
عليه نهائياً أثناء حالة الطوارئ . نقب ضمن كومة من الأواني المتكسرة
والقرع إلى أن وجد الآلة في التمر . كان الخشب متصدعاً . مكسوراً
بالغبار والسخام وتفوح منه رائحة الدخان . كانت أوتاره قد استرخت
وانقطع منها اثنان . حاول أن ينفخ عنه طبقة الغبار والسخام ، ثم
تخلّى عن هذه الفكرة . شد وترّاً أو وترين من الأوتار المسترخية . عبث
بالأوتار قليلاً . طنت الآلة دمة صاخبة لأن الغبار كان يتساقط
في القنب . سار إلى الباب . كان لا يزال الرذاذ ينهمر خارج الكوخ .

— إلى أين أنت ماض تحت هذا المطر ؟ سألت وايريمو . وقف
كارانجا عند الباب كأن السؤال قد صدمه . استدار حول نفسه ببطء ،
لمعت عيناه الكئيبتان بشكل طفيف . كان صدره يعلو ويهبط . كاد
أن يقول شيئاً ما حين دنحات عينيه نفثة من الدخان ، سعل قليلاً وتنحى
جانباً . التمعت الدموع في عينيه . لقد هربت منه اللحظة .

« لأعلم » أجاب . « لأنني عائد إلى غيثيما » أكمل بصوت حازم .
خرج وكانت حقيبته وغيتاره يتدليان على ظهره . لم تتحلحل وايويمو
من مجثمها قرب الموقد .

كان الرذاذ ينقر ويضرب الغيتار والحقيبة مما أفضى إلى سرعة تحلل
الغبار والسخام وانسيابهما إلى الأسفل . سار باتجاه موقف الحافلة في
المركز التجاري لثاباي ، والضباب الداكن يلته دون أن يلتفت بمنته
أو يسرة . وصلت حافلة إلى الموقف . أنزلت ركاباً ثم انصرفت
عائلة . مضى كارانجا بتلك الخطا الثابتة التي يخطوها إنسان ليس في
عجلة من أمره لبلوغ غايته . رأى مومي (لابد من أنها قد نزلت من
تلك الحافلة) تجتاز الطريق باتجاه القرية ، تحمي رأسها من المطر بمشع
واق . تسارعت دقات قلبه فجأة بما يشبه الشلل واستحالت إلى خفقان
سريع لم رأى مومي . ولما كانت تسير تحت رحمة الضباب والرذاذ
فأنها بدت في ذلك الوقت جميلة أجمل منها في أي وقت مضى .

ولكن أي له أن ينسى ذلك الاهتمام العميق الذي ظهر على وجهها
عندما انحنت فوق غيكونيو إثر سقوطه ؟ ها ، مادفع بكارانجا للعودة
إلى مهاوي الألم واليأس . ليتها رمقته بلمحة خاطفة ، مهما كانت
طفيفة ، لكان له أمل ما ، ولكنها بدت غير مدركة لوجوده بتاتاً .

كان قلب كارانجا لا يزال يخفق ، لم تلمحه مومي إلا بعد أن
أصبحت قيد أعملة منه ، فعقلت لسانها الدهشة وشهقت .

— كيف هي أحوال غيكونيو ؟ بادرها بالسؤال دون أن يعيره
اهتماماً كبيراً . خمّن بأنها قد ذهبت إلى المستشفى حين تغيبت عن
حضور الاجتماع .

— إنه على مايرام . قالت لي الممرضتان بأنه قد يغادر المستشفى
قريباً .

— بحثت عنك في الاجتماع . أردت أن أراك . كان في نيتي
شكرك على الرسالة .

— إنها ليست شيئاً ذا بال . لم تكلفني أيما جهد . ولكنك تجاهلتها
على مايلو .

— ماكنت أعرف وقتها عما كان ينطوي عليه هذا التحذير .
ظننت بأنك كنت تريدني رؤيتي .

— لا .

— أبدأ ؟

— لن أراك ثانية . تحادثا بسرعة تفادياً للرداذ .

— شكراً لك عل كل حال . قال بعد هنيهة صمت . أكانوا
يبغون قتلي ؟
— لا أعلم .

— أنا أعلم . أخبرني موارا بذلك .

— ومن موارا هذا ؟

— لأنه يعمل معي . عندها جاء ميوغو إلى الاجتماع -- .

— وهل جاء ميوغو إلى الاجتماع ؟

— نعم . واعترف -- .

— اعترف ؟

— أفلم تسمعي ؟ جاء إلى الاجتماع وأمامنا جميعاً نطق بها . يبدو عليه أنه رجل شجاع .

— أي نعم . وافقت وبدأت تبتعد عن كارانجا حين اسفاقت من هول الصدمة . إن المطر غزير وعلي أن أنصرف إلى البيت -- قالت .

— أفلا أستطيع أفلا يمكنني أن أرى الطفل لآخر مرة ؟

— أفلا تستطيع أن تكون رجلاً وتخليني وشأني يا كارانجا ؟ قالت بشكل مثير للمشاعر ، ومضت حالاً . بقي كارانجا يتطلع إليها وهي تسير إلى أن ابتلعها الضباب وأكواخ القرية .

— أي نعم . إنه رجل شجاع قال وهو يتطلع في اتجاهها . بل إنه أنقذ حياتي : فما السبب ؟

ثابر كارانجا في مسيره وتبلل رأسه وثيابه بالماء . وصلت حافلتان

واحدة إثر أخرى . كانت الحافلة التي تحمل اسم « المنفذ الضيق »
في المقدمة ، وفي إثرها مباشرة حافلة « الإنسان المحظوظ » .

— نيروبي ؟ سأله الجاني وقد تناول منه الحقيبة .

— بل غيشما ! قال وهو يشدد قبضته على حقيبتة .

— إذاً هيا بسرعة ، أسرع . وصفر الجاني حتى قبل أن يجد كارانجا
مقعداً له وبدأت تتحرك حافلة « المنفذ الضيق » . تم أدركتها حافلة
« الإنسان المحظوظ » وسبقتهما . وطفقت الحافلتان تتسابقان لاقتناص
الزبائن الواقفين في المواقف التالية .

« اضغط مدوسة البنزين ولتتحرق الحافلة » حض الجاني السائق
على زيادة سرعته . كانت كلتا الحافلتين تبغيان الوصول إلى نيروبي
كل منهما قبل رفيقتها بغية شحن الناص العائدين إلى بيوتهم من احتفالات
الاستقلال في المدينة .

وما هي إلا فترة قصيرة حتى وصلت الحافلة موقف غيشما .
غادرها كارانجا وتابعت الحافلة سيرها وقد تأخرت عن الحافلة المنافسة
قراءة نصف ميل . دخل كارانجا إلى استراحة على جانب الطريق .
كان المكان يغص بالناس تفادياً للمطر . أسند حقيبتة وغيتاره على الجدار
في إحدى الزوايا وجلس إلى طاولة شاغرة صغيرة . حينما جاء النادل
طلب منه كارانجا الشاي وفطيرة بمرق العجل . أسند رأسه بين يديه ،

مرفقاه على الطاولة وحدث في الفراغ . كان الذباب يتكوم فوق صدوع الطاولة المليئة بالرواسب الثقيلة للسكر المسود والزيت وفتات اللحم والبطاطا التنة . جاء الطعام ولكن رائحة المرق المسفوح أثارت في نفسه الإحساس بالحاجة للتقيؤ . دفعه جانباً ، ثم ارتشف بعض الشاي وحدث ثانية في الطاولة دون أن ينتبه إلى الذباب أو الرواسب على الصدوع . عند الباب كان الناس يدمدمون عن الاستقلال وجومو والمطر . كان كارانجا يقلب في ذهنه حوادث النهار ظهراً لبطن ، متوقفاً تارة هنا وتارة هناك ، عند أي خيط يفضي إلى نوع من الترابط المنطقي للأحداث .

تذكر بشكل سديمي ذلك الكابوس الذي خيم عليه في الاجتماع حين توجه الجنرال ر بندائه إلى الخائن كي يتقدم إلى المنصة . كان موارا يجلس إزاء كارانجا ، كما كان الملازم الأول كويناندو يجلس على بعد ياردات قليلة منه . كان يتبادل الاثنان النظرات المريبة فيما بينهما ويوجهانها فيما بعد نحو كارانجا . ولم يتيقن بأن كلمات الجنرال ر موجهة إليه إلا حينها فقط . وسرعان ما ربط بينها وبين تحذير مومي له . لو سار إلى المنصة لمزقه الناس بأظافرهم شر ممزق . طافت في ذهنه صورة عابرة لكل تلك الأيدي وهي تعمل تمزيقاً بلحمه . أفلم يكن هذا ما كان يخشاه حينما ارتحل ثومبسون عن البلاد ؟ كان مذعوراً من السلطة السوداء : كان يخاف أولئك الرجال الذين طردوا آل ثومبسون وكانوا يهددونه . فكر في الوقوف والإفضاء بانكاره العلني لأية مسؤولية له في اعتقال كيهيكا ، بيد أن الهلع سمره في الأرض

وظهر ذلك الرجل ، ميوغو ، الذي أزاح باعترافه العبء عن كاهل كارانجا . التفت موارا إلى كارانجا بعينين طافحتين بالحسد . « لقد أنقذك » قال موارا ومضى بعيداً على جناح السرعة .

حين فكر كارانجا بهذا أصابته رعدة لإرادية لفكرة ماكان من المحتمل أن يتعرض له لولا وصول ميوغو في الوقت المناسب . شاهد كارانجا ذات مرة ، حين كان صبياً ، كلاباً تمزق أرنباً . لقد مزقت الكلاب أطرافه وهروا كل كلب بقطعة تقطر منها الدماء . والآن تخيل كارانجا نفسه مثل ذلك الأرنب . ولكن لماذا أخشى الموت ، سأل نفسه ، وهو يتذكر العديد من الرجال ، الإرهابيين ، الذين ساهم بمصرعهم برفقة أفراد الحرس القومي بقيادة الضباط البيض ؟ وقتها ، بشكل ما ، لم يكن يشعر بالإثم . وحين كان يطلق الرصاص عليهم كانوا يبدو كالحيوانات أكثر مما يبدو مثل الكائنات البشرية . كانت هذه الممارسة في البداية لاثير فيه أكثر من رعشة ولكنها كانت تجعله يشعر بأنه إنسان جديد ، قسم من جبروت غير منظور يتمثل رمزه بالإنسان الأبيض . وبدأ بعد ذلك إدراكه لهذه السلطة ، لهذه المقدرة على التخلص من حياة كائن بشري بمجرد شذ الزناد ، يستحوذ عليه حتى صار ضرورة بالنسبة إليه . هاقد مضت تلك السلطة الآن . ومومي نبذته في خاتمة المطاف . فلأي سبب إذاً أنقذ ميوغو كارانجا ؟ رشف رشفة أخرى من الشاي . لقد أصبح الشاي بارداً فنحاه جانباً . كانت الحياة فارغة فراغ الظلمة وفراغ الضباب اللذين يغلفان الأرض .

فدفع ثمن الوجبة التي لم يأكلها وتناول حقيبتة وغيتاره ومشى باتجاه الباب .

« يا صاح » ناداه النادل « خذ ، لقد نسيت بقية الحساب » .

استدار كارانجا ، أخذ النقود ودون أن يعدها غادر الاستراحة . حتى إنها لم تسمح لي برؤية الطفل ، فكر بأسى ، وهو يتخذ طريقه إلى غيثما . لماذا أريد أن أرى الطفل هذا اليوم ؟ لم تخالجه مثل هذه الرغبة من قبل . اندفعت سيارة قربته وكادت تدهسه . تنحى جانبا ولكنه اقترب أكثر من ذي قبل من الجرف وكاد يلامس السياج الشائك على غير دراية منه . هاقد مضى ثومبسون ، هاقد فقدت مومي . كان فكره يقفز من فكرة إلى أخرى دون أي ترابط منطقي . كانت الأحداث في حياته تقفز فجأة ثم تختفي . ماذا لو كان كيهيكا حيا وظهر أمامه الآن على الطريق ؟ أجفل كارانجا وأصابه الهلع من السياج ومن الظلمة .

تضاءلت قطرات المطر واستحالت إلى رذاذ خفيف متقطع . تبللت ثيابه والنصقت بجسده بشكل ثقيل . لقد مضى لرؤية كيهيكا مترجحا على إحدى الأشجار . فتش في قلبه عن الشفقة أو الأسى الذي يشعر به الإنسان حين يفقد صديقا . لم يجد ، بدلا من ذلك ، إلا القرف : كان الجسد شنيعا ، كما كانت الشفتان اليابستان ، حيث كانت تراقص حولهما بضع ذبابات ، قبيحتين . ماهي الحرية ؟ كان كارانجا قد سأل نفسه وغتها . هل الموت بتلك الطريقة يعني الحرية ؟ هل الذهاب إلى

المعتقل يعني الحرية ؟ هل أي ابتعاد عن مومي يعني الحرية ؟ وسرعان ماباح بالسر بعد هذا وانضم إلى الحرس القومي بغية إنقاذ حياته الخاصة . أول مهمة نفذها كانت ارتداء البرنس . البرنس — وهو بمثابة كيس أبيض — كان يغطي كل جسده باستثناء العينين . وخلال عمليات التفتيش كان الناس يدرون في أرتال أمام الإنسان المتجلب بالبرنس . كان مثل هذا الإنسان ، بهزة من رأسه ، ينتقي أولئك الناس المتورطين مع الماو ماو .

إنها الذات المتسرבלة بالبرنس هي ما كان يراها كارانجا أمامه الآن ، بشكل نابض بالحياة ، من خلال الظلمة . كان بوسعه تقريبا أن يلمس الثقبين اللذين كان الإنسان داخل ابرنس يرى العام من خلالهما . ليس هذا إلا صورة في الدهن ، طمأن نفسه . كان الآن على مقربة من مفترق سكة الحديد . سمع قطاراً يدمدم من بعيد . تذكر السباق إلى القطار . اقتربت الدمدمة وازدادت جلبتها . ذات يومُ جمع الناس من القرى . في محطة رونجي لإجراء عملية التفتيش . مروا أمامه واحداً واحداً ، وتعرف كارانجا — وهو داخل البرنس — على العديد من الناس واستمتع بفكرة عدم تمكن أي فرد بينهم من معرفته . زحل المشهد فجأة إلى اجتماع عصر ذلك اليوم . « يبدو إنه إنسان لا يخلو من الشجاعة » فكر بينه وبين نفسه . وهي وافقت على هذا أيضاً . برزت أمامه صورة ميوغو على المنصة — كالشبح — واختلطت بصورة

المتسربل بالبرنس . وقف كارانجا قرب المفرق ، متفكراً بالعيون
العديدة التي كانت تحديق بميوغو في الاجتماع . أصبح القطار الآن
قريباً جداً حتى إنه سمع صريف العجلات على القضبان الحديدية .
شعر بذلك الصريف في لحمه ، شعور مماثل خالجه ذات مرة في محطة
رونجي من زمن بعيد . أصبح الآن مدركاً أيضاً للعيون العديدة الغاضبة
وهي تراقبه في الظلمة . كان القطار على بعد ياردات قليلة من المفرق .
خطا خطوة إلى الأمام . تهست عبره الأنوار والآلة والعربات التي
كانت في غاية القرب منه بحيث أن هواءها قذفه إلى الخلف . مادت
الأرض تحت قدميه . وحين اختفى القطار ، تعمق الصمت المطبق الذي
كان حوله ، وبدأ الليل مدلهماً أكثر مما مضى .

* * *

ميوغو

كانت مومي تريد أن تركض وتمشي وتسلم جسمها للرذاذ - كله في وقت واحد . فهرولت وهي تلهث تحت وطأة عبء ما كان لها سبيل لإزاحته عنها . إن نبالاً اعتراف ميوغو كان له عليها وقع الخاتمة لعصر يوم مثقل بالأحداث . ففي مستشفى تيمورو لم ينس غيكونيو بنت شفه ولم يعر وجودها اهتماماً . « يعتقد بأنني أتملق إليه كي يرجعني » قالت لنفسها بمرارة وهي تراه يطبق جفنيه ويشيح بوجهه بعيداً عنها متظاهراً بالنوم لدى وصولها . « ولكنني لست عائدة إلى بيته حتى لو ركع أمامي » . عقدت عزمها على ذلك . وحين وصلت مومي مبتلة إلى البيت وجدت مبوغوا وانجيكو ناعسين صامتين قرب الموقد ، وأما الطفل فقد كان نائماً على أرض الكوخ . كان الدفء في داخل الكوخ نقيضاً بهيجاً للوحل والضباب والرذاذ في خارجه . استبدلت مومي ثيابها المبللة دون أن تقول كلمة ما . ساقاها قلما تقويان على حملها .

— كيف حاله ؟ بادرتها وانجيكو بعد أن جلست .

— « لن أعوده ثانية » . انفجرت بلهجة شملت أمها وأباها وكل

الأشياء الأخرى التي كانت تعترض سبيلها دائماً في بحثها عن الطمأنينة بين الركام والأنقاض . « حتى لو سمعت بأنه على فراش الموت » .

— « تطرفي إلى هذه الأمور برفق » عنفتها وانجيكو بكلماتها هذه التي كانت تقارب حد السخرية . « أمتال هذه الكلمات لاتقال في هذا البيت . ويجب أن تتذكري بأنه سيبقى زوجاً لك مادام لم يسترجع مهره » .

— لن يكون زوجاً لي مطلقاً .

— صه !

وتلريخياً خففت وانجيكو من غلوائها إلى أن وافقت مومي على العناية بغيكونيو مادام نزيل المستشفى .

« إن الإنسان المريض لا يترك وحيداً في المستشفى . حتى الخصم يجب إنقاذه من الخطر . وبالإضافة إلى ذلك ليس عليك أن تذهبي بمفردك إلى تيمورو . فهناك وانغري ، امرأة ليس لها نظير في الدنيا ، في كدها ورقة قلبها » .

شعرت مومي بحاجة الآخرين إليها مرة أخرى . فأصغت إلى وانجيكو التي حدثتها عن ميوغو وعن الاجتماع بالتفصيل . استمر ميوغو في تنكيس رأسه من شدة النعاس قرب النار ، وقد أصبح هرمماً لا يتكلم في هذه الأيام إلا حين يعود كاريوكي إلى البيت في

عطلاته المدرسية . سمعت مومي القصة بأكملها وشعرت بأن عليها أن تفعل شيئاً ما . وماذا بوسعي أن أفعل ؟ واجهت شعورها بهذا السؤال الذي كانت تعلم أن ليس بمقدور أحده إجابتها عليه . جعلتها النار تشعر بوطأة النعاس . كانت منهكة من التعب وتوصل الإنهاك إلى أطرافها ، إلى كتفيها ، إلى رأسها وقلبها ، يلدس نفسه في كل مفصل من مفاصلها . كم تأقت أن تتلطأ خلف أمها العجوز وتشعر ببعض العزاء . ماذا بوسعي أن أفعل ، تساءلت ثانية . أصغت إلى الضجة المخنوقة للمطر المتساقط فوق سقيفة القش وأسلمت نفسها لذلك الإرهاق الذي خيم عليها وكأنما ليعفيها من حاجة التصرف العاجل . بقيت مومي في مقعدها سلبية في روحها وجسدها خيال كارثة وشيكة أحست بها بعينيها وأذنيها . « سأرى ميوغو غداً . لقد كان موجوداً أيضاً ولذلك فانه يعرف » . أغرت نفسها أن تندس في الفراش على أرض الكوخ قرب طفلها . « الظلمة حالكة والمطر غزير » .

نهضت مومي و وانغري باكراً وذهبتا معاً إلى المستشفى . استوى غيكونيو في جلسته بسريره . كانت ذراعه ملتفة بالجبس .

أنحبرتا عما دار في الاجتماع وعن الاعتراف المدهل الذي أدلى به ميوغو . أصغى للقصة مطرق الرأس بعض الشيء .

لاحظت وانغري ومومي أن غيكونيو بدأ يرتجف بشدة حتى إن الأغطية التي كان يتدثر بها طفقت تهتز لاهتزازة .

ماخطبك ؟ سألته أمه وهي تظن بأنه يرتجف من شدة الألم في ذراعه . لم يبد على غيكونيو أنه سمع سؤال أمه . كان شاخصاً ببصره إلى الجدار المقابل ، إلى شيء يقع خارج حدود المستشفى . وبعد صمت طويل التفت غيكونيو إلى المرأتين . كان أكثر هدوءاً. لقد تبدلت ملامح وجهه الصارمة وانفجرت أساريره قليلاً . لقد ولى العبوس . وحين استهل الكلام كان صوته خافتاً خاشعاً مشوباً ببعض الخجل . « لقد كان رجلاً شجاعاً في سريره » قال . « لقد صمد في وجه ما أغدق عليه من مغريات الشرف والثناء . كان من الممكن أن يكون زعيماً . أخبراني عن إنسان غيره يكشف عن مكنونات نفسه أمام جميع العيون كي تتوجه إليه بالتقريع » . صمت وسمح لعينيه أن تدغدغا مومي ، ثم أشاح ببصره بعيداً وقال : « يجب أن تتذكرا أن من كان يحق لهم أن يرفعوا حجراً على ذلك الرجل ليسوا إلا قلة قليلة بين أولئك الحضور كافة . وليس بإمكانهم أن يفعلوا ذلك قبل أن أفتح أنا ، بل نفتح جميعاً مغاليق قلوبنا وتكشف عارية أمام الدنيا بأسرها كي تنظر فيها » .

حين سمعته مومي يتحدث بهذا الشكل شعرت بأنها تجنح فوق الغيوم ومن ثم تنشد عائدة إلى الأرض بدعرا شديداً . « كان علي أن أذهب إليه قبل مجيئي إلى هنا » خطرت لها هذه الخاطرة .

حالما عادت مومي إلى ثاباي اندفعت إلى كوخ ميوغو وفتحت الباب على مصراعيه . وجدت كل شيء على حاله كما تركته في

تلك الليلة . كان من الواضح أن النار لم توقد في الكوخ منذ يوم أو يومين . كان السرير بحالة فوضى يتدلى منه على الأرض دثاره المهترىء وتنتأ منه خصل الهلنب . أغلقت مومي الباب خلفها وهرعت تطلب الجحرال ر في كوخه . وجدت الكوخ مقفلاً . « حسناً سأعود غداً » .

عادت مساءً ولما لم تجد أي أثر للنور في كوخ ميوغو بدأت تتلمس طريقها وسط الظلمة ونادت مذعورة بأعلى صوتها « ميوغو » . ليس من جواب « أين مضى . أين مضى الناس كلهم ؟ » تلفتت حولها مترجعة صوب الباب . لم تكن تبغي أكثر من دليل واحد ، أي دليل يكذب لها الأجوبة التي كانت تتصارع في سريرتها — كأصداء لاتعد ولا تحصى ترجع كلماتها ومخاوفها وسط الظلمة . فتحت الباب ، دب في كيانها الدعر أكثر من ذي قبل ، وطفقت تلعو تلك المسافة بطولها ، تحت الرذاذ وفي الدروب الزلقة ، إلى بيت ذويها .

على الرغم من أن مومي لم تكن مدركة للحقيقة ، فإنها قد أعادت تمثيل الحركة نفسها كما مثلتها في تلك الليلة التي تركت فيها ميوغو في كوخه بمفرده . الفارق الوحيد كان وجود النور وقتها في الكوخ مما أتاح لميوغو أن يرى على وجهها ما ترجمته بأنه احتقار ورعب . بقي واقفاً لمدة طويلة يحملق في المقعد الذي تركته لتوها . فيما بعد أغلق الباب ، أطفأ النور واتجه إلى سريريه . استلقى على السرير ملر كاً بأنه قد فقد شيئاً ما . ولمع من خلال الظلام ، مرات عديدة ، ذلك

الاحتقار الذي كان على وجه مومبي ، وسرت في كيانه رعدة ما كان
لكبتها سبيل لديه . فلماذا كان ماتتصوره مومبي عنه هاماً بالنسبة إليه
الآن ، هذه الليلة ؟ لقد كانت قيد أنملة منه . لقد تمكن من رؤية وجهها
والشعور بتفسيها الحار . لقد جلست هناك وتحدثت إليه وأعطته لمحة
عن عالم جديد . لقد محضته الثقة واطمأنت إليه . هذه الثقة البسيطة هي
ما أجبره على الإفصاح لها بالحقيقة . لقد انكفأت عنه . لقد فقد ثقتهما
إلى الأبد . بالنسبة لها الآن ، كما حاكم الأمر ورأى وشعر ، أصبح
يمثل الخسة والحقارة بعينهما .

وفجأة سمع أهالي القرية حول كوخه يهزجون أهازيج الاستقلال .
كانت كل كلمة مديح تحمل إليه سخرية نافذة . فما الذي فعله من
أجل القرية ؟ ما الذي فعله لأي مخلوق ؟ ومع ذلك فانه بدأ الآن يرى
هذه الثقة التي لا يستحقها في ضوء جديد وكأنها أحلى مافي الوجود .
ستخبرهم مومبي ، تصور لنفسه . وبدأ يشاهد الاحتقار والرعب ،
ليس على وجه مومبي فحسب ، بل على وجه كل إنسان في القرية .
هذه الصورة النابضة بالحياة في ذهنه جعلته يضطرب ذعراً .

قلما غمض له جفن تلك الليلة . كانت صورة مومبي تختلط بصورة
القرية وصور معسكرات الاعتقال . كان يحدق بصورة مومبي وسرعان
ماتستحيل إلى صورة عمته أو صورة المرأة العجوز .

استيقظ باكراً وشعر بطمأنينة عجيبة . خيمت عليه السكينة

طيلة الصباح . لقد تبددت تلك الصور المعذبة لليلة السابقة فأصيب
لغيابها بالذهول . فكيف تجد السكينة لنفسه سبيلاً في الوقت الذي كان
يعلم فيه ماهو مقدم عليه ؟

ومع ذلك فحين حانت اللحظة ورأى الحشد الكبير بددت له
الشكوك كل تلك السكينة . وجد الجحرا ل ر يقف خطيباً وهذا ما ذكره
بكارانجا . لماذا لا أترك كارانجا يلقي الملامة ؟ ولكنه استبعد هذا الاغراء
واعلى المنصة . وإلا فكيف يستطيع أن ينظر في وجه مومبي بعد اليوم ؟
بدأ قلبه يخفق في أحشائه ، شعر بالعرق يتصبب من يديه وهو يسير
ضمن ذلك الجمهور الكبير . ارتعشت يداه وما كانت ساقاه ثابتتين
على الأرض . كان كل شيء في ذهنه واضحاً وحاسماً . لسوف يقف
هناك ويعترف بالجريمة أمام الملاء . تشبث بهذه الرؤيا . لاشيء ، حتى
الشتافات والأهازيج والمدائح ، يمكن أن يثنيه عن عزمه في تحقيق هذا
الهدف . لقد كان وضوح هذه الرؤيا هو ما بث فيه الشجاعة حين
وقف أمام مكبر الصوت وأمام ذلك الصمت المطبق . وحالما صدرت
منه أولى الكلمات شعر ميوغو بالخفة . هاقد انزاح عن منكبيه عبء
سنوات عديدة ، لقد أصبح حراً واثقاً مطمئناً .

ولكن لمدة دقيقة ليس إلا .

ما أن أنهى كلامه حتى تحول الصمت الذي حوله والخفة التي
بداخله والحرية المفاجئة ، إلى عبء ثقیل على نفسه . تشوشت نخوم

رؤياه ، وسيطر عليه الملح حين نزل عن المنصة وسار بين صفوف الناس الذين ران عليهم الصمت الآن . لقد كان في أتم الإدراك لنفسه ، لكل خطوة خطاها ، لكل تلك الصور التي اندفعت إلى ذهنه وبدأت تتلاطم فيه على شكل نسق واحد متواصل : هاقد أصبح مسؤولاً عن كل مافعله في الماضي ، وعن كل ماسيفعله في المستقبل . هذا الإدراك بث الذعر في نفسه . لاشيء الآن ، وفي هذه الدقيقة ، يجعله يعود إلى ذلك المكان . ماذا لو قام كل أولئك الناس وغرزوا أظافرهم وأسنانهم في جسده ؟

تحولت هذه الخاطرة في ذهنه إلى حقيقة . لم يدخل كوخه . سسع ضحكة غيثوا وشعر بأنه مطارد . ماكان يريد أن يموت . أراد أن يعيش . جعلته مومبي مدركاً لخسارة كانت مجرد احتمال أيضاً . لطا خارج كوخه واختلس النظر فيما حوله : إلى القرية ، إلى مركز كابوي التجاري وإلى الطريق الذي يمتد خلفه . هل سيقوم الناس ويأتون إليه ؟ لاحظ أن الغيوم بدأت تتلبد في السماء . ربما عليه أن يهرب من القرية قبل هطول المطر . بدأ المسير باتجاه الطريق . سارباردات قليلة وتصور بأنه قد يقابل بعض الناس القادمين من رونجي . سيسلك الطريق الآخر ، عبر القرية ، ويصل إلى الشارع الآخر الذي يسير في اتجاه نبروي . وهناك سيبدأ حياة جديدة .

بعد أن صمم على هذا هرع إلى شارع القرية الرئيسي الذي كان يسلكه دائماً في طريقه إلى المزرعة . ولكن هاقد بدأ الناس يتقاطرون إلى القرية بعد أن انفض الاجتماع . سرعان ماسوف تعج الشوارع

والأكواخ بالناس ولن يتسنى له بعدها الخروج . عجل في خطاه .
واجه الآن كوخ المرأة العجوز . بدأ يتحرق برغبة لدخول الكوخ
وشعر برغبة لاتقاوم لدخوله ورؤية العجوز الآن لآخر مرة . ولكنه
قرر أن يمضي قبل هطول المطر وحلول الظلام .

داهمته قطرات المطر الأولى قبل أن يتحرك بضع خطوات .
من الأفضل له أن يحاول اتقاء المطر ، فكر لنفسه . إذا كانت العجوز
في الكوخ أفلاته طيع أن تخفيه ، بشكل ما ، حتى ساعة حلول الظلام حيث
تتمكن وقتها من التسلل خفية ؟ قلص خطواته ، عبر الشارع ،
وكبت نداء قوياً كان يحضه على الابتعاد مباشرة ودخل الكوخ .
كانت العجوز تجلس قرب الموقد الخامد وقد دفنت قدميها في الرماد .
رفعت رأسها ببطء لدى دخوله . كان لعينيها في الكوخ المعتم قليلاً
بريق عجيب

— أنت — هاقد عدت ! قالت وقد تغضن وجهها بابتسامة نصف
جامدة بفعل شيء ليس من هذه الدنيا .

— نعم ، قال وجسده يتحرق شوقاً للهرب ولكنه كبت هذه الرغبة أيضاً .

— « كنت أعلم بأنك ستعود ، كنت أعلم بأنك ستعود كي
تأخذني إلى البيت » . كانت تبدو مهيبة في غببتها . حاولت النهوض
ولكنها عاودت الجلوس مترنحة في مقعدها . قامت ببطء مرة ثانية .

« بقيت أنتظرك طيلة هذه السنين — عرفت بأنهم لم يقتلوك بالفعل — هؤلاء الناس ، أتعلم بأنهم لم يصدقوني حين أخبرتهم ، وحين أخبرهم بأنني رأيتك ؟ »

سارت صوبه . ولكن ميوغو لم يكن مصغياً لجمجمتها الوحشية لأن وجهها سرعان ماتبدل فجأة . حلق ميوغو مباشرة في عيني عمته . هزه غضب جديد . ليست الحياة إلا تكراراً متواصلاً لما حدث البارحة وما قبل البارحة . ولكنها لن تفلت منه هذه المرة . لسوف يضع حداً لتلك الابتسامة الماكرة وذلك البريق الساخر في عينيها . ولكنه قبل أن يستطيع حراكاً تعثرت العجوز وعادت إلى مقعدها . كانت الابتسامة لا تزال مرسومة على وجهها . لم تتحرك ولم تقدم على أية حركة طفيفة . وأدرك فجأة : الشخص الوحيد الذي كان مديناً له هاقد مات . طمر وجهه يديه ووقف هكذا لبضع ثوان .

. بعدئذ أغلق الباب خلفه وانصرف تحت الرذاذ المنهمر . لم يكمل كما خطط من قبل . بل بدلاً من ذلك مشى عائداً إلى كوخه . في الكوخ أشعل السراج وجلس على السرير . لم يترع ثيابه المبللة . حلق في الجدار قبالة . لم يكن أي شيء على الجدران : لا أطياف دماء ، لاخطوات مسرعة خلفه ، لا معسكرات اعتقال ، حتى مومي بدت كشيء غامض من عهد سحيق . كان بين الفينة والأخرى يربت على إطار السرير بشيء من الغضب . كان الماء يتقطر من شعره نزولاً

على وجهه وعنقه بخطوط متعرجة . تقطر الماء من سترته ، أيضاً بخطوط متعرجة ، نزولاً على ساقيه وعلى الأرض . علقت قطرة في جفنه الأيمن وتوزع نور السراج إلى أجفان عديدة صغيرة . غاصت القطرة بعد ذلك في أعماق عينه ، ذابت في داخلها وانسفت كالدمعة على وجهه .

لم يمسح عينه ولم يفعل أي شيء آخر .

سمع قرعة على الباب . لم يجب ميوغو .

انفتح الكوخ ودخل الجنرال ر يتبعه الملازم الأول كويناندو .

« لأنني على أهبة الاستعداد » قال ميوغو ووقف دون أن يتلفت إلى زائريه .

« ستعقد المحاكمة هذه الليلة » قال الجنرال ر بوقار . « وامبوي

سيكون القاضي . كويناندو وأنا سنكون الكبارين الوحيدين اللذين سوف يسمعان أقوالك . »

« أفعالك وحدها سوف تدينك » أكمل الجنرال ر دونما غضب أو مرارة واضحة . « أنت — ليس بوسع أي إنسان أن يهرب من أفعاله البتة » .

اقتاده الجنرال ر وكويناندو وخرجا به من الكوخ .

واروي - وامبوي

طمع واروي ببصره خارج الكوخ متحاشياً ذلك الفراغ الكثيب
في عيني وامبوي .

« مازال هذا الرذاذ ينهمر منذ يومين » علق قائلاً وقد حثه على

قول شيء ما ذلك القلق الذي كان يخيم على كوخ وامبوي . جلس
لاطياً قرب الباب وقد طمر يديه وقدميه تحت الدثار . وأما الأقسام
الوحيدة العارية من جسده فقد كانت تلك الرقبة التي طوقتها التجاعيد
وذلك الرأس الأشيب . كانت وامبوي تجثم قبالة ، تتلفت عيناها
الفارغتان إلى واروي بين لحظة وأخرى ، ومن ثم تسرحان نحو الضباب
والمطر خارج الكوخ .

« يمكن أن يدوم مثل هذا الرذاذ أياماً عديدة » قال بصوت كثيب .
وغرق كلاهما يتأملان بصمت صورة الأطفال المحرومين الذين
فقدت الحياة بالنسبة إليهم حرارتها ولونها وإثارتها . لم يكن ثمة نار
في الموقد . مزق من قشور البطاطا وقشور الذرة والحشيش كانت

تبعثر باهمال فوق أرض الكوخ وكأن الكوخ قد هجر لمدة يوم أو يومين . في ظل ظروف مغايرة كان هذا الوضع يذهل واروي أو أي زائر آخر لأن كوخ وامبوي كان واحداً من أكثر أكواخ القرية ترتيباً . لقد كانت تكتسب أرضه مرتين يومياً على الأقل ، كما كانت تنظف الأواني المنزلية التي كان لكل آنية منها مكانها المحدد في الرفوف المختلفة المبنية في الجدران . وأما بالنسبة للجدران الطينية فقد كانت مطلية بالمغرة (أكسيد الحديد) البيضاء التي جابتها من ويرو ، وكثيراً ما كانت تتفحص الصدوع كي تملأها في الحال وتعيد تجبير المناطق المهترئة . « ليس للإنسان أي مكان آخر إلا حيث يريح رأسه » هذا كان ردها الغامض على الاطراءات العديدة التي كانت تنهال على حسن ترتيبها . لم يكن واروي قد شاهدها منذ يوم القربان العظيم . فطيلة اليومين الأخيرين اعتزل الناس في ثاباي بعضهم بعضاً وتجنبوا ، بموافقة ضمنية عامة ، المناقشات العلنية حول يوم الاستقلال . كانت هنالك أمور تحير واروي ، أسئلة كان يبحث لها عن إجابات في سريره . وحينما أخفق في ذلك جاء لزيارة وامبوي . ومع ذلك فأنهما يتحادثان الآن كأنهما لا يعرفان عما يتحدث الآخرون ويشعران بالحنين من بعض الموضوعات في حضرة كل منهما .

— « ربما هذا البرد هو الذي قتلها » حاول ثانية .

— من ؟

— العجوز .

— « أي نعم » ! أجابت بشكل لاعلاقة له بالأمر وتنهدت .
« نسيناها جميعاً في ذلك اليوم . ما كان يجب أن نتركها وحيدة . كانت
عجوزاً . قتلتها الوحدة » .

— لماذا ماتت في ذلك اليوم ، أسأل نفسي دائماً . كانت تعيش
بمفردها أليس كذلك ؟

— « حينها كانت الحياة تضج حولها . الدخان وصخب الأطفال .
ولكن في ذلك اليوم . كلنا ذهبنا إلى الاجتماع ، كلنا بلا استثناء .
لم يكن ثمة دخان في أي مكان ، كما لم يكن هنالك تضاحك الأطفال
وصخبهم في الشوارع . كانت القرية خالية من الناس » . تحدثت
وكأنها تحبك قضية جدلية .

— ولكن لم في ذلك اليوم ؟ أصر واروي على شكوكه ، وبدا
أنه هو أيضاً منهمك في قضية جدلية في سريرة نفسه .

— « كانت تعيش العزلة ، ألا تسمع ؟ جاء ابنها إليها . غيتوغو
كان من أخذها إلى البيت في ذلك اليوم ، » اختتمت حديثها بحق
متوتر .

— « نعم . بدأت الأشياء تتغير في قرينتنا منذ ذلك اليوم الذي
بدأت ترى فيه أطياف الموتى » .

نظرت إليه وامبوي ولكنها لم تقل شيئاً هذه المرة .

« وفي ذلك اليوم » تابع واروي ، « يالذلك اليوم ! أولاً غيكونيو كسر ذراعه » . توقف فجأة وانضت إلى وامبوي . كانت تتطلع إلى الرذاذ في الخارج ، دون أن تعير اهتماماً لكلماته ، للتساؤلات التي في قلبه . وعندما نظر في الاتجاه نفسه رأى مومبي تبرز فجأة من قلب الضباب على بعد ياردات قليلة من الباب . دخلت مومبي الكوخ وقد تبللت قدمها بالماء وتلطخت بالوحل . كان الماء يتقطر من الكيس الذي كانت تغطي به رأسها وظهرها . خلعت الكيس ونفضته قليلاً قبل أن تعلقه على أحد الرفوف . قدمت لها وامبوي مقعداً عند الباب .

« الطقس بارد » قالت مومبي وهي تستجمع شتات نفسها ، وتهس وهي تستشق الهواء من خلال أسنانها المطبقة . « لست محظوظة اليوم . إن أمني توقد النار الآن في البيت ، لذلك هربت إلى هذا المكان لأنني أعرف أن النار دائماً مشبوبة هنا . انظروا ماذا وجدت » .

— هل ذهبت اليوم إلى المستشفى ؟ سألت وامبوي .

— نعم : كنت هناك مع حماتي . إنني أذهب كل يوم إلى هناك .

— كيف حال الذراع ؟

— إنها ليست مكسورة . مجرد خلع . قريباً سيخرج غيكونيو . « لا بد من أن أمراً ما جرى خطأ . . . » بدأ واروي ثانية ، متتبعاً أفكاره الخاصة على مهل . « لقد مضى كل الناس . قبل دقيقة

واحدة كان الملعب يعج بالناس ، كما في أيام هاري ، في المسيرة .
ثم بطرفة عين انصرف الجميع ، وأصبح الملعب خالياً تماماً . لم يبق
فيه إلا أربعة (أم هل كنا خمسة ؟) . ذبحنا الخروفين - وصلينا
من أجل قريننا . ولكنه كان كمداق الماء الساخن في فم إنسان عطشان .
لم يكن كما كنت أنتظر طيلة هذه السنوات » .

— « أنت تقول ذلك ، وكان الشيء نفسه بالنسبة لي ، بالنسبة
لأي إنسان . لم يخامرني الشك لحظة واحدة بأنه هو بأن ميوغو
هو من فعل ذلك » . ويجهد كبير نطقت وامبوي بالاسم الوحيد الذي
كانت تتحاشاه مع واروي . لم تقل مومبي شيئاً ، لهنية .

— « لم يلمحه إنسان منذ ذلك اليوم » أجاب واروي وكأن مومبي
قد توجهت بسؤال ما .

— « ربما أزلج باب الكوخ على نفسه » قالت وامبوي .

— « لقد ذهبت إلى هناك في الليلة الماضية . لم يكن الباب مقفلاً
أو مزجلاً من الداخل . ولم أجد أحداً في الكوخ » .

— لربما غادر القرية ، علق واروي .

— أو لربما كان في المرحاض حين دخلت الكوخ .

— ولكنني عدت إلى الكوخ هذا الصباح قبل ذهابي إلى المستشفى .

ريح خفيفة أمطرت وجوههم بوابل من الرذاذ . مسحت وامبوي

وجھها بظاھر یدھا . نكس واروي رأسه ومسح وجهه باليدان ،
بينما مالت مومي إلى الخلف كأنها تنوي تحريك مقعدها ولكنها لم
تفعل شيئاً . حافظ الجميع على جلستهم قرب الباب .

« ربما كان بمقدوري إنقاذه . ربما كان ذلك بمقدوري لو أنني
ذهبت إلى كوخه تلك الليلة » نددت مومي .

— عم تتحدثين ؟ سألت وامبوي بشكل عاجل وأشاحت ببصرها
بعيداً عن مومي .

— عن ميوغو .

— « لم يكن ثمة شيء يمكن إنقاذه » . قالت وامبوي ببطء .
« أسمعيني ؟ لم يكن بوسع أي إنسان إنقاذه . لأنه لم يكن
ثمة شيء يمكن إنقاذه » .

« ولكنك لم تري وجهه يا وامبوي ، لم تري ميوغو » قالت مومي
بصوت يغلب عليه الحماس . ثم خفضت صوتها وأكملت . « أقصد
الليلة السابعة للاجتماع . حينما أرسلتني لمقابلته — لقد تبدلت ملامح
وجهه وكأنه يعاني ألماً في سريرة نفسه — اعني — كان وجهه مختلفاً
حين أخبرني عن — » .

عن ماذا ؟ سألت وامبوي و واروي معاً . بدا هذا النبأ كأنه
يستأسر باهتمامهما .

- عن كيهيكا ، أخي .
- إذا كنت تعرفين ؟
- نعم هو أخبرني بذلك .
- « ربما كان عليك أن تخبرينا بهذا قبل الاجتماع » . قالت وامبوي بصوت ينم عن الاتهام . ثم تلاشى اهتمامها بهذا الأمر برمته .
- ما كنت أريد حدوث أي شيء . وماعرفت أبداً بأنه جاء فيما بعد إلى الاجتماع .
- « ذلك صحيح » ، وافق واروي ، وتابع سرد أفكاره بصوت ينم عن الحيرة وخيبة الأمل . « لقد خلدتني عيناه . ولكنني أسائل نفسي دائماً : لماذا فعل كل ما فعل في الخندق وفي المعتقل ؟ » .
- كانت مومبي هي الأولى بينهم التي انتشلت نفسها من هذا الاستبطان . قالت : « يجب أن أنصرف الآن . إنني واثقة بأن النار قد تأججت في موقدنا . وربما يجب علينا ألا نقلق كثيراً حيال الاجتماع و حيال ميوغو . يجب أن نعيش » .
- نعم ، علينا تعمير القرية ، وافقها واروي .
- « والسوق غداً ، وحراثة الحقول وتجهيزها استعداداً للموسم القادم » علقت وامبوي وهي تحاول أن ترى بعينيها ما خلف الرذاذ والضباب .
- « وعلينا أن نعتني بالأطفال أيضاً » اختتمت مومبي قولها وهي تتناول الكيس الذي يقيها من المطر استعداداً لمغادرة الكوخ . ثم استدارت

فجأة ونظرت إلى العجوزين وكأنها تنظر إلى ينبوع الحكمة القديمة
التي ينهل منها الشباب أسرار الحياة والسعادة .

— هل رأى أحدكما الجنرال ليلة الاجتماع ؟

شخصت وامبوي ببصرها إليها وقد تبدى الذعر في عينيها . كان
واروي أول من أجاب على السؤال دون أن يزحزح بصره عن المطر .

— مارأيتَه منذ خطب في الاجتماع .

— ولا أنا أيضاً ، قالت وامبوي بلهجة تخلو من أية مسؤولية
حيال احتمال قيام الشرطة بالتحقيق معهم .

خرجت مومبي . لاحقها واروي ببصره وهو يتمم لنفسه : لا بد
من أن شيئاً ما قد جرى خطأ . لقد خدعتني عيناه ، تانك العينان .
ربما لأنني هربت وأصبح بصري شحيحاً .

بقيت وامبوي في جلستها تراقب الرذاذ والضباب الكالِح لعدة
دقائق . بدأت الظلمة تتسلل إلى الكوخ . تاهت وامبوي في خضم
إدراك راسخ زانخر بالهزم المرير من نشاطها في الحرب من أجل الحرية .
« ربما كان علينا ألا نحاكمه نحن » تمتمت . ثم هزت نفسها محاولة
استجلاب أفكارها إلى الزمن الحاضر . يجب أن أوقد النار . وعلي في
البداية تكتيس الغرفة . بثس القنطرة لسرعان ما تتجمع في كوخ نظيف .
ولكنها لم تنهض لفعل أي شيء .

جمع الشمل

كان وامومو آخر معتقل حل به غيكو نيو لمدة عام كامل . كان المعتقلون في هذا المعتقل يعملون على تنفيذ خطة ري جديدة في سهول مويا في إمبو . كانوا يحاولون استصلاح الأراضي البور لتحويلها إلى حقول صالحة لزراعة الأرز . وعندما كان يشتغل غيكو نيو بشق القنوات كان يطمح ببصره عبر السهول المنبسطة ويرى هضاب امبري ونياميني التي تفصل إمبو عن أوكامبي ، وكان يعرف بأن الأرض التي خلف الهضاب تعود إلى واكامبا . ولكنه كثيراً ما كان يتخيل أن البيت ومومي هناك خلف هذه الهضاب .

وفي صبيحة أحد الأيام الصافية رأى كرينياغا ، فحرت مشاعره تلك القمم التي كانت مكسوة بالتلوج والتي بدت تطاول عنان السماء في الأفق البعيد ، وانهمرت الدموع من عينيه . وعلى الرغم من أنه لم يكن يولي اهتماماً للمناظر الطبيعية فإن منظر ذلك الجبل الخرافي ، بذروته التي تشق الضباب ، قد هدأ من مشاعره بعض الشيء .

برزت هذه التجربة من جلد في مخيلة غيكونيو وهو يتماثل للشفاء في مستشفى تيمورو . ذكرته رائحة الدواء في المستشفى بعفن السبخات المنتشرة على طول نهر تانا . وهناك في موي ، في ذلك اليوم نفسه ، فكر ثانية بشكل جاد بحفر كرسي خشبي وتقديمه كهدية زواج إلى مومي . وبدأت تتوضح معالم هذه الفكرة له بينما كان يعمل تحت الشمس وسط عفونة النهر والتربة الموحلة . لسوف يحفر الكرسي من جنوع أشجار (الميوري) الصلبة التي تنمو حول جبل كرينياغا وهضاب نيانداروا . لسوف يستند مقعد الكرسي على ثلاث قوائم محفورة على شكل ثلاثة وجوه متجهة تترجح تحت وطأة عبء ثقل . ولسوف يزين المقعد بالخرز الذي يمثل نهراً وقناة . وسيكون ثمة معول أو رفش بجانب القناة . وبقي غيكونيو سبعة أيام بعد ذلك يفكر في الحفر . كانت وجوه الرجال تتغير باستمرار . غير وضعية مناكبهم وأيديهم ورؤوسهم مراراً . كيف السبيل لتنقيش نهر بالخرز ؟ ألا يجب عليه أن يستبدل المعول بساطور ؟ كان يشغل ذهنه بالتفاصيل الصغيرة لتناسي كدّه الجسدي . ثمة أمل كان يحدوه في أن يعمل هذا الكرسي حالما يغادر المعتقل .

غيكونيو وهو على سرير في المستشفى عاودته الرغبة في حفر الكرسي واستحوذت عليه . لقد مضت أربعة أيام على وجوده في تيمورو . كان طيلة الأيام الثلاثة الأخيرة يفكر بميوغو واعترافاته .

أبوسعه هو ، غيكونيو ، أن يستجمع مثل تلك الشجاعة ويحدث الناس عن خطوات الرصيف ؟ كان في الليل يستعيد ذكريات حياته وتجاربته التي عاناها في المعتقلات السبعة . ماذا قدّمت له على وجه التحديد كل تلك السنين ؟ كان يشعر بوخز الضمير كلما عبرت فكره خاطرة من الخواطر . لقد خائنته شجاعته . لقد باح بالسر خلافاً للقسم الذي حلفه لكتمانه . فأى فرق بينه وبين كارانجا أو ميوغو أو بينه وبين أولئك الناس الذين خانوا شعبهم صراحة وتعاونوا مع الإنسان الأبيض لإنقاذ أنفسهم ؟ كانت لدى ميوغو كل الشجاعة للإقدام على مواجهة إثمه ونخسرانه كل شيء . ارتعد غيكونيو لفكرة خسارة كل شيء . كل صباح كانت مومبي و وانغري تجلبان له الطعام . حاول في البداية ألا يتحدث مع مومبي . بل إنه وجد أن النظر إليها يسبب له الألم . ولكنه بعد اعترافات ميوغو وجد نفسه يحاول استنباط أفكار مومبي ومشاعرها . ما الأمر الخبيء خلف وجهها ؟ ما رأيها بميوغو وباعترافه ؟ وبدأ يزداد شوقه للحديث معها عن ميوغو وعن حياته هو في المعتقل . ماذا تراها تقول عن تلك الخطوات التي كانت تقض له مضجعه ؟ تسربت إلى ذهنه خاطرة جديدة . إنه ما رأى نفسه قط أباً لأبناء مومبي . خطر على ذهنه الآن : كيف سيكون شكل ابنه من مومبي ؟

وما تذكّر غيكونيو موياء ورغبته بحفر الكرسي إلا في اليوم الخامس . تحرك في سريره بالمستشفى محتسماً ألا يستلقي على ذراعه الملفوفة بالحصص .

كانت مشاعره حيال تلك الرغبة طفيفة في البداية ، كمالك المشاعر التي كان يحس بها لدى مرأى الخشب . ولكنه بعد أن بدأ يفكر بالأمر زاد انفعاله احتداماً وتلهفت يدها للمس الخشب والإزميل . إنه سوف يحضر الكرسي الآن ، بعد المستشفى ، قبل معاودته عمله ، أو في ساعات فراغه من عمله . استنبط النموذج بالتفصيل . غير الأشكال . إنه — سيحضر الآن رجلاً نحيفاً ذا قسما صارمة على الوجه ، مطرق الرأس ، منحني المنكبين ، رازحاً تحت وطأة عبء ثقيل ، يده اليمنى مملودة كي تلامس يد امرأة ذات قسما صارمة على الوجه أيضاً . وأما الشكل الثالث فسيكون لطفل تلتقي فوق رأسه أو على كتفيه يدا الرجل والمرأة . ولكن أي مثال يجب أن يصنع من الخوز على المقعد ؟ أحقل بحاجة للتعشيب والعزق ؟ أمعول ؟ أرهرة فول ؟ إنه سيصل إلى قرار نهائي حول هذا الأمر عندما يحين الوقت المناسب .

في اليوم السادس لم تظهر مومي في المستشفى . فشعر بالغم وأصابته الدهشة حين اكتشف بأنه مشتاق لزيارتها أيما اشتياق . بقي طيلة اليوم قلقاً وهو يتساءل عما حدث لها . هل كفّت عن زيارته نهائياً ؟ هل صدها صمته المطبق ؟ انتظر الفجر بفارغ الصبر ، انتظر صباح اليوم التالي . إذا هي لم — .

ولكنها جاءت بمفردها . كانت تأتي لزيارته في العادة مع وانغري . — « إنك لم تأت البارحة » بادرها معاتباً .

جلست مومي على السرير صامتة برهة من الزمن قبل أن تجيب .

- كان الطفل مريضاً ، قالت بمنتهى البساطة .
- ماذا — ماذا حل — به ؟
- مجرد زكام — أو انفلونزا .
- هل أخذتها — أخذته إلى المستوصف ؟
- نعم . أجابت باقتضاب . حاول غيكونيو ألا يتلفت إليها . بدأت مومي وقد عيل صبرها تتأهب للخروج .
- متى ستغادر المستشفى ؟ سألته .
- في غضون يومين . والتفت إليها الآن والتقت عيناه بعينيها . بدت وكأنها لم تكن تتطلع إليه . ذهل لذلك الإرهاق الذي بدا في عينيها . من يدري كم ظلت على هذه الحال ؟ ماالذي طرأ لها خلال الأيام القليلة الماضية ؟
- « إنني ذاهبة الآن » ، قالت ، « قد لأعودك غداً — أو اليوم الذي يليه » . وبدأت تضع أشياء في الحقيبة بكل تصميم . أراد أن يقول لها : « لاتذهبي » . ولكنه قال فجأة : « هيا نتحدث عن الطفل » .
- مومي وقد وقفت على قدميها ، أصيبت بالدهول لسماع هذه الكلمات . فجلست ثانية وتطلعت إليه .
- أدنا في المستشفى ؟ سألته دون كبير اهتمام .

— الآن ، نعم .

« — لا ، ليس اليوم . » قالت وقد نفذ صبرها وكأنها مدركة الآن لاستقلالها فعلاً . أصيب غيكونيو بالدهشة للهجة الحسم في صوتها .

— حسناً . بعد مغادرتي المستشفى . قال وبعد فترة صمت مر بكة أضاف : هل ستعودين إلى البيت ، وتوقدي النار ، وتهتمي بالأشياء كي لاتصدأ ؟

فكرت بهذا القول هنيهة وقد أشاحت بوجهها بعيداً ، ثم التفتت إليه ، في عينيه مباشرة .

لاياغيكونيو . يحاول بعض الناس طمس الأمور ولكن ليس لهم سبيل إلى ذلك . ليست الأمور على تلك البساطة . إن ماجرى بيننا لا يمكن تسويته بجملة واحدة . نحن بحاجة لحديث طويل نفتح فيه قلوبنا بعضنا لبعض ، ونتفحصهما ، ونخطط بعد ذلك للمستقبل الذي نريده . ولكنني الآن يجب أن أنصرف لأن الطفل مريض .

« هل سوف — هل ستأتين غداً ؟ » سألها وهو عاجز عن إخفاء قلقه ومخاوفه . وأدرك في الحال بأن عليه في المستقبل أن يقيم وزناً لعواطفها ولأفكارها ولرغباتها — لقد أصبحت مومي امرأة جديدة . فكرت بسؤاله لهنيهة أيضاً .

« حسنأ . قد أعودك غداً ، قالت واستأذنت بالانصراف . سارت بخطوات ثابتة حزينة ولكنها مطمئنة . تابعها بصره إلى أن اختفت عند الباب ، وغاص بعدئذ مجدداً في سريره . فكر بهدية العرس ، كرسي محفور من خشب (اليوري) . « سوف أغير شكل المرأة . سأحضر شكل امرأة كبيرة — حيلى بطفل » .

* * *

الفهرس

| | |
|-----|------------------|
| ٩ | الفصل الأول |
| ٢٥ | الفصل الثاني |
| ٣٩ | الفصل الثالث |
| ٦٥ | الفصل الرابع |
| ٩١ | الفصل الخامس |
| ١٠٧ | الفصل السادس |
| ١٣١ | الفصل السابع |
| ٢٢٣ | الفصل الثامن |
| ٢٣٧ | الفصل التاسع |
| ٢٧٩ | الفصل العاشر |
| ٢٩٣ | الفصل الحادي عشر |
| ٢٩٩ | الفصل الثاني عشر |
| ٣١٩ | الفصل الثالث عشر |
| ٣٦٣ | الفصل الرابع عشر |
| ٣٩٧ | كارانجا |
| ٤١١ | ميوغو |
| ٤٢٣ | واروي - وامبوي |
| ٤٣٣ | جمع الشمل |

۱۹۸۳ / ۱۱ / ۴۵۰۰

هذه السلسلة

للمرواية مكانة متميزة في الادب العالمي المعاصر وقد رأت وزارة الثقافة ضرورة ان يكون القارئ العربي مطلعاً على اهم الاتجاهات والروايات العالمية فعمدت الى اصدار هذه السلسلة الدورية وقد ظهر منها حتى الآن الروايات التالية :

- | | |
|--------------|----------------------------------|
| ١ - المباشرة | الكسندر كوبرن |
| ٢ - مولك | ترجمة يوسف حلاق الكسندر كوبرن |
| ٣ - ابن لص | ترجمة يوسف حلاق روخاس سبوليدا |
| ٤ - الغاب | ترجمة رفعت عطلة ابن سبنكلر |
| | ترجمة عبد الكريم ناصيف |

وسيصدر الروايات التالية :

- | | |
|--------------------------|----------------------------------|
| ١ - بدرو بارامو | خوان رولفو |
| ٢ - لا تقتل عصفورا ساخرا | ترجمة صالح علماني هاربرلي |
| ٣ - عنف | ترجمة توفيق الاسدي فستوس اياي |
| ٤ - ابلوموف | ترجمة هاني الراهب غونشاروف |
| | ترجمة يوسف سلمان |

وتأمل الوزارة ان تكون هذه السلسلة اسهاماً في خدمة الثقافة العربية عموماً والفن الروائي خصوصاً .

مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق - ١٩٨٣

سعر النسخة

١٨ ل.س.ل